أخطاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم

بين الرأي والوحي

مصطفى الزايد

راجعه

هلال الخويلد



أخطاء النبي محمد ﷺ

بين الرأي والوحي

مصطفى الزايد

راجعه

هلال الخويلد

اسم الكتاب: أخطاء النبي محمد ﷺ بين الرأي والوحي

المؤلف: مصطفى الزايد

القطع: ١٧ × ٢٤

عدد الصفحات: ٢٣٠

السمة: نسخة إلكترونية

إصدار: المؤلف

أخطاء النبي محمد ﷺ

بين الرأي والوحي

مصطفى الزايد

سَتُبْدِي لكَ الأيَّامُ ما كُنتَ جاهِلاً

وَيَأتِيكَ بِالأخبارِ مَنْ لمْ تُزَوِّدِ

طرفة بن العبد

الإهداء

إلى الواقفين في حيرة بين الفسطاطين

لعلهم يزيحون صخرة الوهم عن فم مغارة الوعي

ليظفروا بالكنز المعرفي

أظن أن الوقت حان لنفتح حصان
طروادة قبل أن ندخله إلى قلاع
عقولنا فيدمرها، فالتّاريخ لا يعطينا
الحقائق إذا لم نستنطقه بأسئلة تحيّره

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق الناس من نفس واحدة، واختارهم لخلافته في الأرض وسخر لهم الطبيعة وما تضمنته من قوانين كونية، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[١]، واصطفى منهم أنبياء ورسلاً أوحى إليهم تعاليم تشريعية تبيّن لهم ما ضمن لبني آدم وما أوجب عليهم، وهي في مجملها قواعد وقوانين وأنظمة تضمن مصالح الأفراد والمجتمعات، ويؤدي تطبيقها إلى رشدها ورقيها وسلامتها. والصلاة والسلام على خاتم النبيين وآخر شهيد على البشر الذين عاصروه والذين جاؤوا من بعده إلى قيام الساعة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً﴾[٢]، نبينا محمد الصادق الأمين، وعلى آله الطاهرين

---

[١] سورة الإسراء:٧٠.

[٢] سورة النساء:٤١.

وصحبه الطيبين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فبعد أن قرأت على الأستاذ هلال الخويلد كتابي «القمع في الإسلام» قال لي هناك موضوع آخر مُثار يحتاج إلى بحث، ولعلي أستطيع تناوله في كتاب، وهو «الأخطاء التي تنسب إلى النبي محمد ﷺ». فأعجبتني الفكرة، واتفقت معه على أن نعمل كلانا على هذا البحث، لكن قدر الله أن ينشغل بظروف قاهرة، في حين تفرغت أنا للعمل، فوضعت خطة البحث وشرعت في تنفيذها، وأنجزت الكتاب بفضل الله وعونه سبحانه، فرأيت أن أنسب الفضل إلى أهله فلا أبخس الأستاذ هلالاً حقه، فالفكرة أساس البحث، وقد بدرت منه، وأسأل الله أن يجعلني وإياه شركاء في الثواب، وبعد أن أنجزت الكتاب وضعته بين يديه ليكون له فضل مراجعته وإرشادي إلى مواطن الزلل التي لا يخلو منها عمل بشري.

يقول النبي ﷺ: ﴿كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التّوابون﴾[٣]، وبما أن الأنبياء عليهم السلام عموماً من بني آدم، فظاهر الأمر أنهم يجري عليهم كثير مما يجري على بقية البشر، لكن هناك مشكلة - ربما تكون منطقية - تتعلق بالخطأ الذي يرتكبه الداعية، هل هو ناقض لدعوته، أم أنه عارضٌ اسْتَمالَتْهُ إليه بشريته فأخطأ، كما يحدث عند كل المؤمنين؟ والحقيقة أن الأمر شديد الحساسية، وخصوصاً مع الأنبياء عليهم السلام، فالنبي يختلف

---

[٣] سنن الترمذي، برقم ٢٤٩٩.

عن الداعية، لأن الله سبحانه جعل سِيَرَ الأنبياء تجسيداً للتشريع الذي جاؤوا به، فمن غير المنطقي أن يقول لك النبي: «لا تسرق، لا تزنِ، لا تظلم» ثم يفعل شيئاً من ذلك، وقديماً قال أبو الأسود الدؤلي رحمه الله:

يا أيها الرجلُ المعلِّمُ غيرَهُ   هلّا لنفسِك كان ذا التَّعليمُ
ابدأ بنفسك فانْهَها عن غَيِّها   فإذا انتهتْ عَنهُ فأنتَ عليمُ
لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَهُ   عارٌ عَليك إذا فَعلْت عظيمُ

وما ذهب إليه أبو الأسود فيه تشدد قد لا يتمكن من أدائه أو الحفاظ عليه داعية أو معلم، فلا شك أن كثيراً من الدعاة وقعوا في أخطاء تخالف مناهجهم التي يدعون إليها، والفقهاء لم يغفلوا هذا الجانب، وخصوصاً أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب شرعي على الجميع، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[٤] فقال القاضي أبو يعلى: «والأولى أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر من أهل الستر والصيانة والعدالة والقبول عند الناس؛ لأنه إذا كان بهذه الصفة رَهِبَه المأمور، وربما استجاب إليه ورجع إلى قوله»[٥]، وقال النووي رحمه الله : «قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَلَا يُشْتَرَطُ فِي الْآمِرِ وَالنَّاهِي أَنْ يَكُونَ كَامِلَ الْحَالِ، مُمْتَثِلاً مَا يَأْمُرُ بِهِ، مُجْتَنِباً مَا يَنْهَى عَنْهُ، بَلْ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَإِنْ كَانَ مُخِلّاً بِمَا يَأْمُرُ بِهِ، وَالنَّهْيُ وَإِنْ كَانَ

---

[٤] سورة المائدة: ٧٨.
[٥] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأبي يعلى، ص٤٧.

مُتَلَبِّساً بِمَا يَنْهَى عَنْهُ»[٦]. وقال أبو بكر بن العربي: «قَالَتْ الْمُبْتَدِعَةُ: لَا يُغَيِّرُ الْمُنْكَرَ إلَّا عَدْلٌ. وَهَذَا سَاقِطٌ؛ فَإِنَّ الْعَدَالَةَ مَحْصُورَةٌ فِي قَلِيلٍ مِنْ الْخَلْقِ، وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ عَامٌّ فِي جَمِيعِ النَّاسِ»[٧]، وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «وَأَمَّا مَنْ قَالَ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ إِلَّا مَنْ لَيْسَتْ فِيهِ وَصْمَةٌ، فَإِنْ أَرَادَ أَنَّهُ الْأَوْلَى فَجَيِّدٌ، وَإِلَّا فَيَسْتَلْزِمُ سَدَّ بَابِ الْأَمْرِ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ غَيْرُهُ»[٨]. وقال السفاريني: «لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ أَنْ يَكُونَ فَاعِلُهُ عَدْلاً فِي الْمُعْتَمَدِ، بَلْ الْإِمَامُ، وَالْحَاكِمُ، وَالْعَالِمُ، وَالْجَاهِلُ، وَالْعَدْلُ، وَالْفَاسِقُ: فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ»[٩].

وقال الشيخ محمد صالح المنجد حفظه الله: «وقول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١٠]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[١١]، وما ورد عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ

---

[٦] شرح صحيح مسلم، للنووي، ج ٢، ص٢٣.
[٧] أحكام القرآن، لابن العربي، ج١، ص٣٤٩.
[٨] فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، ج١٣، ص٥٣.
[٩] غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، للسفاريني، ج١، ص٢١٥.
[١٠] سورة البقرة:٤٤.
[١١] سورة الصف:٢.

وَآتِيهِ﴾[١٢]! فهذه النصوص الشرعية قد يفهم بعض الناس منها ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا لم يكن الآمر والناهي على قدرٍ من الاستقامة والطاعة، أو ملتزماً ما يأمر به وينهى عنه على الأقل. والجواب عن ذلك أن المقصود من هذه النصوص ذم من يترك فعل المعروف الذي يأمر به، وذم من يرتكب المنكر الذي ينهى عنه، وليس فيها ذمه على أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر، فهي ذمٌ على تركه فعلَ ما يأمر به، لا على أمره بما لا يفعله، وفرق ظاهر بين الأمرين»[١٣]!

فقد بيّن العلماء أن الداعية قد لا يكون كاملاً، وقد يبدر منه ما يخالف ما يدعو إليه، ويُقبل منه ذلك على قولهم «خذ علمَه ودعْ عمَله» لأن الكمال لله تعالى، وفي ذلك يقول الداعية أحمد ديدات رحمه الله: «أنا مسلم، والإسلام دين كامل، ولكنني لست كاملاً، فإذا أخطأت فلوموني ولا تلوموا الإسلام». فهل ينطبق ذلك على الأنبياء عليهم السلام، أم أن لهم خصوصية تتجاوز بشريتهم؟ هذا مبدأ البحث الذي نتناوله في كتابنا هذا، فندرس قضية الأخطاء عند الأنبياء عموماً، ونستذكر شواهد منها، ثم نتناول الأخطاء التي صدرت عن النبي محمد ﷺ والتي كانت نقطة البداية لوضع هذا الكتاب.

---

[١٢] صحيح البخاري، برقم٣٢٦٧.

[١٣] الإسلام سؤال وجواب، موقع في الشابكة يشرف عليه الشيخ محمد صالح المنجد.

تمهيد

ليس هناك أجمل مظهراً وأبلغ أثراً وأوثق عرىً من تجسيد الآمر الناهي في سيرته كل ما يأمر به وينهى عنه، والأنبياء عليهم السلام بُعثوا بشرائع، فكان الأولى بهم أن يكونوا ألزم الناس لحدودها وتطبيقها، وقد قال الله سبحانه لنبيه محمد ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١٤]، فكيف كانت علاقته ﷺ بهذه الشريعة؟ سئلت السيدة عائشةَ رضي الله عنها عن خُلقِ رسولِ اللهِ ﷺ، فقالت: «كان خُلقُه القرآنَ»، ثم قَالَت: «يَا بُنَيَّ، أَمَا تَقرَأُ القُرآنَ؟ قَالَ: اللّهُ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١٥] فخُلُقُ مُحَمَّدٍ ﷺ القُرآنُ». والقرآن تشريع فيه أمر ونهي، فنفهم من كلام أم المؤمنين أن النبي ﷺ كان تجسيداً لذلك التشريع، لا يترك منه أمراً ولا يأتي منه نهياً، فهل يمكن ذلك لابن آدم الذي من طبعه أنه ﴿خطّاء﴾ كما ورد في الحديث الشريف؟ ونبينا محمد ﷺ هو الذي أمره الله سبحانه: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾[١٦] فأكّد بشريّته؟ الواضح من سياق الآية أن المقصود بها ليس مطابقة التشبيه، بدليل مجيء الصفة ﴿يوحى إلي﴾، التي ليست من سبل المماثلة، وإنما هي ميزة أضيفت

---

[١٤] سورة الجاثية:١٨.
[١٥] سورة القلم:٤.
[١٦] سورة الكهف:١١٠، وسورة فصلت:٦.

إلى بشريته ﷺ، فامتنعت المماثلة التامة (المطابقة)، فالمقصود من الآية الكريمة ألّا يفرط مادح فيبلغه ما لا ينبغي له. وهذه الآية فتحت باب جدل بين تيارين فكريين، الفريق الأول فرّط في صفة الوحي وأخذ ظاهر الكلام بالمماثلة التامة، فأخطأ الحقيقة، والفريق الآخر أفرط فنفى المماثلة مطلقاً، واحتج بأنه ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه، وينام وقلبه مستيقظ، حتى قال قائلهم:

مُـحـمَّـدٌ بَـشَـرٌ وَلَيـسَ كَـالـبَـشَـرِ   بلْ هُوَ ياقوتةٌ والنّاسُ مِنْ حَجَـرِ

ولا شك في أن الياقوت نوع من الحجر لكنه أشرف الحجر، وليس اعتراضنا على هذا المعنى، وإنما على قولهم «ليس كالبشر»، فالكاف في اللغة العربية اسم بمعنى «مثل»، والله سبحانه يقول: ﴿بشر مثلكم﴾، فخالف قولهم مضمون الآية الكريمة، والحقيقة أن مقولة «الفضيلة وسط بين رذيلتين؛ الإفراط والتفريط» مقولة عامة تنطبق في كل مستويات الحياة وليس في الفكر فقط، فالطرفان هنا غالَيا في التطرف، ولعل الطرف الثاني أراد المعنى لكن التعبير خانه، لأن الصواب أن محمداً ﷺ بشر مثلنا في الإنشاء والتكوين والولادة والأكل والنوم والتعب والمرض والجرح والموت، ولكننا نحن - البشرَ - لسنا مثله، لأنه حاز صفة الوحي التي تبعتها لوازم أخرى، كالرؤية من الخلف ويقظة القلب في أثناء النوم، إضافة إلى المعجزات الكثيرة الأخرى، فهو بشر مثلنا لكننا لسنا مثله!

ولكن السؤال الذي يجب أن يطرح هو: هل تقف هذه المشابهة البشرية عند حدود شكلها الذي ذكرناه، من الإنشاء إلى الموت، ولا يلحق بها

الشيء المهم، وهو الخطأ؟ وحين نذكر الخطأ فإننا نقصد نوعيه؛ الخطأ والخطيئة، فهل هذان الأمران ممكنان في حياة النبي ﷺ وسلوكه، وفي حياة الأنبياء عموماً؟ الحقيقة أن الخطيئة منفية تماماً، لأن القاعدة تقول «إن الأنبياء معصومون»، والعصمة نوعان، نوع من قدرة الناس على إلحاق الضرر به، وهو الذي ذكره الله سبحانه في قوله: ﴿والله يعصمك من الناس﴾[١٧]، والنوع الآخر من العصمة هو الحفظ من الفواحش، وذلك في مثل حال نبي الله يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، في قول الله عز وجل: ﴿ولقد هَمَّتْ بِهِ وَهَمّ بِها لَولا أنْ رَأى بُرهانَ رَبِّهِ﴾[١٨]، وقد أخل بعضهم في فهم الآية، ثم بنى تفسيره على ذلك الفهم، فمن يعرف أبسط قواعد اللغة العربية يعلم أن «لولا» حرف امتناع لوجود، أي امتناع فعل الشرط لوجود الجواب، فلو قال من وقع في النهر: «غَرِقتُ لولا أن أنقذني فلانٌ» فهل نفهم أنه غرق؟ لا، والدليل أنه قائم يتحدث، فامتنع الغرق لوجود الإنقاذ، وعليه فحين نقرأ الآية الكريمة ﴿ولقد هَمَّتْ بِهِ﴾ فهو أمر مؤكد بتغليقها الأبواب وقولها ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[١٩]، ثم نكمل الآية ﴿وهَمَّ بِها لَولا أنْ رَأى بُرهانَ رَبِّهِ﴾ لنفهم أنه لم يهم بها بسبب رؤيته برهان ربه. وقد أخّر الله سبحانه «لولا»، التي لها الصدارة، لنكتتين: بلاغية ومعنوية،

---

[١٧] سورة المائدة:٦٧.
[١٨] سورة يوسف:٢٤.
[١٩] المصدر السابق:٢٣.

الأولى المزاوجة بين اللفظين (هَمَّتْ وَهَمَّ)، والثانية أنها هَمَّتْ، والطبيعة البشرية تقتضي الاستجابة للهَمِّ بِهَمٍّ مماثل، ومن ذلك قول كثير عزة:

هَمَمْتُ فَهَمَّتْ ثمّ هابَتْ فَهِبْتُها حَـياءً وَمِثـلي بِالحَـيـاءِ حَقـيـقُ

لكن النبوة فرقت بين الطبيعة البشرية لكل منهما، فكان الهمُّ منها للطبيعة البشرية التي تعشق الجمال وترغب في التمتع به إن لم يمنع منه هيبة أو حياء، وكان امتناع الهمِّ منه لوجود رؤية البرهان. وقد ذكرت امرأة العزيز جانب العصمة حين أقرت لصويحباتها وذلك في قوله تعالى: ﴿ولَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾[٢٠]، فهي لم تكن تؤمن بالله تعالى لتقول «فعَصَمهُ الله» أو «اعتَصَمَ بالله»، وفي ذلك تأتي دقة القرآن الكريم في اختيار لفظة «فاستعصم» أي تشبث بالعصمة، أي الامتناع الحصين بلا أدنى موافقة. ويوسف عليه السلام وإن لم يكن نبياً وقتها، فإنه نبي في اختيار الله سبحانه من الأزل، فكان يُعَدُّ للأمر العظيم وهو «النبوة»، وهذه العصمة أكيدة في شأن الأنبياء عليهم السلام، وجائزة مع غيرهم. فالعصمة عصمتان؛ عصمة حماية من الناس ومن غيرهم من المخلوقات، كما عصم الله النبيَّ دانيال عليه السلام من الأسد، وعصمة حفظ من الفاحشة، والعصمة الثانية لازمة لجميع الأنبياء، أما الأولى فليست لازمة، بدليل قتل بني إسرائيل عدداً من الأنبياء، لذلك تعهد الله سبحانه لنبينا محمد ﷺ بالعصمة من الناس.

---

٢٠ سورة يوسف:٣٢.

ذكر العصمة في القرآن الكريم

زعم بعضهم أن القرآن الكريم لم يذكر عصمة الأنبياء، وبذلك جَانَبَ الصواب، لأن المعاني في اللغة العربية لا تنحصر في مدلولات الألفاظ المجردة، ومثل ذلك ما وقع بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبين الهرمزان، الذي عقد صلحاً مع المسلمين ثم نقضه بتحريض من يزدجرد، فجهز المسلمون جيشاً لمحاربته، وأسروه، وجاؤوا به إلى المدينة مكتوف اليدين وعليه تاجه وحليته، فطلب ماء ليشرب، فأمر له عمر بن الخطاب بالماء، فلما أمسك بالقدح قال لعمر: أأنا آمنٌ حتى أشربه؟ فقال له عمر: «لا بأس عليك»، فأراق الهرمزان الماء على الأرض. فقال عمر: «خدعتني»! فقال له المسلمون: لقد أمّنته يا أمير المؤمنين. فأطلقه!

نلاحظ أن عمر رضي الله عنه لم يقل له أنت آمن، أو لك الأمان، وإنما قال له «لا بأس عليك»، فاللفظ لا يحمل معنى التأمين، ومع ذلك قبل عمر حكم الصحابة بأنه أمّنه بغير لفظ الأمان.

ومثل ذلك احتجاج من قال إن الحسن والحسين، رضي الله عنهما، ابنا رسول الله ﷺ، إذ استشهد بالآية: ﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً ۚ وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(٢١)، فقال: إذا كان عيسى من

---

[٢١] سورة الأنعام: ٨٤-٨٦.

ذرية نوح من جهة أمه (إذ لا أب له)، فالحسن والحسين أولى بأن يكونا من ذرية محمد ﷺ من جهة أمهما ابنته فاطمة رضي الله عنها، لأن بين عيسى ونوح عليهما السلام عدداً من الأجيال، أما هنا فليس بينهم أحد، ويروى ذلك الاحتجاج عن سعيد بن جبير. وكذلك في آية المباهلة مع نصارى نجران: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِين﴾[٢٢]، فلما جاء النبي ﷺ للمباهلة جاء بالحسن والحسين وأمهما فاطمة، رضي الله عنهم أجميعين، فعدهم النبي أبناءه، فكلمة «أبناء» لا تطلق إلا على الذكور من الذرية، أما الإناث فيطلق عليهن «بنات»، في حين تشمل كلمة «أولاد» الذكور والإناث. ومثل هذا المعنى استدلاليٌّ وليس لفظياً. وكذلك نجد في القرآن الكريم آيات يستدل بها على عصمة الأنبياء عليهم السلام، وإن لم يكن لفظها بذلك صريحاً، ومنها قوله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٢٣]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، بفتح الخاء، يدل على أن له خصوصية من بين العباد، فهو بشر ينطبق عليه ما ينطبق على جميع البشر من إمكان الخطأ والشهوة والإغواء والهم، لكن الخصوصية أوجدت صرف السوء والفحشاء عنه، فأوجبت امتناع هيمنة

---

[٢٢] سورة آل عمران:٦١.
[٢٣] سورة يوسف:٢٤.

الحال البشرية، وذلك برؤية البرهان، فهو عليه السلام لولا أن رأى برهان ربه لهَمَّ بها كما همت به. فهنا عصمة، إذ إن العصمة لا تعني أنه لا يشتهي، وإنما تعني أنه لا يفعل، فلم يفعل. وقد ذكر الله سبحانه على لسان امرأة العزيز لفظة العصمة في قولها: ﴿وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾، وقد فصلنا ذلك آنفاً، ولا يشك عاقل في أن معنى قول الله تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾، أن نعصمه.

وفي قوله تعالى للنبي محمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾[٢٤]، فما معنى ﴿ثَبَّتْنَاكَ﴾؟ أليس معناها (عصمناك)؟ فالمعنى لو سِرت على سجيتك البشرية لركنت إليهم شيئاً قليلاً، لكنّنا دفعنا عنك ذلك بالتثبيت فعصمناك من الركون إليهم. وما نوع الركون المذكور في الآية؟ هل هو أكل طعام ذبح على الأنصاب؟ أم الموافقة على بعض تشريعات الجاهلية؟ لا هذا ولا ذاك، بل إنه أمر أعظم من كل الخطايا: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذاً لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾[٢٥]، فمِن عِظَمِ الجريمة التي كان يمكن أن يرتكبها لو سار على طبيعته البشرية، وكلمة ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾، نفهم أن التثبيت هنا أمر أعظم من التثبيت الذي يحصل لصاحب الدعوة أو المبدأ، فهو عصمة، ولم يكن للنبي ﷺ ولا لغيره من الأنبياء عليهم السلام أن يفتروا على الله غير ما أوحى إليهم.

---

[٢٤] سورة الإسراء:٧٤.

[٢٥] سورة الإسراء:٧٣.

كما أن عصمة الأنبياء عليهم السلام تكون من قَبلِ النبوة، لأنهم في علم الله وتقديره أنبياء من قبل أن يبعثهم، فيحفظهم بحفظه ويعصمهم، فيوسف عليه السلام حين راودته المرأة وعصمه الله لم يكن قد بُعِثَ بعد. ومثل ذلك ما حصل للنبي ﷺ، فعن عليٍ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ما هممت بقبيح ممَّا كان أهل الجاهليَّة يهمُّون به، إلا مرَّتين من الدَّهر، كلتيهما يعصمني الله منهما، قلت ليلةً لفتىً كان معي من قريش بأعلى مكَّة في أغنام لأهله يرعاها: أبصر إليَّ غنمي حتَّى أسمُر هذه اللَّيلة بمكَّة، كما يسهر الفتيان. قال: نعم. فخرجت، فجئت أدنى دار من دور مكَّة، سمعت غناءً، وضرب دفوفٍ، ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوَّج فلانة – لرجلٍ من قريشٍ تزوَّج امرأة من قريشٍ – فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصَّوت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا حرُّ الشَّمس، فرجعت؛ فقال: ما فعلت؟ فأخبرتُه، ثمَّ قلت له ليلةً أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت؛ فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مسُّ الشَّمس، ثمَّ رجعت إلى صاحبي، فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئاً. قال ﷺ: فوالله ما هممت بعدها بسوءٍ ممَّا يعمل أهل الجاهليَّة، حتَّى أكرمني الله بنبوَّته﴾[٢٦]. أفليست هذه عصمة؟

---

[٢٦] أخرجه إسحق بن راهويه في إتحاف الخيرة المهرة، ج٧، ص٥٥، وابن حبان برقم ٦٢٧٢ باختلاف يسير، كما رواه البيهقي، وأبو نعيم في دلائل النبوة.

ومثل ذلك ما ذكره صفي الرحمن المباركفوري: «روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: ﴿لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخرّ إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: إزاري، إزاري، فَشُدَّ عليه إزاره، وفي رواية: فما رؤيت له عورة بعد ذلك﴾[٢٧]»[٢٨]. أفليست هذه عصمة؟

وعن عروة بن الزبير قال: حدَّثني جارٌ لخديجة: أنَّه سمع النَّبيَّ ﷺ يقول لخديجة: ﴿أي خديجة! والله لا أعبد اللاَّت، والعزَّى أبداً﴾[٢٩]، وذلك قبل بعثته. أفليست هذه عصمة؟

فالأنبياء عليهم السلام محاطون بالعناية محفوظون بالعصمة من قبل أن يُبعَثوا، مع وجود الطبائع البشرية فيهم من رغبة وشهوة وأكل وتزوج، باستثناء يحيى عليه السلام، فقد أخبرنا الله عز وجل عن نبيه زكريا عليه السلام: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[٣٠]، قال المفسرون: «الحصور: هو الذي لا يأتي النساء».

---

[٢٧] صحيح البخاري، برقم ١٥٨٢.
[٢٨] الرحيق المختوم، للمباركفوري، ص٥٢.
[٢٩] مسند أحمد بن حنبل، ج٢٩، ص٤٦٧.
[٣٠] سورة آل عمران:٣٩.

الفرق بين الخطأ والخطيئة

الخطأ: هو القيام بالفعل دون قصد، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إلّا خَطَأً﴾[٣١].

الخِطْءُ: ﴿هو الجرم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾[٣٢].

الخطيئة: هي الإثم. قال الله سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالّذي أطْمَعُ أنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[٣٣]، يقصد الكذبة في قوله يوم حطم الأصنام: ﴿بلْ فَعَلَها كَبِيْرُهُمْ هَذا﴾[٣٤]، لأن الكذب من الكبائر.

وعليه فإن الخطيئة غير واردة مطلقاً، سواء في ذلك النبي ﷺ وجميع الأنبياء عليهم السلام، فيبقى أمامنا بحث مسألة ورود الخطأ منه ﷺ.

ولذا علينا أن نفصّل في تصنيف الأخطاء، فنفصِل بين ما هو ديني وما هو دنيوي، فنبحث إمكان حدوث الخطأ الدنيوي لدى الأنبياء عليهم السلام عموماً، ولدى نبينا محمد ﷺ خصوصاً، ثم ننتقل إلى الخطأ في الجانب الديني. ولسنا في مقامٍ أو مكانة تؤهلنا لتصنيف أعمال الأنبياء عليهم السلام أو تخطئتهم أو الحكم على أفعالهم بأنها خطأ أو صواب، وإنما نأخذ من أفعالهم ما عاتبهم الله عليه، فعلمنا أنه خطأ.

---

[٣١] سورة النساء:٩٢.
[٣٢] سورة الإسراء:٣١.
[٣٣] سورة الشعراء:٨٢.
[٣٤] سورة الأنبياء:٦٣.

أخطاء الأنبياء السابقين

عليهم السلام

الاختلاف بين الشرائع

الديانات السماوية واحدة في القضايا الإيمانية، مجملة في أركان الإيمان: ﴿أن تؤمِنَ باللَّهِ وملائكتِهِ ورسلِهِ وكتبِهِ واليومِ الآخرِ والقدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ﴾[٣٥]. أما الشرائع الإلهية فهي ليست واحدة، فقد أنزلها سبحانه لتنظيم حيوات المجتمعات وتأديتهم عباداتهم بما يوافق مقتضى الحال أو يخدم غايات مؤقتة، في إطار متناسب معها، من حيث الزمان والمكان والظروف البيئية والاجتماعية وأعمار الناس وقدراتهم ومتطلبات الحياة في كل عصر. ففي شريعة أبينا آدم عليه السلام تزوج الأخ أخته، وذلك لفتح باب التكاثر، فلما انفتح الباب وتعددت الأسر حُرِّمَ على مَن بعدهم. وقد أكد الله سبحانه هذا الاختلاف في القرآن الكريم على لسان عيسى بن مريم، عليهما السلام، لبني إسرائيل، مبيناً الفرق بين شرائع أنبيائهم عليهم السلام وشريعته: ﴿وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[٣٦]، فثمة أشياء كانت محرمة في شريعة بني إسرائيل، منها ما كان تحريماً أصيلاً في الشريعة، كعزل الحائض عزلاً تاماً عن أسرتها، فلا تؤاكلهم ولا تشاركهم حياتهم اليومية حتى تطهر، ومنها ما كان تحريمه عقاباً لهم على ظلم ارتكبوه، ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ

---

[٣٥] سنن ابن ماجه، برقم ٥٣. وفي البخاري ومسلم بألفاظ متقاربة.

[٣٦] سورة آل عمران: ٥٠.

وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً﴾(٣٧)، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾(٣٨)، فقد أكد سبحانه أنه حرمها عليهم ﴿ببغيهم﴾.

ومنها ما كان تحريمه سنة من أنبيائهم وليس تحريماً من الله سبحانه، فنبي الله يعقوب عليه السلام نذر، إن أرجع الله إليه يوسف، ليحرمنَّ على نفسه أحب الطعام إليه، فلما جمعه الله به نظر في أمره وإذ لحم الجمل أحب الطعام إلى نفسه فحرمه عليها، وفي ذلك قول الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلّاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٣٩)، وتبعه بنوه أدباً، إذ لم يستسيغوا أن يأكلوا ما لا يأكل أبوهم وهو يحبه، ثم صارت سنّة في بني إسرائيل، ثم وجد أحبارهم لذلك مبرراً تشريعياً، وهو ليس من التشريع.

وكذلك كانت شريعة محمد ﷺ فيها تخفيف عنهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٤٠).

---

[٣٧] سورة النساء:١٦٠

[٣٨] سورة الأنعام:١٤٦.

[٣٩] سورة آل عمران:٩٣.

[٤٠] سورة الأعراف:١٥٧.

ولذلك اختلف تقييم الذنب وعقوبته بين الشرائع، يؤكد ذلك قول النبي ﷺ ﴿تجَاوز الله لي عَن أمتِي الْخَطَأ وَالنِّسْيَان وَمَا اسْتكْرهُوا عَلَيْهِ﴾[41]، ما يشير إلى أنها لم يكن متجاوَزاً عنها في الشرائع السابقة. وعليه فإن هذه الأشياء الثلاثة وغيرها مما حرم على السابقين يختلف تقييمها بين الشرائع بين أن تكون خطأ قابلاً لتجاوز الله عنه، وبين أن تكون خطيئة يؤاخذ فاعلها بها.

خطأ آدم عليه السلام

لم يُسَمِّ القرآن الكريم ذنب آدم خطيئة، ولا التوراة والإنجيل من قبله، وإنما وردت هذه التسمية في إحدى روايات حديث الشفاعة الطويل، قوله: ﴿وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم﴾[42]، فعدُّها خطيئة إنما جاء على لسان آدم عليه السلام، أما عند الله فأمرها مختلف. كما درجت بمسمى «خطيئة» على ألسنة المجتمعات الأخرى من اليهود والنصارى، وخصوصاً الكتّاب والأدباء والشعراء، ومهما يكن فإننا نأخذ الحق من القرآن الكريم، لأنه أدق، إذ إن الكتابين الآخرين تُرجما، والترجمة يتبعها اختلاف في معاني الألفاظ والاختلافات الدقيقة بين المترادفات، في حين جاء القرآن باللفظ الذي بين أيدينا، والقرآن أصوب لأن الكتابين الآخرين حُرِّفا: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ

[41] متن الأربعين النووية، لنووي، ص١٠٧.
[42] صحيح مسلم، برقم ١٩٥.

مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٤٣]، في حين أن القرآن لم يحرف: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٤٤]، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[٤٥]، والقرآن أحكم، لأن الله وصفه بأنه ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٤٦]، ولم يرد ذلك عن التوراة ولا الإنجيل.

فماذا نسمي الذنب الذي ارتكبه آدم وحواء، خطأ أم خطيئة؟

نبدأ القصة من ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٤٧]، ثم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[٤٨]، ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾[٤٩]، ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾[٥٠]. فمن الآية الأولى نفهم أن الله سبحانه خلق آدم ليكون خليفته في الأرض، ولذلك أمر المخلوقات الأخرى (الملائكة والجني المقرب إبليس) أن يسجدوا له تكريماً له عليهم، فهو الخليفة المصطفى من الخلق، وكانت الخلافة مطمع إبليس، فأبى السجود، لكن حكمة الله تعالى اقتضت ألا ينزل آدم إلى الأرض مباشرة لأنه خَلقٌ جديد يحتاج إلى دورة تأهيلية ليستطيع مواجهة العناء في

[٤٣] سورة البقرة:٧٥.
[٤٤] سورة الحجر:٩.
[٤٥] سورة القيامة:١٧.
[٤٦] سورة هود:١.
[٤٧] سورة البقرة:٣٠.
[٤٨] سورة الحجر: ٢٨-٢٩.
[٤٩] سورة الإسراء:٦١.
[٥٠] سورة طه:١١٧.

الأرض، فأسكنه وزوجه الجنة، ولأنه سبحانه خلقه ليكون في الأرض لا في الجنة قدّر عليه مخالفة الأمر ليهبط إليها، فامتحنهما بالنهي عن الأكل من شجرة بعينها، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[٥١]، وهنا كان لآدم دروس كثيرة تدخل في خطوات الدورة التأهيلية التي ذكرناها، وليس هذا مجال التفصيل فيها، لكن ما يعنينا هو تصنيف ما ارتكبه، هل هو خطأ أم خطيئة، أم ماذا؟ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[٥٢]، فتدلنا كلمة ﴿فَنَسِيَ﴾ أنه لم يذنب عن عمد ولا عن استهانة بالعقاب، ولا حتى في اتكال على عفو الله، وإنما هو «نسيان»! ولا ريب أن النسيان في شريعة آدم غيره في شريعة محمد ﷺ، فأهبطه الله من الجنة بنسيانه، والنسيان طبع بشري لا تعمّد فيه. ولأن الله سبحانه قدّر ذلك عليه من أجل غايته من خلقه وهي خلافته في الأرض فقد ألهمه التوبة ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٥٣] واستغفر آدم وحواء مع أن ذنبهما كان عن نسيان لا عصيان: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٥٤]. فخطأ آدم عليه السلام لم يكن فاحشة، ولا جرماً دفعت ثمنه البشرية برحلة الشقاء الطويلة في الأرض، كما يزعم

---

[٥١] سورة طه:١٢١.
[٥٢] سورة طه:١١٥.
[٥٣] سورة البقرة:٣٧.
[٥٤] سورة الأعراف:٢٣.

بعضهم، بل كان خطأ ناجماً عن نسيان مقدر عليه لأجل الخلافة في الأرض، وهذا النوع من القدر يُحْكِمُهُ الله سبحانه ليقضي أمراً كان مفعولاً، وسيمر معنا في خطأ موسى عليه السلام تقدير مشابه. فكان النسيان مقدراً على آدم عليه السلام ليعاقب عليه، يعاقب بماذا؟ بالوظيفة التي خُلق من أجلها ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، فكان من رحمة الله سبحانه أنه لم ينزله إلى الأرض مباشرة، وإنما جعله يعيش في الجنة فترة، ليعمل من أجل العودة إليها، ويخبر أبناءه بها ويشوّقهم إلى ما فيها فلا يكذبوه، لأنه وأمهم حواء سيحدثانهم عن نعيمها وقصورها وأنهارها وأشجارها وثمارها، كما يجلس الملك المعزول في منفاه يحدث الناس عما كان فيه من نعيم الملك، فلا يكذّبه أو ينكر عليه أحد.

خطأ نوح عليه السلام

ليس بين آدم ونوح عليهما السلام أجيال كثيرة، فهو الحفيد التاسع أو العاشر له، لكنها مدة زمنية واسعة إذا ما قيست بأعمار الناس في ذلك الزمن، وخلال هذه القرون انصرف الناس إلى عبادة تماثيل كانت لرجال صالحين من أسلافهم، عملوها لهم تخليداً لذكراهم، فكانوا يأتون إليها ليتذكروهم ويستشعروا كيف كانت أحوالهم، ثم تحول الأمر عند الأجيال التالية إلى عبادة، فبعث الله إليهم نوحاً نبياً يدعوهم إلى ترك عبادة الأصنام، فكذبوه، بل صاروا يتواصون بذلك أجيالاً، حتى إن الرجل يحمل حفيده أو حفيد

حفيده فيأخذه إلى نوح عليه السلام ويقول له: «انظر إلى هذا! إنه كذاب، فإياك أن تستمع له»، فلما رأى نوح ذلك منهم يئس من ولادة جيل يؤمن بوحدانية الله، فأوحى الله إليه بعلمه الغيب ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(٥٥)، فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ۞ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾(٥٦)، فالأجيال المقبلة ميؤوس منها طالما يتربون في كنف هؤلاء. فجاءه الأمر: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(٥٧)، فصدر القرار، ولم يكن تجمعهم حاضر البحر، فكان عجباً أن تُصنَع في هذا المكان سفينة، لذا كانوا يهزؤون به: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۞ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾(٥٨). فما كان موقف امرأته؟ كانت تسخر منه مثل قومه وتظن به الجنون وتنكر نبوته، بل كانت تدعو أبناءه إلى تكذيبه، فكانوا يصدونها ويؤكدون لها أن أباهم نبي مرسل وأن الغرق سيشمل كل من في الأرض إلا من يركب معه في سفينته، لكن واحداً من أبنائه كان على قلب أمه، فكان يصدقها ويوافقها، لكنه لم يكن يجرؤ على مواجهة أبيه بالتكذيب، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

---

٥٥ سورة هود:٣٦.
٥٦ سورة نوح:٢٧.
٥٧ سورة هود: ٣٧.
٥٨ سورة هود:٣٨-٣٩

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿﴾وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٥٩]. الابن فلذة الكبد، ويقدَّم على النفس، والنبي بَشرٌ له عاطفته وألمه على ولده الذي سيخسر دنياه وآخرته، فصدر منه نداءان؛ الأول للابن ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾، وفي رواية أنه ابن زوجته من زوج سابق، وقد رباه نوح عليه السلام، وثمة قراءة ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَها﴾، لكننا هنا نأخذ القراءة الأشهر، فلما غرق نسي حزنه على موته وأخذه الحزن على آخرته، وليس من يعلم كمن لا يعلم، فكيف بمن يدرك أن ابنه سيدخل النار؟ فصدر النداء الثاني إلى مالك الملك سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾[٦٠]، هل في ذلك معصية أو خطأ؟ لم يطلب له العفو ولا استغفر له، أظهر حزنه فقط على ولده في شكوى إلى الله سبحانه، فتكلم بقلب الأب المحترق قلبه على ولده الذي خسر دنياه وسيخسر آخرته، فرفع يديه إلى

[٥٩] سورة هود:٤٠-٤٤.
[٦٠] سورة هود:٤٥.

الله مبدياً ألمه: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ هذا فلذة كبدي، قطعة من قلبي، وهو ركن من أركان أسرتي، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾، فستدخله النار مع المغرقين كما وعدت!

الخطأ هو الخلط بين الأبوة والنبوة، قال نبينا محمد ﷺ: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[٦١]، فلا سلطة للأبوة على النبوة، وإنما أهل الأنبياء هم من يصدقونهم ويتبعونهم، فقد قال تعالى في أبي لهب عم النبي ﷺ ﴿سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾[٦٢]، في حين قال ﷺ في سلمان الفارسي، الذي لم يكن قرشياً ولا عربياً: «سلمان منا - أهل البيت -»[٦٣]، فأهل الناس أولادهم وأسرهم، أما أهل الأنبياء فهم مصدقوهم ومتابعوهم ومناصروهم، فلما خلط نوح عليه السلام بين وظيفة النبوة وعاطفة الأبوة نادى: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، فجاءه الجواب: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[٦٤]! فهناك عنصران في الشكوى: (ابني) من (أهلي)، فجاء الجواب على عنصر واحد ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، فلم يقل له إنه ليس ابنك، فهو ابنه، لكنه ليس من أهله (المصدِّقين المتّبعين المناصرين له)، فالأهلية أهلية اتباع لا انتساب، أما البنوة فهي بنوة انتساب، وبذلك يسقط زعم من أفِكَ فقال إن ابنه كان ابن زنا، إذ لم ينكر الله نسبه وإنما أنكر انتماءه، ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ

---

[٦١] صحيح البخاري، برقم ٣٤٧٥.
[٦٢] سورة المسد:٣.
[٦٣] المستدرك على الصحيحين، للحاكم، ج٣، ص٥٩٨.
[٦٤] سورة هود:٤٦.

عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٦٥]. عند ذلك انتبه نوح إلى خطئه، فقد حزن على كافر، فبادر إلى دفع ثقل العاطفة عنه ورجع فوراً إلى التوبة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٦٦]. فلا يجوز الاستغفار للكفار، كالملحد الذي لا يؤمن بالله، أو المشرك الذي يتخذ مع الله شريكاً أو يزعم أن له ولداً، مهما كانت صلة قرابته أو مدى عمق العلاقة معه، ومن أقرب من الابن؟! لأن ذلك من الاعتداء في الدعاء، وقد نهينا عنه، وقد استأذن النبي ﷺ ربنا أن يستغفر لأمه فلم يأذن له، وهي من هي، ولا نعلم عنها من الكفر والشرك إلا ما نعلمه عن المجتمع الجاهلي عامة بلا تخصيص أفراد أو تعيينهم، فكيف يُستغفَر لمن ثبت كفره أو إلحاده أو شركه، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً﴾[٦٧]. وقد قال رسول الله ﷺ: «الدواوين عند الله ثلاثة؛ ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله عز وجل: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾[٦٨]، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً، فظلم العبد نفسه في ما بينه وبين ربه، من صوم يومٍ تركه، أو صلاةٍ تركها؛ فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء. وأما

---

[٦٥] سورة هود:٤٧.
[٦٦] سورة هود:٤٧.
[٦٧] سورة النساء:٤٨.
[٦٨] سورة المائدة:٧٢.

الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً، فظلم العباد بعضهم بعضاً؛ القصاص لا محالة﴾[٦٩]، ولو جاز الاستغفار للمشركين لاستغفر الصحابة رضي الله عنهم لآبائهم، ولما عاتب الله نبيه نوحاً عليه السلام في حزنه على ابنه وخوفه على آخرته.

أخطاء إبراهيم عليه السلام

جاء في حديث الشفاعة الطويل، الذي مر بنا في قصة آدم عليه السلام: ﴿فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ...، فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي﴾، فقوله: ﴿وذكر كذباته﴾ دليل على أنها أكثر من كذبة. والثابت أنها ثلاث كذبات، ذكرهن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النبيُّ عليه السَّلَامُ، قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ في ذَاتِ اللهِ، قَوْلُهُ: إِنِّي سَقِيمٌ، وَقَوْلُهُ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا، وَوَاحِدَةٌ في شَأْنِ سَارَةَ، فإنَّه قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمعهُ سَارَةُ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ، فَقالَ لَهَا: إنَّ هذا الجَبَّارَ، إنْ يَعْلَمْ أنَّكِ امْرَأَتي يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ، فإنْ سَأَلَكِ فأخْبِرِيهِ أنَّكِ أُخْتِي، فإنَّكِ أُخْتي في الإسْلَامِ، فإنِّي لا أَعْلَمُ في الأرْضِ مُسْلِمًا غيرِي وَغَيْرَكِ...﴾[٧٠].

فالكذبة الأولى: حين أراد البقاء عند الأصنام ليحطمها بعد انصراف قومه،

---

[٦٩] مسند أحمد بن حنبل، برقم ٢٦٠٣١.
[٧٠] صحيح مسلم، برقم ٢٣٧١.

قال الطبري: وكان قومه أهل تنجيم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[٧١]، أي رأى نجماً قد طلع، فعصب رأسه وقال: إني مَطْعُون، وكان قومه يهربون من الطاعون مخافة أن يعديهم، فأراد أن يتركوه في بيت آلهتهم، ويخرجوا عنه، ليكسرها، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ۝ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ۝ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٧٢].

والكذبة الثانية هي التي ذكرناها حين مر بنا قول الله سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام حين خاطب قومه مصرّحاً بإيمانه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[٧٣]، وذكرنا أنه قصد بقوله ﴿خَطيئتي﴾ الكذبة التي كذبها لتحريك عقول قومه حين جاء إلى أصنامهم بعد أن ولوا مدبرين،

---

[٧١] سورة الصافات: ٨٩.

[٧٢] سورة الأنبياء:٥٨-٦٧.

[٧٣] الشعراء: ٧٥ - ٨٢.

فهو أراد استدراجهم للاعتراف بأنهم لا ينطقون ولا يعون، ولو كانوا يستطيعون دفع الضر عن أحد لدفعوه عن أنفسهم، فاعترفوا بذلك فبادرهم باستنكار عبادتهم من دون الله تعالى! ومع ذلك عدها خطيئة وليست خطأ، لأن الكذب من الكبائر، وإن كان أراد بها تحريض عقولهم على التفكر والاستنتاج لمعرفة الحق.

والكذبة الثالثة هي التي كذبها على ملك مصر، حين ذهب إلى مصر ومعه زوجته سارة، وكانت جميلة، فذُكِرت للملك فأمر بإحضارها مع مرافقها إبراهيم عليه السلام، فلما جيء بهما إليه سأل إبراهيم عنها، فخاف إبراهيم أن يقول إنها زوجته، فيقتله الملك ليأخذها، فقال: «إنها أختي»، وقصد بذلك أخوّة الإسلام، وهذا الكلام يصنف في المعاريض، وهي أن تطلق لفظاً هو ظاهر في معنى، وتريد به معنى آخر يتناوله ذلك اللفظ. وقد أخذ به النبي ﷺ يوم نزلوا ببدر، فمر بهم راكب، فسأل: ممن القوم؟ فقال له النبي ﷺ: ﴿نَحْنُ مِنْ مَاءٍ﴾[٧٤]، استناداً إلى قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[٧٥]، فتابع الرجل مسيره، فمر بقريش، فسألوه عمن رأى في طريقه، فقال: قوم من بني ماء السماء، وهي قبيلة مشهورة. وقد قالت العرب: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب». فالكذبتان الأوليان كانتا في الله سبحانه، كما بيّن النبي ﷺ، ومع ذلك خاف إبراهيم عليه السلام مغبتها يوم القيامة.

---

[٧٤] سيرة ابن هشام، ج٢، ص ٢٥٥.
[٧٥] سورة الأنبياء: ٣٠.

مع ضيفه المجوسي

كان إبراهيم عليه السلام كريماً، وكان لا يستمرئ أن يأكل وحده، إلا أن ينزل به ضيوف يشاركهم طعامه، وفي أحد الأيام وضع الطعام ولم يكن لديه ضيف، فخرج يبحث فوجد رجلاً، فدعاه فلبى، فلما بدأ الأكل لم يسمِّ الله عز وجل، فسأله لمَ لمْ يُسَمِّ الله؟ فقال الرجل إنه مجوسي! فغضب إبراهيم عليه السلام، وقال: مجوسيٌّ على مائدة نبي؟! لا والله هذا لا يكون، فطرده. فلما ولى الرجل أوحى الله إلى إبراهيم معاتباً، بأنه سبحانه منذ أن خلق هذا الرجل وقد بلغ نحواً من سبعين عاماً، لم يقطع عنه الرزق، وهو كافر به يعبد غيره، وأنت يا إبراهيم طردته في جلسة واحدة! فهرول إبراهيم وراء الرجل يستعيده، فاستغرب الرجل، فأخبره بوحي الله إليه في شأنه، فانكسر قلبه وقال: الله يمدني برفده ويعاتب نبيه فيَّ وأنا كافر به أعبد سواه؟ ما أقبح فعلي إلى إحسانه، والله لا أعبد غيره. فأسلم.

هذه القصة متداولة، وقد ذكرها الصفوري باختصار في كتاب «نزهة المجالس ومنتخب النفائس»، في باب «الكرم والفتوة ورد السلام». ولم يعلق عليها بشيء، والقصة ليس فيها إساءة إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام، بل العكس، فهي تؤكد حرصه على دينه وعلى دعوة الناس إلى الله، لكن الخطأ المحسوب عليه هو أنه غضب عندما علم أن الذي يأكل طعامه مجوسي، ولم يكن الغضب من طبعه، قال تعالى: ﴿إنَّ إبراهيمَ لأوّاهٌ

حليمٌ﴾[٧٦]، لكن مجرد تفكره في أنه أطعم كافراً عدواً لله جعله يستشعر الذنب ويغضب لدين الله، ولكي يبرئ نفسه أمام الله بأنه لم يكن يعرف فلما عرف تبرأ منه ومن فعله ذلك كما تبرأ من أبيه من قبل: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[٧٧].

استغفاره لأبيه

وزعم بعضهم أن من أخطاء إبراهيم عليه السلام استغفاره لأبيه في قوله تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾[٧٨] فقالوا: طلب النبي المغفرة لعابد أوثان! وقد فنّد الله سبحانه فِريتهم هذه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[٧٩]، فهو مقام مدح لإبراهيم عليه السلام، أو ليس صدق الوعد من الصفات الحميدة والمندوبة؟ وهل يَعِدُ النبي وعداً لا يفي به، فكيف يقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾[٨٠]، ولا يستغفر له؟! وقد مدح الله نبيه إسماعيل عليه السلام بقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً﴾[٨١]، فكان لزاماً على إبراهيم عليه السلام الاستغفار

---

[٧٦] سورة التوبة: ١١٤.
[٧٧] المصدر السابق..
[٧٨] الشعراء:٨٣-٨٦.
[٧٩] سورة التوبة:١١٤.
[٨٠] سورة مريم:٤٥-٤٧.
[٨١] سورة مريم:٥٤.

لأبيه ليس لمقام الأبوة، وإنما لمقام الوفاء بالعهد والنبوة، فلو لم يستغفر له بعد أن وعده لكان ذلك خطيئة منه، لأن ﴿آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان﴾[٨٢]، فهل تكون في نبي الله وخليله خصلة من النفاق؟ لذلك وفى بوعده فاستغفر له وفاء لا استعطافاً.

أخطاء موسى عليه السلام

حين خشيت أم موسى عليه السلام على ولدها ألقته في اليم، بوحيٍ رباني، ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾[٨٣]، وكان فرعون يقتل المولودين في ذلك العام، ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٨٤]، فتربى موسى في قصر فرعون وكأنه ابن له، لكنه حين كبر أخبرته أمه مرضعته أنه ابنها وأنه إسرائيلي وليس فرعونياً، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ

---

[٨٢] صحيح البخاري، برقم ٣٣.
[٨٣] سورة القصص:٨.
[٨٤] سورة القصص:٩.

لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ۝ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ۝ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ۝ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۝ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٨٥)، فلم يكن موسى عليه السلام يريد قتل المصري، فهو إنما ﴿وَكَزَهُ﴾ أي ضربه بيده دفعاً، لكن الرجل وقع قتيلاً، فأصبح موسى في نظر القانون مجرماً، والخطأ في شريعة بني إسرائيل أيضاً عليه عقاب، فلجأ إلى الاستغفار، وأعطى عهده لله: ﴿لنْ أكونَ ظَهيراً لِلمُجرِمينَ﴾، فهو كان ظهيراً للرجل الذي من شيعته، ويبدو أنه اتضح له أن ذلك الإسرائيلي لم يكن على الحق، لذلك صنفه بأنه مجرم. ويبدو أن الرجل مشكلاته كثيرة، ففي اليوم التالي عاد المشهد نفسه مع رجل آخر، فاستصرخه، لكن موسى هذه المرة قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، وهنا فضحه الإسرائيلي: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ

---

(٨٥) سورة القصص:١٤-٢١.

الْمُصْلِحِينَ﴾، فطار المصري بالخبر بأن الذي قتل قتيل الأمس موسى، فائتمر القوم به ليقتلوه، ففر إلى مدين. وهناك تلقى التعاليم الدينية على يد نبي الله شعيب، وقيل غيره، فلما رجع إلى مصر كلمه الله في الطور وابتعثه نبياً. ويأتي تبيين موسى عليه السلام خطأه هذا في حديث الشفاعة الطويل، الذي مر ذكره: ﴿فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ... فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْساً لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي...﴾، فهو خائف مغبة هذا الخطأ، مع أنه لم يكن عن قصد وإصرار، وإنما حصل بتقدير الله ليُخرجه من كنف فرعون ليتلقى التعليم والإعداد للنبوة على يد الرجل الصالح.

تكسير الألواح

كلم الله تعالى موسى ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ۝ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[٨٦] فكانت هدية عظيمة أن يؤتي الله أمته ألواحاً كتبت في السماء وفيها مضامين عظيمة وأخبار مستقبلية، لكنه سبحانه جعل لها شرطاً بيّنه في تتمة الآيات: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا

---

[٨٦] سورة الأعراف:١٤٤-١٤٥.

بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[٨٧] وفي هذه الأثناء خلال غياب موسى عن قومه خالفوا الشرط: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾[٨٨] فرأوا سبيل الغي فاتخذوه سبيلاً، ورأوا سبيل الرشد ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾[٨٩] لكنهم لم يتخذوه سبيلاً، فلما جاء موسى ووجدهم على تلك الحال ولم يتحقق فيهم الشرط غضب منهم ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾[٩٠].

يظن بعضهم أنه ألقاها من الغضب، أي أنه عبر أو نفّس عن غضبه بتكسير الألواح، كما يتحول المرء العصبي عند غضبه إلى وحش يكسر ويحطم ويدمر، ومثل هذا لا يليق بنبي، فكيف يبلغ به الأمر أن يكسر الألواح التي هي عديل القرآن الكريم عندنا؟ قد يقول قائل إن غضبه كان لله! فنسأل: إذا غضب رجل لله وبيده مصحف فهل يلقيه؟ لا، هذا لا يصدر عن شخص لديه إيمان، فكيف بنبي كلمه الله تكليماً؟ فماذا إذاً؟ لقد أخبر الله موسى عليه السلام بعكوف قومه على عبادة العجل قبل أن يرجع إليهم: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ۝ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ

[٨٧] سورة الأعراف:١٤٦.
[٨٨] سورة الأعراف:١٤٨.
[٨٩] سورة طه:٩٠.
[٩٠] سورة الأعراف: ١٥٠.

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً...﴾[٩١]، فموسى رجع غاضباً أسفاً قبل أن يراهم على حال الكفر، لأنه علم بها من الله سبحانه، لكنه عندما عرف حال العنت منهم حين عاتب هارون: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٩٢]، فهنا رأى أن القوم لا يستحقون هذا التكريم وهذه الهدية العظيمة من الله سبحانه، فألقاها لكسرها تكريماً للألواح نفسها ضنّاً بها على غير مستحقيها، لكي لا تصير في أيديهم وهم ليسوا أهلاً لها، ولو كانت ورقاً لأحرقها، لكن ما الحل مع الألواح سوى الكسر؟

فلما أخبرهم بعقاب جريمتهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾[٩٣]، ذكر الطبري عن ابن عباس قال: أمر موسى قومه، عن أمر ربه عز وجل، أن يقتلوا أنفسهم، فاحتبى الذين عكفوا على العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، وكل من قُتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة. وهنا انطفأ غضب موسى عليه السلام، ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى

---

[٩١] سورة طه:٨٣-٨٦.
[٩٢] سورة الأعراف:١٥٠.
[٩٣] سورة البقرة:٥٤.

الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[٩٤]، فرأى أن من بقي من قومه، الذين نفذوا أمر الله فقتلوا إخوانهم دون أن تأخذهم في الله لومة لائم، ولم يرقبوا فيهم رحماً، يستحقون أن توضع بين أيديهم الألواح، فأخذ ما بقي منها، وهي التي حفظها الله - بحكمته وتقديره - من الكسر، وهي التي ﴿فِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾. وذهب منها ما كان ﴿تَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[٩٥].

أخطاء داوود عليه السلام

القضاء بين الناس من أصعب المهمات، لذلك كان اختيار القضاة يتم على بصيرة وخبرة، ثم اختبار بمسائل عويصة ومعضلات، ليتأكدوا أنه أهل لحمل هذا العبء، وكثير من الفقهاء والعلماء أعرضوا عن القضاء وتهربوا من توليه، خوفاً من الوقوع في خطأ يكون فيه ظلم، ومنهم أبو حنيفة، والشافعي، رحمهما الله. فكيف بالملك الذي يدير أمور شعب بأكمله، ويلجأ إليه أهل الخصومات ليفصل بينهم؟ هذا كان نبي الله داود عليه السلام، الذي جعله الله ملكاً على بني إسرائيل، فأراد الله سبحانه تنبيهه إلى خطورة هذه المهمة وحساسيتها بطريقة لا ينساها، كما يعلّمه أصول الحكم بين الخصوم، فلما كان منتصباً في المحراب يصلي، فوجئ برجلين

---

[٩٤] سورة الأعراف:١٥٤.

[٩٥] سورة الأعراف: ١٤٥.

يدخلان عليه فجأة، ولم يعلم بأنهما ملكين أرسلهما الله إليه لتعليمه أصول القضاء الذي به يقام العدل الذي هو أساس الحكم والملك. قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۞ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۞ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ۩ ۞ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[٩٦]. لقد استمع داوود إلى أحد الخصمين فقط، فأطلق حكمه مباشرة: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ بناء على كلام الخصم قبل أن يستمع إلى خصمه، فكان ذلك ظلماً، ثم لم ينتبه إلى خطئه فاستفاض في الحديث ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، وهنا اختفى الخصمان من أمامه فجأة كما ظهرا فجأة، فانتبه داوود إلى نفسه، و﴿ظَنَّ﴾ أي أيقن، ﴿أنما فتنّاه﴾ أي امتحناه، ولأنه أدرك خطأه وأنه لم ينجح في الامتحان ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾، صحيح أنها كانت محاكمة تجريبية، لكنه عليه السلام أخطأ، فالحكم لا يطلق إلا بعد الاستماع إلى الطرفين، ويروى عن

[٩٦] سورة ص: ٢١ ــ ٢٥.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: «إذا جاءك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تقضِ له حتى يأتي خصمه، فقد يكون فقئت عيناه معاً». فقد غفر الله لداوود هذا الخطأ لأن الظلم لم يقع على أحد، وإنما كان اختباراً ودرساً له. لكنه يبقى خطأ.

ويزعم اليهود الذين كتبوا «العهد القديم» أن هذه القصة جاءت ردعاً لداوود عليه السلام الذي غصب زوجة أحد جنوده التي لم يكن له غيرها، في حين كان لداوود تسع وتسعون زوجة، وهذا التأول غير صحيح، لأنه لا يتوافق مع سياق القصة التي افتروها، وسنمر بها في بحث الافتراء على الأنبياء، إن شاء الله.

حكمه في مسألة الحرث

قال تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[٩٧]. القضاء بين المتخاصمين مسألة من أمور الدنيا وليست من أمور الدين، أما العدل فهو من أمور الدين والدنيا معاً، والحاكم أو القاضي عليه أن يجتهد في استقصاء العدل في حكمه، والله سبحانه يعلّم أنبياءه ليعلّموا من بعدهم، ولا ينزل الوحي في الفصل بكل قضية ترفع إليه، فعلّم داوود عليه السلام –

---

[٩٧] سورة الأنبياء:٧٨-٧٩.

كما مر بنا – ألّا يحكم لخصم حتى يحضر خصمه، وألّا يحكم لأحدهما إذا أدلى بحجته حتى يسمع كلام الآخر، وإلا لما تعلم القضاة إعمال فكرهم في القضايا، ومعرفة الصواب والأصوب، وقد بيّن النبي محمد ﷺ اعتماد النبي في الحكم بين الناس على إمكاناته البشرية من عقل وفكر واستماع إلى الحجج والشهود، فقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا بشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ؛ فأَقْضِي لَهُ بِنحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ﴾[٩٨]، فالوحي لا ينزل إلا في القضايا التي تعجز الإمكانات البشرية عن حلها، كقصة القتيل في قصة بقرة بني إسرائيل، إذ قتل منهم رجل ولا شاهد ولا دليل يشير إلى القاتل، فلجؤوا إلى موسى عليه السلام، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة، فاستوصفوها عنتاً، فوصفها الله لهم، فلما ذبحوها ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٩٩]، فرجع الميت إلى الحياة وقال: «قتلني فلان»، ثم مات. وكذلك نزل للفصل في قصة الجلاس وربيبه عمير بن سعد، إذ تخلف الجلاس عن النبي ﷺ في تبوك، وكان يُثبِّط الناس عن الخروج، وقال: «والله إن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير»، وكان متزوجاً أم عمير، وعمير يتيم في حجره لا مال له، وكان يكفله، ويحسن إليه، فلما سمعه قال: «يا جلاس، لقد كنت أحب الناس إليَّ، وأحسنهم عندي يداً، وأعزهم عليَّ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتُها لأفضحنك،

---

[٩٨] صحيح البخاري، برقم ٧١٦٩.

[٩٩] سورة البقرة:٧٣.

ولئن كتمتُها لأهلَكَن»، فهبَّ إلى النبي ﷺ وذكر له مقالة الجلاس، فبعث ﷺ إلى الجلاس، فسأله عما قال عمير، فحلف بالله ما تكلم به، وإن عميراً لكاذب، وعمير حاضر. فقام عمير من عند النبي ﷺ وهو يقول: اللهم أنزل على رسولك بيان ما تكلمت به، وكانت القضية محيرة، فالجلاس رجل وعمير غلام، والناس من طبعهم أن يكذبوا الطفل ويصدقوا الكبير، فأصبح الأمر محيراً؛ فلماذا يكذب عمير على الجلاس وهو كافله، ولماذا يصدر مثل هذا القول عن الجلاس وهو مسلم؟ فكان لا بد من وحي سماوي يبرئ الطفل استجابة لدعوته، ويكشف حقيقة النفاق عند الجلاس، فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[١٠٠]، فاعترف الجلاس بذنبه وتاب وحسنت توبته، ولم ينزع عن خير كان يصنعه إلى عمير، فكان ذلك مما عرفت به توبته. أما القضايا التي يمكن الحكم فيها بالإمكانات البشرية فلا ينزل فيها وحي، وفي الوقت نفسه تكون مثل هذه القضايا معجزات للأنبياء عليهم السلام كبقية المعجزات التي تأتي بين الفينة والفينة تثبيتاً للمؤمنين وتوكيداً لنبوة النبي.

---

[١٠٠] سورة التوبة:٧٤.

فكان على داوود عليه السلام أن يعمل فكره ويحكم بما يراه الصواب والعدل، ولا ريب أن الحكم البشري في أمور الدنيا قابل للإصابة وللخطأ. فنفشت غنم في زرع قوم فأهلكته، فجاء أصحاب الزرع يشتكون إلى ملكهم داوود عليه السلام، فأصدر حكمه بإعطاء الغنم لأصحاب الحرث تعويضاً لهم. فخرج الرعاء، فقال لهم سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا! فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضي بينهم؟ قال أدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها، ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه أخذ أصحابُ الحرثِ الحرثَ، وردوا الغنم إلى أصحابها. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾، لكنه سبحانه لم يثرّب على داوود، فأكمل ﴿وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾، ففي حكم داوود عليه السلام تعويض لأصحاب الزرع الذين لا ذنب لهم، وعقوبة لأصحاب الغنم الذين أهملوها فاعتدت على الزرع، لكن كان هناك حكم أصوب ألهمه الله لسليمان عليه السلام، وذلك ليعرّف داوود الحكمة التي آتاها سليمان بشكل عملي، ويبين له أنه مؤهل للحكم بين الناس، ويعلّم داوود أنه يمكنه الاستعانة برأي غيره في القضاء ولا يكتفي برأيه وحده، فهو أيضاً درس آخر من دروس الحكم لداوود عليه السلام.

خطأ يعقوب في إظهار فرق المودة

بما أن النبي بشر يجري عليه ما يجري على غيره من البشر فإن القلب يميل إلى بعض الأبناء أكثر من بعض، وإلى بعض الزوجات أكثر من بعض، ولذلك كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، فيقول: ﴿اللهم هذا قسمي في ما أملك فلا تلمني في ما تملك ولا أملك﴾[١٠١]، يعني بذلك قلبه الذي كان يميل إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. فأمر المحبة بيد الله سبحانه وليس بيد العبد، وكان نبي الله يعقوب عليه السلام يعطف على ولديه الصغيرين اليتيمين (يوسف وبنيامين) ويغدق عليهما من محبته أكثر من بقية إخوانهما، ويزيد في ذلك ليوسف لتوسمه النبوة فيه، ما أثار في نفوسهم الحسد، فارتكبوا جريمتهم التي فصّلها الله سبحانه في «سورة يوسف». فالخطأ لم يكن بمحبتهما أكثر من غيرهما، لأنه أمر بيد الله لا بيده، وإنما في ظهور أمارات هذا التفريق العاطفي، حتى قال أبناؤه: ﴿إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[١٠٢]، فخلص الله يوسف من كيد إخوته، وابتلى يعقوب بفقد يوسف، وعاقب الإخوة بحزن أبيهم حتى تمنوا لو أنهم لم يفعلوا: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[١٠٣].

---

[١٠١] البدر المنير، لابن الملقن، ج٨، ص٣٨.
[١٠٢] سورة يوسف:٨.
[١٠٣] سورة يوسف:٨٥.

و«حرضاً» دَنِفَ الجسم مخبولَ العقل. وأصل الحرض: الفساد في الجسم والعقل من الحزن أو العشق. وكان لذلك كله أحكامه الظاهرية، لكن حكمة الله اقتضت أن يُربى يوسف في القصور لا في البادية، تربية جدّية خالية من الدلال الذي في كنف أبيه ومن العاطفة الجامحة التي تُفقد الابن الحزم، فيتعلم في ظل العزيز ويدرس ليصبح في ما بعد عزيز مصر، ثم ينقل الله بني إسرائيل إليه ليقيموا هناك.

خطأ نبي في إحراق قرية نمل

﴿قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجِهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثم َأَمَرَ بِبيتهَا فَأُحْرِقَ بالنَّارِ، قَالَ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً﴾[١٠٤]، وفي رواية: ﴿فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ فِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ﴾[١٠٥].

وبما أن شرائع الأنبياء مختلفة في ما بينها، كما ذكرنا من قبل، فقد قال العلماء: إن هذا الحديث محمول على أن شريعة ذلك النبي يجوز فيها قتل النمل، كما يجوز فيها الإحراق بالنار، والدليل أن الله سبحانه لم يعتب عليه في أصل القتل، ولا في الإحراق، وإنما عاتبه في الزيادة على نملة واحدة في قوله تعالى: «فهلا نملة واحدة» أي (التي قرصتك فهي الجانية).

---

١٠٤ صحيح البخاري، برقم ٣٣١٩.

١٠٥ المصدر السابق، برقم ٣٠١٩.

أما في شريعة الإسلام فكلاهما لا يجوز، لما رواه أبو داوود عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنه، ﴿أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ النَّمْلَةِ وَالنَّحْلَةِ وَالْهُدْهُدِ وَالصُّرَدِ﴾[١٠٦]. ولقوله ﷺ: ﴿إِنَّ النَّارَ لا يُعَذِّبُ بهَا إِلَّا اللَّهُ﴾[١٠٧].

ولم يذكر النبي ﷺ اسم ذلك النبي، لأن الأهمية للدرس الذي أراد تعليمنا إياه من هذه الحادثة، فالنمل أمة من الأمم، وعلى ذلك ينبغي تطبيق الحكم الشرعي ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[١٠٨]، والامتناع عن الإسراف في الانتقام وأخذ البريء بذنب المسيء ولو كان نملة. ولا ريب أن النبي الذي أمر بإحراق قرية النمل ارتكب خطأ في ذلك، والدليل أن الله سبحانه عاتبه على ذلك، ولكن هذا الخطأ أيضاً يقع خارج دائرة الخطأ الديني أو الخطيئة، وبالتأكيد بعد أن أوحى الله إليه «فهلا نملة واحدة» صار ذلك حكماً في شريعته فلا يباح لأحد الانتقام من غير الجاني أو الانتقام الجماعي، أما النهي عن قتل حيوانات بعينها، والأمر بقتل أخرى بعينها، فمرتبط بالضرر الذي تجلبه أو تتسبب فيه، فالنمل غير البعوض، مع أن كليهما ينطبق عليه «أمة من الأمم»، لكن لم ينهنا الشرع عن قتل البعوض في حين نهانا عن قتل النمل، وكذلك نُهينا عن قتل الهدهد والصرد، وأمرنا بقتل الحدأة والغراب، ونهينا عن قتل الضفدع، وأمرنا بقتل الفأر، فكل ذلك

---

[١٠٦] سنن أبي داوود، برقم ٥٢٦٧.
[١٠٧] صحيح البخاري، برقم ٢٩٥٤.
[١٠٨] سورة فاطر:١٨.

مرتبط بالأضرار التي تجلبها المأمور بقتلها. وكذلك المنفعة التي يجلبها ما نهينا عن قتله.

خطأ يونس عليه السلام في إباقه إلى الفلك

ثَقُلَ على النبي محمد ﷺ إعراض قومه وتكذيبهم رسالته، وتجرؤهم عليه بالإيذاء، وعلى المستضعفين من أصحابه بالتعذيب والتنكيل الذي وصل في بعض الحالات إلى القتل، فأصبح في حيرة من أمره، إذ قضى ثلاثة عشر عاماً يدعوهم وهم سادرون في غيهم معرضون عن الهدى، فاشتد عليه حزنه، وهم ينشرون بين الناس أنه مجنون لتنفيرهم منه ومن دعوته، فأنزل الله سبحانه سورة القلم تثبيتاً له وتحذيراً من اليأس أو الانتصار للنفس: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۞ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۞ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١٠٩]، والخلق العظيم جامع لكل الأخلاق الحسنة، ومنها الصبر والحلم وسعة الصدر، ثم ضرب له مثلاً نبياً من الأنبياء نهاه عن أن يكون مثله، هو يونس عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۞ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۞ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١١٠]. فما قصة هذا النبي الذي لقبه الله

---

[١٠٩] سورة القلم:١-٤.
[١١٠] المصدر السابق :٤٨-٥٠.

«صاحب الحوت» و«ذا النون»، وأنزل سورة باسمه «سورة يونس»، ونهى النبيَّ ﷺ أن يكون مثله، ولكن النهي لم يكن عن كل الأحوال، وإنما عن حال واحدة بيّنها الله سبحانه ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، والمكظوم المجترع غيظه الحابس له وهو يعتمل في صدره ينهشه، وهو بذلك غير الكاظم غيظه، فالكاظم غير متألم مثل المكظوم. فنهى الله نبيه أن يحرق قلبه حزنه على تكذيب قومه وأذاهم.

ونأتي إلى قصة يونس عليه السلام، قال تعالى:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾(١١١) فبين سبحانه أن الإيمان عند إشراف العذاب لا ينفع صاحبه، ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾(١١٢)، لذلك قال سبحانه عندما آمن فرعون حين أشرف على الغرق: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، فكانت مكافأته على إيمانه المتأخر إلى وقت نزول العذاب أن نجّاه الله ببدنه، فقذفه الموج إلى الشاطئ، ليكون آية لقومه الذين صدقوا بألوهيته، ليروا أنه بشر ولو كان إلهاً لما غرق ولا مات. ويؤكد الله سبحانه أن هذه سنته في خلقه

---

[١١١] سورة يونس: ٩٠-٩٢.

[١١٢] سورة الأنعام: ١٥٨.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[١١٣]، لكن كان هناك استثناء شمل قرية واحدة: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[١١٤]. فهذه القرية شارف العذاب أن ينزل بها، وكان الله سبحانه أرسل إليهم يونس يدعوهم إلى دين الله، فردّوا عليه ما جاءهم به وامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه: إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا وكذا، فاخرج من بين أظهرهم، فأخبر قومه بذلك، فقالوا لبعضهم: راقبوه، فإن خرج من القرية فإنه والله كائن ما وعدكم، فلما كانت الليلة التي وُعدوا بالعذاب في صبحها خرج ليلاً ورآه القوم، فخرجوا من القرية إلى أرض فسيحة، وفرّقوا بين كل دابة وولدها، ثم عجوا إلى الله بالاستغفار والبكاء، فاستقالوه سبحانه مما كان منهم وسألوه دفع العذاب عنهم، فأقالهم ومنع العذاب أن ينزل بهم، وتنظّر يونس الخبر عن القرية وأهلها، حتى مر به مارٌّ، فسأله: ما فعل أهل القرية؟ فأخبره بخبرهم، فغضب يونس عند ذلك وقال: والله لا أرجع إليهم كذّاباً أبداً، فقد وعدتهم العذاب في يوم، ثم رُدّ عنهم! فمضى على وجهه مغاضباً: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[١١٥]، وتتمة القصة واضحة

---

[١١٣] المصدر السابق :٩٦-٩٧.

[١١٤] المصدر نفسه:٩٨.

[١١٥] سورة الأنبياء:٨٧.

في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۝ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[١١٦].

فما الخطأ الذي ارتكبه يونس عليه السلام؟ هو غضبه لنفسه، وإعراضه عن الرجوع لإتمام دعوته، حفظاً لماء وجهه: «والله لا أرجع إليهم كذّاباً أبداً، فقد وعدتهم العذاب في يوم، ثم رُدّ عنهم»! فقد استجاب لرؤيته البشرية، إذ إن قومه كذّبوا نبوّته، فلما وعدهم، بوحي من الله، بقدوم العذاب، ليؤكد لهم نبوته وصدق دعوته، رفع عنهم ذلك العذاب، فالآن أصبح في نظرهم – كما ظن – كذاباً بيّن الكذب، فبأي وجه يرجع إليهم؟ وكيف سيصدقونه بعد الآن في ما يدعوهم إليه وما يأمرهم به وما ينهاهم عنه؟ يقول لهم هذا أمر بوحي من الله! سيقولون له رأينا وحيك من قبل! هكذا ظن، فأبق إلى الفلك متقهقراً عن متابعة دعوتهم وتعليمهم، فلم يكن فعله خطيئة كالخطايا التي كان ينهاهم عن ارتكابها، وإنما كان خطأ في تقديره لردة فعلهم بعد أن أصبح في أعينهم كاذباً، ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي اعتقد أن الله لن يسلط عليه القدر لرده إليهم، فذهب إلى الفلك بغير أمر إلهي (فأبق)، وإباق العبد فراره من سيده، أو هربه من العمل الذي أوكله

[١١٦] سورة الصافات:١٣٩-١٤٨.

به، فناله قدر الله بعقاب أن جعل الحوت يلتقمه حبساً لا هضماً، ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، بدأها بقوله: ﴿لا إله إلا أنت﴾ أي أنك المتصرف في هذا الكون، والأمر أمرك وحدك، وأنا عبد خاضع لك ولست شريكاً فألزمك إنزال العذاب بمن قبلتَ توبتهم وأقلتهم ودفعت عنهم العذاب، ﴿سبحانك﴾ تعاليت وتنزهت عن أن يكون لعبد أن يغاضبك ويفر من قدرك، ﴿إني كنت من الظالمين﴾ حين غضبتُ لأمرٍ أنتَ رضيتَه.

أخطاء الأنبياء في العهد القديم والتلمود

رأينا أنه من المناسب إدراج هذا الباب قبل تناول أخطاء النبي محمد ﷺ ومناقشتها بين الرأي والوحي، وذلك للعلاقة بن قصص الأنبياء الواردة في القرآن الكريم والأخطاء التي تناولتها الآيات، وقصصهم المفتراة في العهد القديم (التوراة) والتلمود، والتي لن نطلق عليها الحكم إلا بعد قراءتها من مصادرها، لكن يجب علينا هنا التنبيه إلى أنها كذب وإفك افتراهما بنو إسرائيل على أنبيائهم، فلفقوا عليهم الحكايات زوراً وبهتاناً، فافتروا عليهم أخطاء هي أكبر من أن تسمى خطايا، وإنما هي جرائم لو صدرت عن إنسان جاهل أو كافر لكانت مريعة، ومع ذلك لم يستحيوا أن ينسبوها إلى أشخاص اصطفاهم الله ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(١١٧)، وما كان اصطفاؤه إياهم إلا عن خبرة بما في نفوسهم وعلم أزلي بما سيكون منهم، ليكونوا رسله إلى خلقه وقدوات تُتَّبَع، وكيف يختار رسلاً يرتكبون ما ينهون عنه ويكفرون بما يدعون إليه؟! وقد ينكر علينا قائل: كيف يفترون عليهم ويلفقون لهم قصصاً وهم يعلمون أنهم أنبياء يأخذون عنهم التشريع والتعاليم؟! فنسأله سؤالاً يقوم مقام الإجابة ويرد إنكاره ويطفئ بريق عجبه، فنقول له: من قتل يحيى وزكريا، ودعا إلى صلب المسيح عيسى، عليهم السلام؟ أليسوا هم حملة التوراة؟ أليسوا أحبار بني إسرائيل وعلماء عصرهم؟ فانظر إلى صورتهم التي رسمها

---

١١٧ سورة آل عمران:٣٣.

الله في القرآن الكريم، ولم ولن يستطيع أحد أن ينكر شيئاً مما جاء فيها من القبح والسوء: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَاناً مُّبِيناً ۞ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ۞ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ۞ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ۞ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ۞ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ۞ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ۞ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً ۞ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[١١٨].

فهل من عجب في أن يفتري على الأنبياء من قتلوا الأنبياء؟ وإذا كانوا استحلوا دماءهم فهل عَجَبٌ أن يستحلوا سمعتهم وأعراضهم؟ بل إن صاحب شريعتهم موسى عليه السلام، الذي ينسبون أنفسهم إليه دينياً،

---

[١١٨] سورة النساء: ١٥٣-١٦١.

فيقولون: «موسوي»، لم يسلم من إفكهم وافترائهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾[١١٩].

لوط وابنتاه

«٣٠ وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ. ٣١ وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: «أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ. ٣٢ هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْراً...[١٢٠].

لم أكمل سرد بقية القصة، واكتفيت بالإشارة إلى محتواها وبينت موضعها في العهد القديم لمن أراد الرجوع للتأكد، فبقيتها تروي أحداثاً مما يترفع عنه كثير من الحيوانات، ولم أربأ بنفسي عن نقلها لأنها مكذوبة مفتراة فحسب، بل لأنني أستحيي من نقلها، فما موقفي من القارئ، بل ما موقفي من بناتي وبنات المسلمين حين يقرأن مثل هذا الكلام الفاحش الساقط الذي لا يقبله عقل ولا ضمير ولا منطق ولا فطرة سوية، ولا يرتضيه حتى مجتمع إباحي سافل؟ فكيف ينسب إلى بيت نبوة يُتخذ قدوة لغيره من البيوت؟ وكيف يوضع في كتاب يفترض أنه سماوي يزعمون أن الله أنزله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾[١٢١]. فيتعبد الناس بتلاوته، وما

---

[١١٩] سورة الأحزاب:٦٩.

[١٢٠] سفر التكوين: الأصحاح التاسع عشر، ٣٠-٣٢.

[١٢١] سورة الإسراء:٤٣.

الهدف من تلفيق مثل هذه القصص ونشرها بين الناس، بل وإعطائها للمتعبدين من الرهبان والراهبات المنعزلين عن الناس باسم الرب؟ أليس فيها إثارة للغرائز؟ ألا تمنح قراءتها مبرراً لمن ثارت غريزته فأراد أن يرتكب إثماً أقل من فعل نبي وابنتيه؟ ألا يشير ذلك إلى من افتراها ووضعها وإلى هدفه من ذلك؟ فالمعذرة من القراء الكرام، فالعقل والفطرة يرفضان ما أورده لنا توراة بني إسرائيل لا توراة رب العالمين.

خديعة يعقوب وأمه لأبيه إسحق

«١ وَحَدَثَ لَمَّا شَاخَ إِسْحَاقُ وَكَلَّتْ عَيْنَاهُ عَنِ النَّظَرِ، أَنَّهُ دَعَا عِيسُوَ ابْنَهُ الأَكْبَرَ (العيص في العربية)، وَقَالَ لَهُ: «يَا بُنِي». فَقَالَ لَهُ: «ها أَنَذَا». ٢ فَقَالَ: «إِنَّنِي قَدْ شِخْتُ وَلَسْتُ أَعْرِفُ يَوْمَ وَفَاتِي. ٣ فَالآنَ خُذْ عُدَّتَكَ: جُعْبَتَكَ وَقَوْسَكَ، وَاخْرُجْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَتَصَيَّدْ لِي صَيْداً، ٤ وَاصْنَعْ لِي أَطْعِمَةً كَمَا أُحِبُّ، وَأْتِنِي بِهَا لآكُلَ حَتَّى تُبَارِكَكَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ». ٥ وَكَانَتْ رِفْقَةُ سَامِعَةً إِذْ تَكَلَّمَ إِسْحَاقُ مَعَ عِيسُو ابْنِهِ. فَذَهَبَ عِيسُو إِلَى الْبَرِّيَّةِ كَيْ يَصْطَادَ صَيْداً لِيَأْتِيَ بِهِ. ٦ وَأَمَّا رِفْقَةُ فَكَلمتْ يَعْقُوبَ ابْنِهَا قَائِلَةً: «إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ أَبَاكَ يُكَلِّمُ عِيسُوَ أَخَاكَ قَائِلاً: ٧ ائْتِنِي بِصَيْدٍ وَاصْنَعْ لِي أَطْعِمَةً لآكُلَ وَأُبَارِكَكَ أَمَامَ الرَّبِّ قَبْلَ وَفَاتِي. ٨ فَالآنَ يَا ابْنِي اسْمَعْ لِقَوْلِي فِي مَا أَنَا آمُرُكَ بِهِ: ٩ اِذْهَبْ إِلَى الْغَنَمِ وَخُذْ لِي مِنْ هُنَاكَ جَدْيَيْنِ جَيِّدَيْنِ مِنَ الْمِعْزَى، فَأَصْنَعَهُمَا أَطْعِمَةً لأَبِيكَ كَمَا يُحِبُّ، ١٠ فَتُحْضِرَهَا إِلَى أَبِيكَ لِيَأْكُلَ حَتَّى

يُبَارِكَكَ قَبْلَ وَفَاتِهِ». ١١ فَقَالَ يَعْقُوبُ لِرِفْقَةَ أُمِّهِ: «هُوَذَا عِيسُو أَخِي رَجُلٌ أَشْعَرُ وَأَنَا رَجُلٌ أَمْلَسُ. ١٢ رُبَّمَا يَجُسُّنِي أَبِي فَأَكُونُ فِي عَيْنَيْهِ كَمُتَهَاوِنٍ، وَأَجْلِبُ عَلَى نَفْسِي لَعْنَةً لاَ بَرَكَةً». ١٣ فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: «لَعْنَتُكَ عَلَيَّ يَا ابْنِي. اِسْمَعْ لِقَوْلِي فَقَطْ وَاذْهَبْ خُذْ لِي». ١٤ فَذَهَبَ وَأَخَذَ وَأَحْضَرَ لأُمِّهِ، فَصَنَعَتْ أُمُّهُ أَطْعِمَةً كَمَا كَانَ أَبُوهُ يُحِبُّ. ١٥ وَأَخَذَتْ رِفْقَةُ ثِيَابَ عِيسُو ابْنِهَا الأَكْبَرِ الْفَاخِرَةَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهَا فِي الْبَيْتِ وَأَلْبَسَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا الأَصْغَرَ، ١٦ وَأَلْبَسَتْ يَدَيْهِ وَمَلاَسَةَ عُنُقِهِ جُلُودَ جَدْيَيِ الْمِعْزَى. ١٧ وَأَعْطَتِ الأَطْعِمَةَ وَالْخُبْزَ الَّتِي صَنَعَتْ فِي يَدِ يَعْقُوبَ ابْنِهَا.

١٨ فَدَخَلَ إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ: «يَا أَبِي». فَقَالَ: «هاأَنَذَا. مَنْ أَنْتَ يَا ابْنِي؟» ١٩ فَقَالَ يَعْقُوبُ لأَبِيهِ: «أَنَا عِيسُو بِكْرُكَ. قَدْ فَعَلْتُ كَمَا كَلَّمْتَنِي. قُمِ اجْلِسْ وَكُلْ مِنْ صَيْدِي لِكَيْ تُبَارِكَنِي نَفْسُكَ». ٢٠ فَقَالَ إِسْحَاقُ لابْنِهِ: «مَا هذَا الَّذِي أَسْرَعْتَ لِتَجِدَ يَا ابْنِي؟» فَقَالَ: «إِنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ قَدْ يَسَّرَ لِي». ٢١ فَقَالَ إِسْحَاقُ لِيَعْقُوبَ: «تَقَدَّمْ لأَجُسَّكَ يَا ابْنِي. أَأَنْتَ هُوَ ابْنِي عِيسُو أَمْ لاَ؟». ٢٢ فَتَقَدَّمَ يَعْقُوبُ إِلَى إِسْحَاقَ أَبِيهِ، فَجَسَّهُ وَقَالَ: «الصَّوْتُ صَوْتُ يَعْقُوبَ، وَلكِنَّ الْيَدَيْنِ يَدَا عِيسُو». ٢٣ وَلَمْ يَعْرِفْهُ لأَنَّ يَدَيْهِ كَانَتَا مُشْعِرَتَيْنِ كَيَدَيْ عِيسُو أَخِيهِ، فَبَارَكَهُ. ٢٤ وَقَالَ: «هَلْ أَنْتَ هُوَ ابْنِي عِيسُو؟» فَقَالَ: «أَنَا هُوَ». ٢٥ فَقَالَ: «قَدِّمْ لِي لآكُلَ مِنْ صَيْدِ ابْنِي حَتَّى تُبَارِكَكَ نَفْسِي». فَقَدَّمَ لَهُ فَأَكَلَ، وَأَحْضَرَ لَهُ خَمْراً فَشَرِبَ. ٢٦ فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «تَقَدَّمْ وَقَبِّلْنِي يَا بني». ٢٧ فَتَقَدَّمَ وَقَبَّلَهُ، فَشَمَّ رَائِحَةَ ثِيَابِهِ وَبَارَكَهُ، وَقَالَ: «انْظُرْ! رَائِحَةُ ابْنِي كَرَائِحَةِ حَقْل قَدْ بَارَكَهُ الرَّبُّ. ٢٨ فَلْيُعْطِكَ اللهُ مِنْ نَدَى السَّمَاءِ وَمِنْ دَسَمِ

الأَرْضِ. وَكَثْرَةَ حِنْطَةٍ وَخَمْرٍ. ٢٩ لِيُسْتَعْبَدْ لَكَ شُعُوبٌ، وَتَسْجُدْ لَكَ قَبَائِلُ. كُنْ سَيِّداً لإِخْوَتِكَ، وَلْيَسْجُدْ لَكَ بَنُو أُمِّكَ. لِيَكُنْ لاَعِنُوكَ مَلْعُونِينَ، وَمُبَارِكُوكَ مُبَارَكِينَ».

٣٠ وَحَدَثَ عِنْدَمَا فَرَغَ إِسْحَاقُ مِنْ بَرَكَةِ يَعْقُوبَ، وَيَعْقُوبُ قَدْ خَرَجَ مِنْ لَدُنْ إِسْحَاقَ أَبِيهِ، أَنَّ عِيسُوَ أَخَاهُ أَتَى مِنْ صَيْدِهِ، ٣١ فَصَنَعَ هُوَ أَيْضاً أَطْعِمَةً وَدَخَلَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لأَبِيهِ: «لِيَقُمْ أَبِي وَيَأْكُلْ مِنْ صَيْدِ ابْنِهِ حَتَّى تُبَارِكَنِي نَفْسُكَ». ٣٢ فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «مَنْ أَنْتَ؟» فَقَالَ: «أَنَا ابْنُكَ بِكْرُكَ عِيسُو». ٣٣ فَارْتَعَدَ إِسْحَاقُ ارْتِعَاداً عَظِيماً جِداً وَقَالَ: «فَمَنْ هُوَ الَّذِي اصْطَادَ صَيْداً وَأَتَى بِهِ إِلَيَّ فَأَكَلْتُ مِنَ الْكُلِّ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ، وَبَارَكْتُهُ؟ نَعَمْ، وَيَكُونُ مُبَارَكاً». ٣٤ فَعِنْدَمَا سَمِعَ عِيسُو كَلاَمَ أَبِيهِ صَرَخَ صَرْخَةً عَظِيمَةً وَمُرَّةً جِداً، وَقَالَ لأَبِيهِ: «بَارِكْنِي أَنَا أَيْضاً يَا أَبِي». ٣٥ فَقَالَ: «قَدْ جَاءَ أَخُوكَ بِمَكْرٍ وَأَخَذَ بَرَكَتَكَ». ٣٦ فَقَالَ: «أَلاَ إِنَّ اسْمَهُ دُعِيَ يَعْقُوبَ، فَقَدْ تَعَقَّبَنِي الآنَ مَرَّتَيْنِ! أَخَذَ بَكُورِيَّتِي، وَهُوَذَا الآنَ قَدْ أَخَذَ بَرَكَتِي». ثُمَّ قَالَ: «أَمَا أَبْقَيْتَ لِي بَرَكَةً؟» ٣٧ فَأَجَابَ إِسْحَاقُ وَقَالَ لِعِيسُو: «إِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ سَيِّداً لَكَ، وَدَفَعْتُ إِلَيْهِ جَمِيعَ إِخْوَتِهِ عَبِيداً، وَعَضَدْتُهُ بِحِنْطَةٍ وَخَمْرٍ. فَمَاذَا أَصْنَعُ إِلَيْكَ يَا ابْنِي؟» ٣٨ فَقَالَ عِيسُو لأَبِيهِ: «أَلَكَ بَرَكَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ يَا أَبِي؟ بَارِكْنِي أَنَا أَيْضاً يَا أَبِي». وَرَفَعَ عِيسُو صَوْتَهُ وَبَكَى. ٣٩ فَأَجَابَ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «هُوَذَا بِلاَ دَسَمِ الأَرْضِ يَكُونُ مَسْكَنُكَ، وَبِلاَ نَدَى السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ. ٤٠ وَبِسَيْفِكَ تَعِيشُ، وَلأَخِيكَ تُسْتَعْبَدُ، وَلكِنْ يَكُونُ حِينَمَا تَجْمَحُ أَنَّكَ تُكَسِّرُ نِيرَهُ عَنْ عُنُقِكَ».

٤١ فَحَقَدَ عِيسُو عَلَى يَعْقُوبَ مِنْ أَجْلِ الْبَرَكَةِ الَّتِي بَارَكَهُ بِهَا أَبُوهُ. وَقَالَ عِيسُو فِي قَلْبِهِ: «قَرُبَتْ أَيَّامُ مَنَاحَةِ أَبِي، فَأَقْتُلُ يَعْقُوبَ أَخِي». ٤٢ فَأُخْبِرَتْ رِفْقَةُ بِكَلاَمِ عِيسُوَ ابْنِهَا الأَكْبَرِ، فَأَرْسَلَتْ وَدَعَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا الأَصْغَرَ وَقَالَتْ لَهُ: «هُوَذَا عِيسُو أَخُوكَ مُتَسَلّ مِنْ جِهَتِكَ بِأَنَّهُ يَقْتُلُكَ. ٤٣ فَالآنَ يَا ابْنِي اسْمَعْ لِقَوْلِي، وَقُمِ اهْرُبْ إِلَى أَخِي لاَبَانَ إِلَى حَارَانَ، ٤٤ وَأَقِمْ عِنْدَهُ أَيَّاماً قَلِيلَةً حَتَّى يَرْتَدَّ سُخْطَ أَخِيكَ. ٤٥ حَتَّى يَرْتَدَّ غَضَبُ أَخِيكَ عَنْكَ، وَيَنْسَى مَا صَنَعْتَ بِهِ. ثُمَّ أُرْسِلُ فَآخُذُكَ مِنْ هُنَاكَ. لِمَاذَا أُعْدَمُ اثْنَيْكُمَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ»؟[١٢٢].

ففي هذه القصة جعلوا مصدر المباركة النبي إسحق وليس الله، وهو بشر يمكن خداعه وأخذ البركة منه لغير الذي أراد مباركته! وهنا المقصود بالمباركة النبوة من بعده، وهل يعطي النبوة غير الله سبحانه؟ وهل الأنبياء إلا عباد مأمورون يبلغون وينصحون ويتبعون أوامر الله سبحانه! ثم لو أن النبي الأب خُدع، أفلا يرى الله ويسمع فيوحي إليه بأنه خدع؟ وهل يرضى الله منح البركة لمخادع؟ أم أن يعقوب عليه السلام وأمه خدعا الله أيضاً؟! ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[١٢٣]، وحاشا لنبي الله يعقوب عليه السلام أن يكون بهذا المستوى المنحط من الغش والخداع.

---

[١٢٢] سفر التكوين: الأصحَاحُ السَّابعُ وَالْعِشْرُونَ، ١ – ٤٥.

[١٢٣] سورة الإسراء: ٤٣.

عيسو (العيص) يغدر بأخيه يعقوب

جاء في التلمود:

ولما رحل يعقوب من بيت أبيه دعا عيسو ابنه إليفاز وقال له خفية: امض فاتبع يعقوب، ولتكن قوسك بيدك، فاكمن له واقتله بين الجبال، واغنم كل ما معه من مال ونفائس، ثم عد إلي. وكان إليفاز عندها في الثالثة عشرة من عمره، غير أنه كان لا يُجارى في سرعة المشي، ويجيد الرمي عن القوس. فأطاع أباه، وأخذ معه عدداً من الرجال، وتبع يعقوب فأدركه عند تخوم أرض كنعان. ولما رأى يعقوب إليفاز آتياً خلفه توقف وانتظر مجيئه، يحسب أن ابن أخيه يحمل رسالة من دياره. لكن إليفاز لما اقترب امتشق سيفه، فسأله يعقوب عن سبب لحاقه به، فأجاب الفتى: «كذا وكذا أمرني أبي، وأنا لا أجرؤ على عصيان أوامره». فلما أدرك يعقوب نية عيسو، ورأى على الفتى علائم العزم على تنفيذ ما كُلف به بادره ورجاله بالقول: «خذوا كل ما معي، كل ما أعطانيه أبي وأمي في يدي، ولتبقوا على حياتي، وتكون هذه المكرمة عمل خير لكم». وأعطى الرب في أعينهم حظوة ليعقوب، فتركوه يتابع رحلته بأمان. وأما الذهب والفضة وكل متاع نفيس كان أخذه معه من بيت أبيه، فاستولى عليه إليفاز ورفاقه، وحملوه إلى عيسو. فكان عيسو ممتعضاً بشدة لأنهم أذعنوا لرجائه، وضم الكنز الذي استولوا عليه إلى خزائنه.

ففي رأي كتبة التلمود أن عيسو لم يُرضه المال المغتصب من أخيه، ولم يكن ليريح نفسه إلا قتل أخيه؟ هكذا هي أخلاق الأنبياء التي يرسمها التلموديون!

يعقوب يخدع خاله لابان

كان يعقوب – كما يذكر العهد القديم - تزوج ابنتي خاله لابان «لَيْئة» و«راحيل»، وكان رعى له غنمه أربع عشرة سنة، سبع سنين مهراً لكل واحدة... ٢٥ وَحَدَثَ لَمَّا وَلَدَتْ رَاحِيلُ يُوسُفَ أَنَّ يَعْقُوبَ قَالَ لِلاَبَانَ: «اصْرِفْنِي لأَذْهَبَ إِلَى مَكَانِي وَإِلَى أَرْضِي. ٢٦ أَعْطِنِي نِسَائِي وَأَوْلاَدِي الَّذِينَ خَدَمْتُكَ بِهِمْ فَأَذْهَبَ، لأَنَّكَ أَنْتَ تَعْلَمُ خِدْمَتِي الَّتِي خَدَمْتُكَ». ٢٧ فَقَالَ لَهُ لاَبَانُ: «لَيْتَنِي أَجِدُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ. قَدْ تَفَاءَلْتُ فَبَارَكَنِي الرَّبُّ بِسَبَبِكَ». ٢٨ وَقَالَ: «عَيِّنْ لِي أُجْرَتَكَ فَأُعْطِيَكَ». ٢٩ فَقَالَ لَهُ: «أَنْتَ تَعْلَمُ مَاذَا خَدَمْتُكَ، وَمَاذَا صَارَتْ مَوَاشِيكَ مَعِي، ٣٠ لأَنَّ مَا كَانَ لَكَ قَبْلِي قَلِيلٌ فَقَدِ اتَّسَعَ إِلَى كَثِيرٍ، وَبَارَكَكَ الرَّبُّ فِي أَثَرِي. وَالآنَ مَتَى أَعْمَلُ أَنَا أَيْضاً لِبَيْتِي؟» ٣١ فَقَالَ: «مَاذَا أُعْطِيكَ؟» فَقَالَ يَعْقُوبُ: «لاَ تُعْطِينِي شَيْئاً. إِنْ صَنَعْتَ لِي هذَا الأَمْرَ أَعُودُ أَرْعَى غَنَمَكَ وَأَحْفَظُهَا: ٣٢ أَجْتَازُ بَيْنَ غَنَمِكَ كُلِّهَا الْيَوْمَ، وَاعْزِلْ أَنْتَ مِنْهَا كُلَّ شَاةٍ رَقْطَاءَ وَبَلْقَاءَ، وَكُلَّ شَاةٍ سَوْدَاءَ بَيْنَ الْخِرْفَانِ، وَبَلْقَاءَ وَرَقْطَاءَ بَيْنَ الْمِعْزَى. فَيَكُونَ مِثْلُ ذلِكَ أُجْرَتِي. ٣٣ وَيَشْهَدُ فِيَّ بِرِّي يَوْمَ غَدٍ إِذَا جِئْتَ مِنْ أَجْلِ أُجْرَتِي قُدَّامَكَ. كُلُّ مَا لَيْسَ أَرْقَطَ أَوْ أَبْلَقَ بَيْنَ الْمِعْزَى وَأَسْوَدَ بَيْنَ الْخِرْفَانِ فَهُوَ مَسْرُوقٌ عِنْدِي». ٣٤ فَقَالَ لاَبَانُ: «هُوَذَا لِيَكُنْ

بِحَسَبِ كَلاَمِكَ». ٣٥ فَعَزَلَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ التُّيُوسَ الْمُخَطَّطَةَ وَالْبَلْقَاءَ، وَكُلَّ الْعِنَازِ الرَّقْطَاءِ وَالْبَلْقَاءِ، كُلَّ مَا فِيهِ بَيَاضٌ وَكُلَّ أَسْوَدَ بَيْنَ الْخِرْفَانِ، وَدَفَعَهَا إِلَى أَيْدِي بَنِيهِ. ٣٦ وَجَعَلَ مَسِيرَةَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَعْقُوبَ، وَكَانَ يَعْقُوبُ يَرْعَى غَنَمَ لاَبَانَ الْبَاقِيَةَ.

٣٧ فَأَخَذَ يَعْقُوبُ لِنَفْسِهِ قُضْبَاناً خُضْراً مِنْ لُبْنَى وَلَوْزٍ وَدُلْبٍ، وَقَشَّرَ فِيهَا خُطُوطاً بِيضاً، كَاشِطاً عَنِ الْبَيَاضِ الَّذِي عَلَى الْقُضْبَانِ. ٣٨ وَأَوْقَفَ الْقُضْبَانَ الَّتِي قَشَّرَهَا فِي الأَجْرَانِ فِي مَسَاقِي الْمَاءِ حَيْثُ كَانَتِ الْغَنَمُ تَجِيءُ لِتَشْرَبَ، تُجَاهَ الْغَنَمِ، لِتَتَوَحَّمَ عِنْدَ مَجِيئِهَا لِتَشْرَبَ. ٣٩ فَتَوَحَّمَتِ الْغَنَمُ عِنْدَ الْقُضْبَانِ، وَوَلَدَتِ الْغَنَمُ مُخَطَّطَاتٍ وَرُقْطاً وَبُلْقاً. ٤٠ وَأَفْرَزَ يَعْقُوبُ الْخِرْفَانَ وَجَعَلَ وُجُوهَ الْغَنَمِ إِلَى الْمُخَطَّطِ وَكُلِّ أَسْوَدَ بَيْنَ غَنَمِ لاَبَانَ. وَجَعَلَ لَهُ قُطْعَاناً وَحْدَهُ وَلَمْ يَجْعَلْهَا مَعَ غَنَمِ لاَبَانَ. ٤١ وَحَدَثَ كُلَّمَا تَوَحَّمَتِ الْغَنَمُ الْقَوِيَّةُ أَنَّ يَعْقُوبَ وَضَعَ الْقُضْبَانَ أَمَامَ عُيُونِ الْغَنَمِ فِي الأَجْرَانِ لِتَتَوَحَّمَ بَيْنَ الْقُضْبَانِ. ٤٢ وَحِينَ اسْتَضْعَفَتِ الْغَنَمُ لَمْ يَضَعْهَا، فَصَارَتِ الضَّعِيفَةُ لِلاَبَانَ وَالْقَوِيَّةُ لِيَعْقُوبَ. ٤٣ فَاتَّسَعَ الرَّجُلُ كَثِيراً جِداً، وَكَانَ لَهُ غَنَمٌ كَثِيرٌ وَجَوَارٍ وَعَبِيدٌ وَجِمَالٌ وَحَمِيرٌ[١٢٤].

لو سألت أحداً عن أبيه اللص المخادع المخاتل بعد موته لأخبرك بمحاسنه وتجنب مساويه، أما كتبة العهد القديم فكانوا شر أبناء لخير والد، فهم يفترون على أبيهم الكريم النبي النقي التقي الطاهر الصالح، فيلفقون عليه

[١٢٤] سفر التكوين: الأصحاح الثلاثون، ٢٥ ــ ٤٣.

قصصاً تظهره بأبشع صورة، وتسمه بأذل وسم، فهو عندهم مخادع خدع أباه لأخذ البركة، وهو جبان ذليل تَخَضّع لابن أخيه ورضي بالدنية خوف المنية، وهو مخاتل نصب على خاله، وحتى الدواب لم تسلم من مكره، فمكر بالغنم لتتوحم على العروق المقشورة فتلد طِلاءً رقطاً، وتذلل لأخيه خوفاً ووسم نفسه بالعبودية له! أي نبي هذا؟ ولو أنه بلا نبوة لكانت هذه السمات مخزية له، فكيف إذا قيل هذا نبي الله يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام، الذي وصفه النبي ﷺ بأنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

داوود وبَثْشَبَعَ زوجة أوريا

١ وَكَانَ عِنْدَ تَمَامِ السَّنَةِ، فِي وَقْتِ خُرُوجِ الْمُلُوكِ، أَنَّ دَاوُدَ أَرْسَلَ يُوآبَ وَعَبِيدَهُ مَعَهُ وَجَمِيعَ إِسْرَائِيلَ، فَأَخْرَبُوا بَنِي عَمُّونَ وَحَاصَرُوا رِبَّةَ. وَأَمَّا دَاوُدُ فَأَقَامَ فِي أُورُشَلِيمَ. ٢ وَكَانَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ جِداً. ٣ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَ وَاحِدٌ: «أَلَيْسَتْ هذِهِ بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امْرَأَةَ أُورِيَّا الْحِثِّيِّ؟». ٤ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلاً وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. ٥ وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ: «إِنِّي حُبْلَى». ٦ فَأَرْسَلَ دَاوُدُ إِلَى يُوآبَ يَقُولُ: «أَرْسِلْ إِلَيَّ أُورِيَّا الْحِثِّيَّ». فَأَرْسَلَ يُوآبُ أُورِيَّا إِلَى دَاوُدَ. ٧ فَأَتَى أُورِيَّا إِلَيْهِ، فَسَأَلَ دَاوُدُ عَنْ سَلاَمَةِ يُوآبَ وَسَلاَمَةِ الشَّعْبِ وَنَجَاحِ الْحَرْبِ. ٨ وَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «انْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ وَاغْسِلْ

رِجْلَيْكَ». فَخَرَجَ أُورِيَّا مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ، وَخَرَجَتْ وَرَاءَهُ حِصَّةٌ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ. ٩ وَنَامَ أُورِيَّا عَلَى بَابِ بَيْتِ الْمَلِكِ مَعَ جَمِيعِ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَلَمْ يَنْزِلْ إِلَى بَيْتِهِ. ١٠ فأَخْبَرُوا دَاوُدَ قَائِلِينَ: «لَمْ يَنْزِلْ أُورِيَّا إِلَى بَيْتِهِ». فَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «أَمَا جِئْتَ مِنَ السَّفَرِ؟ فَلِمَاذَا لَمْ تَنْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ؟» ١١ فَقَالَ أُورِيَّا لِدَاوُدَ: «إِنَّ التَّابُوتَ وَإِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا سَاكِنُونَ فِي الْخِيَامِ، وَسَيِّدِي يُوآبُ وَعَبِيدُ سَيِّدِي نَازِلُونَ عَلَى وَجْهِ الصَّحْرَاءِ، وَأَنَا آتِي إِلَى بَيْتِي لآكُلَ وَأَشْرَبَ وَأَضْطَجِعَ مَعَ امْرَأَتِي؟ وَحَيَاتِكَ وَحَيَاةِ نَفْسِكَ، لاَ أَفْعَلُ هذَا الأَمْرَ». ١٢ فَقَالَ دَاوُدُ لأُورِيَّا: «أَقِمْ هُنَا الْيَوْمَ أَيْضاً، وَغَداً أُطْلِقُكَ». فَأَقَامَ أُورِيَّا فِي أُورُشَلِيمَ ذلِكَ الْيَوْمَ وَغَدَهُ. ١٣ وَدَعَاهُ دَاوُدُ فَأَكَلَ أَمَامَهُ وَشَرِبَ وَأَسْكَرَهُ. وَخَرَجَ عِنْدَ الْمَسَاءِ لِيَضْطَجِعَ فِي مَضْجَعِهِ مَعَ عَبِيدِ سَيِّدِهِ، وَإِلَى بَيْتِهِ لَمْ يَنْزِلْ.

١٤ وَفِي الصَّبَاحِ كَتَبَ دَاوُدُ مَكْتُوباً إِلَى يُوآبَ وَأَرْسَلَهُ بِيَدِ أُورِيَّا. ١٥ وَكَتَبَ فِي الْمَكْتُوبِ يَقُولُ: «اجْعَلُوا أُورِيَّا فِي وَجْهِ الْحَرْبِ الشَّدِيدَةِ، وَارْجِعُوا مِنْ وَرَائِهِ فَيُضْرَبَ وَيَمُوتَ». ١٦ وَكَانَ فِي مُحَاصَرَةِ يُوآبَ الْمَدِينَةَ أَنَّهُ جَعَلَ أُورِيَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي عَلِمَ أَنَّ رِجَالَ الْبَأْسِ فِيهِ. ١٧ فَخَرَجَ رِجَالُ الْمَدِينَةِ وَحَارَبُوا يُوآبَ، فَسَقَطَ بَعْضُ الشَّعْبِ مِنْ عَبِيدِ دَاوُدَ، وَمَاتَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيْضاً. ١٨ فَأَرْسَلَ يُوآبُ وَأَخْبَرَ دَاوُدَ بِجَمِيعِ أُمُورِ الْحَرْبِ. ١٩ وَأَوْصَى الرَّسُولَ قَائِلاً: «عِنْدَمَا تَفْرَغُ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَ الْمَلِكِ عَنْ جَمِيعِ أُمُورِ الْحَرْبِ، ٢٠ فَإِنِ اشْتَعَلَ غَضَبُ الْمَلِكِ، وَقَالَ لَكَ: لِمَاذَا دَنَوْتُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ لِلْقِتَالِ؟ أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ يَرْمُونَ مِنْ عَلَى السُّورِ؟ ٢١ مَنْ قَتَلَ أَبِيمَالِكَ بْنَ يَرُبُّوشَثَ؟ أَلَمْ

تَرْمِهِ امْرَأَةٌ بِقِطْعَةِ رَحًى مِنْ عَلَى السُّورِ فَمَاتَ فِي تَابَاصَ؟ لِمَاذَا دَنَوْتُمْ مِنَ السُّورِ؟ فَقُلْ: قَدْ مَاتَ عَبْدُكَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيْضاً».

٢٢ فَذَهَبَ الرَّسُولُ وَدَخَلَ وَأَخْبَرَ دَاوُدَ بِكُلِّ مَا أَرْسَلَهُ فِيهِ يُوآبُ. ٢٣ وَقَالَ الرَّسُولُ لِدَاوُدَ: «قَدْ تَجَبَّرَ عَلَيْنَا الْقَوْمُ وَخَرَجُوا إِلَيْنَا إِلَى الْحَقْلِ فَكُنَّا عَلَيْهِمْ إِلَى مَدْخَلِ الْبَابِ. ٢٤ فَرَمَى الرُّمَاةُ عَبِيدَكَ مِنْ عَلَى السُّورِ، فَمَاتَ الْبَعْضُ مِنْ عَبِيدِ الْمَلِكِ، وَمَاتَ عَبْدُكَ أُورِيَّا الْحِثِّيُّ أَيْضاً». ٢٥ فَقَالَ دَاوُدُ لِلرَّسُولِ: «هكَذَا تَقُولُ لِيُوآبَ: لاَ يَسُؤْ فِي عَيْنَيْكَ هذَا الأَمْرُ، لأَنَّ السَّيْفَ يَأْكُلُ هذَا وَذَاكَ. شَدِّدْ قِتَالَكَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَأَخْرِبْهَا. وَشَدِّدْهُ».

٢٦ فَلَمَّا سَمِعَتِ امْرَأَةُ أُورِيَّا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ أُورِيَّا رَجُلُهَا، نَدَبَتْ بَعْلَهَا. ٢٧ وَلَمَّا مَضَتِ الْمَنَاحَةُ أَرْسَلَ دَاوُدُ وَضَمَّهَا إِلَى بَيْتِهِ، وَصَارَتْ لَهُ امْرَأَةً وَوَلَدَتْ لَهُ ابْناً. وَأَمَّا الأَمْرُ الَّذِي فَعَلَهُ دَاوُدُ فَقَبُحَ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ[١٢٥].

داوود النبي الذي مدحه الله في القرآن الكريم، وأمر الجبال والطير أن تشاركه التسبيح، وألان له الحديد، يصفه مؤلفو التوراة بأنه لا يكتفي بالزنا، فيرسل زوج عشيقته إلى الحرب، بل ويدبر له مهلكة، وبعد أن يُقتل يضم أرملته إلى نسائه لتتحول العشيقة إلى زوجة في بيت نبوة! هذا البيت الذي قال الله لأهله: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[١٢٦]، فهل خفي على الله ما كان من سوئهم وفحشهم وعلِمَه كَتَبةُ التوراة؟ ما أقبح إفكهم وما أجرأهم على أنبياء الله!

---

١٢٥ سفر صموئيل الثاني: الأصحاح الحادي عشر، ١ – ٢٧.
١٢٦ سورة سبأ:١٣.

سليمان وعبادة الأوثان

٤ وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلاً مَعَ الرَّبِّ إِلهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ. ٥ فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ رِجْسِ الْعَمُّونِيِّينَ. ٦ وَعَمِلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَاماً كَدَاوُدَ أَبِيهِ. ٧ حِينَئِذٍ بَنَى سُلَيْمَانُ مُرْتَفَعَةً لِكَمُوشَ رِجْسِ الْمُوآبِيِّينَ عَلَى الْجَبَلِ الَّذِي تُجَاهَ أُورُشَلِيمَ، وَلِمُولَكَ رِجْسِ بَنِي عَمُّونَ. ٨ وَهكَذَا فَعَلَ لِجَمِيعِ نِسَائِهِ الْغَرِيبَاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ يُوقِدْنَ وَيَذْبَحْنَ لآلِهَتِهِنَّ. ٩ فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَرَاءَى لَهُ مَرَّتَيْنِ، ١٠ وَأَوْصَاهُ فِي هذَا الأَمْرِ أَنْ لاَ يَتَّبعَ آلِهَةً أُخْرَى، فَلَمْ يَحْفَظْ مَا أَوْصَى بِهِ الرَّبُّ[١٢٧].

بلفت انتباهنا قولهم في سليمان عليه السلام: «وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَاماً كَدَاوُدَ أَبِيهِ»! ألم يقولوا عن أبيه إنه زنا، ودبر لمقتل زوج عشيقته؟ فهل كان ذلك اتباعاً للرب في فهمهم؟ والمعهود أن الناس إذا ارتكبوا الخطايا في الشباب آبوا في المشيب واستغفروا، وكلما كبر الإنسان في السن كبر معه إيمانه وازداد تقربه لربه، وأشعره دنو أجله بحاجته إلى كمال الإخلاص، والأنبياء أولى الناس بذلك، أما بنو إسرائيل فيرون أن الأنبياء بعكس الناس؛ فكلما كبروا ابتعدوا عن الله وقلَّ إخلاصهم له، فإذا شاب النبي غلبته شهواته فهيمنت عليه نساؤه وسحبنه معهن إلى بناء المعابد الوثنية

[١٢٧] سفر الملوك الأول: الأصحاح الحادي عشر، ٤ – ١٠.

ليتقربن فيها إلى أصنامهن وأوثانهن! فبدلاً من أن يسلمن لله، وهن زوجات نبي، يأخذنه من دينه إلى دياناتهن! إن سعة خيال مؤلفي التوراة تجعل قصصهم لا تصلح حتى للأطفال، فكيف يقرؤها كبارهم، بل ومن يدرسها ويحفظها يصبح عندهم حاخاماً (حكيماً)! وأي حكمة يخرج بها غير أن يتعلم ارتكاب الفواحش، والنصب والاحتيال، والغدر والخيانة، والذلة والمسكنة حرصاً على الحياة ولو كانت بلا كرامة؟

مريم الطاهرة وابنها المسيح في التلمود

قال تعالى في اليهود: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ۝ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ۝ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[١٢٨].

ذكر الأب آي بي براناتيس، في كتابه «فضح التلمود تعاليم الحاخامين السرية» أن المسيح عليه السلام لم يُذكر باسمه في التلمود، وإنما كان يكنى عنه بعدد من الأسماء: مثل: «ذاك الرجل»، و«رجل معين»، و«ابن

[١٢٨] سورة النساء: ١٥٥-١٥٨.

النجار»، و«الرجل الذي شُنق (صلب)». واسم «ابن النجار» يعنون به أنه ابن يوسف النجار من الزنا. ويذكر أيضاً نصاً جاء فيه: حين كان الشيوخ يجلسون ذات يوم عند المدخل مرّ صَبيّان، كان أحدهما معتمرَ الرأس والآخر حاسراً عنه، فقال إليعازر: إن حاسر الرأس مامزر (ولد غير شرعي). فقال الرابي جيهوشوآ: بل إن أمه حملته وهي حائض. فانبرى الرابي اكيباه ليقول: إنه ابن غير شرعي وأمه حملت به وهي حائض أيضاً، فسأله الحضور عن سبب تجاسره على مناقضة رأي زميليه، فقال إنه سيبرهن لهم على صحة ما قاله، فتوجه إلى أم الصبي التي كانت تبيع الخضار في السوق، فقال لها: إذا أجبتني بصدق على سؤالي يا بنتي فإنني أعاهدك على تنجيتك من الخطيئة في الحياة القادمة (الآخرة). فسألته أن يقسم لها على ذلك، ففعل الرابي ذلك بشفتيه فقط، بينما ألغى في قلبه القسم، ثم سألها: ما نوع ابنك؟ ردت المرأة: كنت ليلة عرسي حائضاً فهجرني زوجي، غير أن روحاً شريرة ضاجعتني، فكان ابني نتيجة لذلك[١٢٩].

ونقف عند بعض العبارات: «أعاهدك على تنجيتك من الخطيئة»، فجعلوا لأحبارهم القدرة على المغفرة والتنجية من الخطايا في الآخرة. وهذا الحبر الذي يغفر وينجّي الآخرين يوم القيامة هو نفسه مخادع، فيقسم يميناً لا تلزمه الوفاء، لأنه أقسمها بلسانه فقط وألغاها في قلبه! «ففعل الرابي ذلك

---

[١٢٩] فضح التلمود تعاليم الحاخامين السرية، كراسة «كاللاه»، آي بي براناتيس.

بشفتيه فقط، بينما ألغى في قلبه القسم»، فإذا كان الحبر هكذا فكيف العوام من الناس؟ أولا يفتح لهم ذلك أبواباً للكذب والظلم وادعاء ما ليس لهم من حقوق الآخرين، والقسم عليها بألسنتهم وإلغاء الأيمان في قلوبهم؟
والفِرية العظمى على السيدة مريم عليها السلام لم تقف عند اتهامها بالزنا مع يوسف النجار، «فهجرني زوجي، غير أن روحاً شريرة ضاجعتني»! من هي الروح الشريرة؟ أليست الشيطان؟ فهم هنا يجعلون روح الله عيسى عليه السلام ابناً للشيطان وليس ليوسف النجار. هكذا يفتري على أنبياء الله ﴿مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[١٣٠].

ويثبت براناتيس من مقالات التلمود أنهم كانوا يتهمون عيسى عليه السلام بممارسة الشعوذة المصرية التي قطّع رموزها في لحم جسده. إضافة إلى وصفه في «شابات» بأنه مجنون ومخبول. وجاء في كتاب «تولدوث جيشو» أنه مجدّف: «وقال يسوع: «ألم يتنبأ سلفيّ ازاحيا وداوود عني؟ قال الرب لي: أنت ابني، اليوم أنجبتك... إلخ. وفي مكان آخر «قال الرب لسيدي: اجلس إلى يميني، الآن أنا سأصعد إلى أبي الذي في السماء وسأجلس إلى يمينه، وسترى ذلك بأم عينك. لكنك يا يوداس (يهوذا الإسخريوطي) لن تبلغ أبداً ذلك المكان السامي. ثم لفظ يسوع الاسم العظيم للإله، وظل يكرره حتى هبت رياح رفعته بين الأرض والسماء، ولفظ

---

[١٣٠] سورة المائدة:٦٠.

يوداس أيضاً اسم الله فرفعته الرياح، وبهذا عام الاثنان في الهواء وسط ذهول المتفرجين، حينئذ بادر يوداس إلى ترديد لفظة الاسم الإلهي ممسكاً بيسوع وهو يدفع به إلى الأرض، لكن يسوع حاول بدوره دفع يوداس، فنشب بينهما قتال متواصل، وعندما تأكد يوداس في النهاية أنه لن يفوز في النهاية ضد أعمال يسوع بال عليه، وهكذا أصبحا معاً وجوداً نجساً، فسقطا على الأرض، ولم يعد بإمكانهما التلفظ بالاسم الإلهي من جديد إلى أن يغسلا نفسيهما»(١٣١).

هكذا هم الأنبياء في فكر بني إسرائيل واعتقادهم، ويتداولون الصورة القبيحة المفتراة لهم جيلاً بعد جيل، ، فقد رسموا صورهم في الكتب التي ينسبونها إلى الله وإلى الأنبياء كذباً وافتراءً، بأنهم سكّيرون يزنون ببناتهم، كما رأينا في افتئاتهم على لوط عليه السلام، أو نصابون محتالون، كما افتروا على يعقوب عليه السلام، أو غادرون قتلة كما اتهموا عيسو (العيص) عليه السلام، أو زناة، كما أفكوا على داوود عليه السلام، أو عبدة أوثان، كما ادعوا على سليمان عليه السلام، أو سحرة مشعوذون دجالون وأبناء زنا، كما افتروا على عيسى المسيح عليه السلام، كما صوروا القديسات من النساء الصالحات الطاهرات بأنهن زانيات، ومن ذلك إفكهم على المرأة الطاهرة البتول التي حازت الكمال السيدة مريم عليها السلام، وشتان بن القصص القرآني الذي كرّم الأنبياء ورفع أقدارهم

---

١٣١ فضح التلمود تعاليم الحاخامين السرية، آي بي براناتيس، كراسة شابات.

وعظم مكانتهم ونزههم عما لا يليق بالناس الأسوياء، فضلاً عما لا يليق بالأنبياء، وبين القصص التوراتي والتلمودي، المكذوب معظمه، والملفق أكثره، والمفترى كلُّ سيِّئِهِ وما لا يرضاه الإنسان السوي لغيره قبل أن يرضاه على نفسه. ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١٣٢]، وشتان بين ما يقولونه في السيدة مريم أم عيسى المسيح، عليهما السلام، وبين قول رسول الله ﷺ: ﴿كَمُلَ مِنَ الرِّجالِ كَثيرٌ، ولَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّساءِ إلا مَرْيَمُ بنتُ عِمرانَ وَآسِيةُ بنتُ مزاحم﴾[١٣٣]؟ فهؤلاء الأفاكون فضحهم الله تعالى وتوعدهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُون﴾[١٣٤].

أما افتراءاتهم على النبي محمد ﷺ فقد ردّها عليهم عدد من أحبارهم، منهم عبد الله بن سلام، ومخيريق، وزيد بن سعنة، ثم كشفت أم المؤمنين السيدة صفية بنت حيي، رضي الله عنها، للنبي ﷺ، بعد زواجه بها، عمّا عرف أبوها وعمها له ﷺ من الحق وصدق النبوة، واعترفا به في جلسة سرية بينهما، واتفاقهما على تكذيبه ومعاداته ﷺ.

---

[١٣٢] سورة آل عمران: ٨٧.
[١٣٣] صحيح البخاري، برقم ٣٤١١.
[١٣٤] سورة البقرة: ٧٩.

عبد الله بن سلام اليهودي الذي اتبع الحق

عبد الله بن سلام بن الحارث، من ذُرِّيـة النبي يوسف عليه السلام، من بني إسرائيل، وأحد علمائهم وأحبارهم، قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف له، فكنت مُسِرّاً لذلك صامتاً عليه، فلما نزل بقباء، في بني عمرو بن عوف، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبَّرتُ! فقالت لي عمتي، حين سمعت تكبيري: خَيَّبكَ الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت. فقلت لها: أي عمة، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بعث بما بعث به. فقالت: أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نُخبَر أنه يبعث مع نَفَسِ الساعة؟ قال: نعم. فقالت: فذاك إذاً. فلمَّا قدمَ ﷺ المدينةَ انجَفلَ النَّاسُ قِبلَهُ، وقيلَ: «قد قدمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ» ثلاثاً، فَجِئْتُ في النَّاسِ لأنظرَ، فلمَّا تبيَّنتُ وجهَهُ عرفتُ أنَّ وجهَهُ ليسَ بوَجهِ كذَّابٍ، فَكانَ أوَّلُ شيءٍ سَمِعْتُهُ تَكَلَّمَ بِهِ، أن قالَ: ﴿يا أيُّها النَّاسُ أفشوا السَّلامَ، وأطعِموا الطَّعامَ، وصِلوا الأرحامَ، وصلُّوا باللَّيلِ والنَّاسُ نيامٌ، تدخلوا الجنَّةَ بسَلامٍ﴾[١٣٥].

وبعد أن استقر النبي ﷺ في المدينة جاءه عبد الله بن سلام، فقال: إني سائلك عن ثلاث، لا يعلمها إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول ما يأكل أهل الجنة؟ ومن أين يشبه الولد أباه وأمه؟ فقال ﷺ: ﴿أخبرني بهنَّ جبريل آنفاً﴾.

---

[١٣٥] سنن ابن ماجه، برقم ٢٦٤٨.

فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة. فقال ﷺ: ﴿أمّا أوّلُ أشراطِ السّاعةِ فَنارٌ تَخرجُ من المَشرقِ، فتحشرُ الناسَ إلى المغرب. وأمّا أوَّلُ ما يَأكله أهلُ الجَنةِ، فزيادةُ كَبِدِ الحوتِ. وأما الشَّبَهُ، فإذا سَبَقَ ماء الرجل نَزَعَ إليه الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزع إليها﴾[١٣٦]. فقال عبد الله: أشهد أنك رسول الله. ثم رجع إلى أهل بيته، فأمرهم فأسلموا.، وكتم إسلامه من يهود، ثم جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن يهودَ قومٌ بُهْتٌ، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني، حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني. فأدخله رسول الله ﷺ في بعض بيوته، ودخل أحبار اليهود عليه، فكلموه وساءلوه، ثم قال لهم: أي رجل الحصين (اسمه قبل إسلامه) بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا. قال: «أرأيتم إن أسلم، تسلمون»؟ قالوا: «أعاذه الله من ذلك»! فخرج عليهم عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لَتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأومن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: «كذبت»، ثم قالوا: «شرُّنا وابن شرِّنا، وجاهلُنا وابن جاهلِنا»[١٣٧]! فقال لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهت، أهل غدر وكذب وفجور!

---

١٣٦ صحيح البخاري، برقم ٣٩٣٨.

١٣٧ المصدر السابق.

قال عبد الله: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمتْ عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها.

مخيريق خير اليهود

مخيريق بن النضير كان حبراً عالماً، وكان غنياً كثير الأموال من النخل، وكان يَعرف رسولَ الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه، لكنه غلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم معركة أحد، وكانت يوم السبت، فقال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصرَ مُحَمَّدٍ عليكم لحق. قالوا: إن اليوم يوم السبت! قال لا سبت لكم. ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بِأُحُد، وعهد إلى من وراءه من قومه «إن قُتلت هذا اليوم فأموالي لمحمدٍ ﷺ يصنع فيها ما أراه الله». فلما اقتتل الناس قاتل حتى قُتل، فقال رسول الله ﷺ: ﴿مخيريق خير اليهود﴾، وقبض أمواله فهي عامة صدقاته ﷺ بالمدينة منها(١٣٨).

الحبر زيد بن سعنة

قال زيد بن سعنة (وكان من أحبار يهود): ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فكنت ألطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه من جهله. فخرج رسول الله ﷺ يوماً من

١٣٨ سيرة ابن هشام، ج٢، ص١٦٥، وج٣، ص٩٤.

الحجرات ومعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله، إن بصرى قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق، وقد أصابتهم سنة وشدة وقحوط من الغيث، فأنا أخشى أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به فعلت، فنظر إلى رجل إلى جانبه أراه علياً، فقال: يا رسول الله ما بقي منه شيء. قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه، فقلت: يا محمد، هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا، فقال: «لا يا يهودي، ولكني أبيعك تمراً معلوماً إلى أجل كذا وكذا، ولا يسمي حائط بني فلان»، قلت: نعم، فبايعني فأطلقت همياني (حزام توضع فيه النقود) فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب، في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا، فأعطاها الرجل، فقال: «أعجل عليهم وأعنهم بها»، قال زيد: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته ﷺ فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، فقلت له: ألا تقضيني يا محمد حقي، فوالله ما علمتكم يا بني عبد المطلب لمطل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم؟ ونظرت إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإذا عيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره، وقال: يا عدو الله، تقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتصنع به ما أرى! فوالذي بعثه بالحق، لولا ما أحاذر قوته لضربت بسيفي رأسك. ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم، ثم قال: «يا عمر، أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا؛ أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة، اذهب به

يا عمر فأعطه حقه، وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما رعته». فذهب بي عمر رضي الله عنه، فأعطاني حقي وزادني عشرين صاعاً من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة يا عمر؟ فقال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتك، قلت: وتعرفني يا عمر؟ قال: لا، من أنت؟ قلت: أنا زيد بن سعنة، قال: الحبر؟ قلت: الحبر، قال: فما دعاك أن فعلت برسول الله ﷺ ما فعلت وقلت له ما قلت؟ قلت: يا عمر، لم يكن من علامات النبوة شيء إلا قد عرفت في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فقد اختبرتهما، فأخبرك يا عمر أني قد رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، وأشهدك أن شطر مالي - فإني أكثرها مالاً - صدقة على أمة محمد ﷺ، فقال عمر: أو على بعضهم، فإنك لا تسعهم، قلت: وعلى بعضهم.

فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ، فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله[١٣٩].

فآمن به الحبر زيد بن سعنة وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة، ثم استشهد رضي الله عنه في غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر، رضي الله عنه.

---

[١٣٩] المعجم الكبير، للطبراني، ج٥، ص٢٢٢.

شهادة صفية بنت حيي

أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب، رضي الله عنها، من بني النضير من ذرية النبي هارون عليه السلام، كانت مع أبيها وابن عمها بالمدينة، فلما أجلى رسول الله ﷺ بني النضير ساروا إلى خيبر، وقُتل أبوها مع من قُتل مِن بني قريظة. وكان قد تزوجها كنانة بن أبي الحقيق حديثاً، وقتل يوم خيبر، وأُخذت هي مع الأسرى، فخيّرها رسول الله ﷺ بين الإسلام والبقاء على دينها قائلاً لها: «اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي – أي تزوّجتك - وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك»، فقالت: «يا رسول الله، لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني، وصرت إلى رحلك وما لي في اليهودية أرب، وما لي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام، فالله ورسوله أحب إليّ من العتق وأن أرجع إلى قومي»[١٤٠]. فأعتقها ﷺ وتزوّجها، وجعل عتقها صداقها، ووجد بخدها أثر لطمة فقال: «ما هذه»؟ فقالت: «إني رأيت كأن القمر أقبل من يثرب، فسقط في حجري، فقصصت المنام على ابن عمي ابن أبي حقيق (زوجها السابق) فلطمني وقال: تتمنين أن يتزوجك ملك يثرب، فهذه من لطمته». وقد أخطأ زوجها التفسير، فقد تزوجها سيد الخلق وليس سيد يثرب وحدها. أما سبب قولها: «لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني» فترويه لنا، رضي الله عنها، في حادثة تؤكد معرفة اليهود بصدق النبي ﷺ، تقول:

---

١٤٠ الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج١٠، ص١١٩.

لم يكن أحد من ولد أبي وعمِّي أحبَّ إليهما منِّي، لم ألقَهما في ولد لهما قطُّ أهشّ إليهما إلاَّ أخذاني دونه، فلمَّا قدم رسول الله ﷺ قُباء غدا إليه أبي وعمِّي أبو ياسر بن أخطب مغلِّسين (آخر الليل قريباً من الفجر)، فوالله ما جاءانا إلاَّ مع مغيب الشمس، فجاءانا فاترين، كسلانين، ساقطين، يمشيان الهوينى، فهششتُ إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إليَّ واحدٌ منهما، فسمعت عمِّي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ (يعني أمحمدٌ هو النبي الذي ننتظره؟) قال: نعم، والله! قال: تعرفه بنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ؟ قال: نعم والله. قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بَقِيتُ[١٤١]!

الباقلاني وقيصر

أرسل قيصر الروم إلى الخليفة العباسي يطلب منه رجلاً للمناظرة، وكان أبو بكر الباقلاني، رحمه الله، من كبار علماء عصره، فاختاره الخليفة لها. ولعلم قيصر بأن المسلمين لا يركعون لغير الله، أمر أن يُقَصّروا الباب ليضطر الداخل إلى الانحناء كالركوع، فلما حضر الباقلاني عرف الحيلة فأدار جسمه إلى الخلف وركع ثم دخل من الباب وهو يمشي وقفاه لقيصر! فحياهم ولم يسلم عليهم، ثم التفت إلى الراهب الأكبر وقال له: «كيف حالكم وكيف الأهل والأولاد؟» فغضب الملك وقال: «ألم تعلم بأن رهباننا لا

[١٤١] القصة مجمعة من صحيح البخاري برقم٣٧١، ورقم٤٢١٣، وسنن الترمذي برقم٣٨٩٤، والبداية والنهاية ج٣، ص٢٥٨، وأسد الغابة ص١٣٧٥. والطبقات الكبرى لابن سعد، ج٨، ص٩٧.

يتزوّجون ولا ينجبون الأطفال»؟ فقال أبو بكر: «الله أكبر! تُنَزّهون رهبانكم عن الزواج والإنجاب ثم تتهمون ربكم بأنه تزوج مريم وأنجب عيسى»؟! فزاد غضب الملك! ويبدو أن أسلوب اللمز اليهودي، الذي اتخذوه مع نبي الله عيسى وأمه البتول، عليهما السلام، انتقل إلى النصارى، فقال الملك: ما قالت زوجة نبيكم حين قيل فيها ما قيل؟ (يعني السيدة عائشة، رضي الله عنها، في حادثة الإفك) فقال أبو بكر: قالت كما قالت مريم الطاهرة البتول حين اتهمها اليهود، وكلتاهما طاهرة، لكن عائشة تزوجت ولم تنجب، أمّا مريم فقد أنجبت بلا زواج! فأيهما تكون أولى بالتهمة الباطلة، وحاشاهما (عليهما السلام)؟ فجن جنون الملك! فقال: هل كان نبيكم يغزو؟ قال أبو بكر: نعم. قال: فهل كان يقاتل في المقدمة؟ قال: نعم. قال: فهل كان ينتصر؟ قال: نعم. قال: فهل كان يُهزَم؟ قال: نعم. قال: عجيب! نبيٌّ ويُهزّم؟ فقال أبو بكر: أإله ويُصلَب؟! فقطع بقيصر.

فرية الغرانيق

حاول مشركو قريش بشتى الوسائل أن يجدوا لدى النبي محمد ﷺ اعترافاً ولو جزئياً بآلهتهم، حتى في تعذيبهم للمستضعفين من المسلمين كانوا يريدون منهم فقط أن يذكروا آلهتهم بخير، وكان نداء بلال رضي الله عنه في تلك المحنة مشهوراً، وهو «أحد، أحد». وذكرت بعض الروايات، وإن كانت ضعيفة، أنهم عرضوا على النبي ﷺ أن يعبدوا الله عاماً، ويعبد هو آلهتهم عاماً، فهم لم يكونوا يجحدون الله منكرين وجوده، وإنما جعلوا

تماثيل وأحجاراً شركاء له في ألوهيته سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾(١٤٢)، ولذلك حين جاء عتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ ليفاوضه نيابة عن سادة قريش فقال له: يا بن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم وسفَّهت به أحلامهم وعِبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفرَّت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها، فقال رسول الله ﷺ «قل يا أبا الوليد أسمع»، قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد»؟ قال: نعم، قال: «فاسمع مني»، قال: أفعل. فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حم ۞تَنزِيلٌ مّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ كِتَابٌ فُصّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۞ بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾(١٤٣)، ثم مضى ﷺ فيها يقرؤها فأنصت لها عتبة وألقى

---

١٤٢ سورة الزمر: ٣.

١٤٣ سورة فصلت: ١-٤.

يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، وسجد معه عتبة[١٤٤]. ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك». فسجود عتبة كان لله وليس للأصنام، وكان النبي ﷺ يطمع في استمالتهم، ويحاول ألا يشتد عليهم لعله يجتذبهم من وحل الشرك، لكنه لم يخضع ولم يمِل إلى عرض من عروضهم الخاصة به أو الخاصة بالدين، وإن جال في خاطره أن يوافقهم في أمر إخلاء مجلسه من فقراء المسلمين وضعفائهم ليحضره عتاة قريش، وأن يخفف الإغلاظ عليهم طمعاً في اقترابهم من الإسلام وتأمين المسلمين من شرهم، وتحقيق مصلحة للدين بما ليس فيه فوات شيء على الدين، لكن الله سبحانه عصمه من هذه التنازلات وأنزل عليه: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾[١٤٥]. وكما حصل مع عتبة في سجوده حين قرأ النبي ﷺ سورة فصلت، فإنه لما نزلت سورة النجم قرأها على جمعٍ من المسلمين والمشركين، فلما بلغ آخرَها ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ۝ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾[١٤٦] سجد النبي ﷺ، وسجد معه جميعُ مَن حضر من المسلمين والمشركين، قال ابن عباس «وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ، إلاَّ رَجُلاً رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفاً مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِراً، وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَف»[١٤٧]. فانتشر الخبر بأن قريشاً قد

---

[١٤٤] الرحيق المختوم، ص٩٥.
[١٤٥] سورة الإسراء: ٧٤.
[١٤٦] سورة النجم: ٥٩-٦٢.
[١٤٧] صحيح البخاري، برقم ٤٨٦٣.

أسلموا، حتى بلغ الخبر المهاجرين في الحبشة، فرجع عدد منهم مستبشرين. ولما رأى المشركون ذلك ندموا على سجودهم، فاختلق بعضهم كذبة مفادها أن النبي ﷺ أثنى على آلهتهم، فادعى أنه قال بعد قوله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾[١٤٨] «تلك الغرانيق العُلى، وإن شفاعتهن لَتُرتَجَى»! ليبرئ نفسه وقومه من السجود لرب محمد ﷺ.

فجاء بعد ذلك من يريد الإحسان فأساء، فقال إن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ هذه الكلمات أثناء قراءته! وكيف يلقي الشيطان على لسانه وهو يقرأ القرآن؟ أيمكن للشيطان أن يُدخل كلامه في كلام الله على لسان نبي تحت سمع الله وبصره؟ هذا لا يصح في المنطق العقلي ولا في الوعي الديني في إطار فهم حقيقة الإله الذي لا يُغلب على أمره ولا يَغفل عن عباده ولا يَعجز عن تسكين المتحرك! والأنكى من ذلك استشهاده بقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[١٤٩]، فخلط بين الأمنيّة التي مكانها القلب والقول الذي يجري على اللسان، كما أن التلفيق بين القصة المكذوبة وبين الآية واضح لكل ذي عقل ﴿إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ فهل كان محمد ﷺ يتمنى أن يعبد اللات والعزى ومناة؟ فأين الأمنية في القصة؟ القصة فيها مزاعم النطق

---

[١٤٨] سورة النجم: ١٩-٢٠.

[١٤٩] سورة الحج: ٥٢.

بكلام معين، أما الآية فتتحدث عن رغبة في النفس! ثم جاء من يقول: لم يكن المسلمون سمعوا، فالشيطان ألقى هذه الكلمات في مسامع المشركين فقط ولم تجر على لسان النبي ﷺ ولا في أسماع المسلمين. والحقيقة أنها قصة مكذوبة مفتراة، تناقلها الكفار وغيرهم، فأخذ بها بعض المفسرين كما أخذوا بالإسرائيليات، وذلك لأمانة العلم، مع إحسان الظن بالله سبحانه وبأنبيائه، ومع أن الشيخ صالح أحمد الشامي أفرد كتاباً أسماه «الغرانيق قصة دخيلة على السيرة النبوية» تتبع فيه طرق تلك الروايات وأسانيدها وعلل الرواة وانقطاع سلاسل رواتها، ففنّد القصة من أصلها وأثبت بطلانها، يأتي مستشرقون ليقولوا إن محمداً قالها، لكنه تراجع عنها! ونرد عليهم وعلى غيرهم، إضافة إلى تبييننا الفرق بين أن يلقي الشيطان على اللسان وأن يلقي في الأمنية، فإن سياق الآيات يثبت اتصالها بما بعدها في المعنى والأسلوب، ويثبت انفصالها عما زعموا من الكلام الدخيل، فالآيات تضمنت ذكر الآلهة المؤنثة فقط ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾، ولم تذكر أعظم أصنامهم هبل، فكان الحديث عن الإناث فقط، فجاء بعدها ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾[١٥٠] فهنا يحاورهم الله سبحانه حيث رضوا له ما لا يرضون لأنفسهم، إذ إنهم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[١٥١]، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم

---

[١٥٠] سورة النجم: ٢١-٢٢.

[١٥١] سورة النحل: ٥٨.

بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[١٥٢]. فالسياق متصل بين الآيات في اللفظ والمعنى والأسلوب، ولم ينقطع، إذ إن الحديث عن اتخاذهم آلهة إناثاً، ثم قال ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾، أي تريدون لكم الأولاد الذكور وتزعمون لله الأولاد الإناث؟ ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أي لم تعدلوا في القسمة بينكم وبين ربكم. فماذا لو أدخلنا في سياق الكلام «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى»؟ الغرانيق: جمع غرنوق: وهو طير أبيض طويل العنق. قال ابن الأنباري: «الغرانيق: الذكور من الطير، واحدها غِرْنَوْق وغِرْنَيْق، سُمي به لبياضه، وقيل هو الكُرْكيّ»، فهل تقبل اللغة العربية وصف المؤنث بالمذكر؟ ألا يَسْتَنْوِقُ بذلك الجَمَلُ، كما في القصة المشهورة عن طرفة بن العبد وخاله المتلمس حين قال:

وقد أتناسى الهمَّ عندَ احتضارِهِ   بِناجٍ عليه الصّيعَريّـةُ مكدمِ

والناجي: البعير. والصَّيْعَرِيَّة: سِمَة في عُنُق الناقة[١٥٣]. فعاب عليه قوله ابن أخته طرفة، وكان غلاماً، فقال: «استنوق الجمل»، فذهبت مثلاً، والمعنى: أَنك كنتَ في صفة جَمل، فلما قلت الصَّيْعَرِيَّة عُدْت إلى ما تُوصَف به النُّوق! فقال المتلمس هذا الغلام ليقتلنه لسانه؟!

بلى، فهنا في قول «تلك الغرانيق» تستذكر الإناث بالصورة المقابلة لاستنواق الجمل، ولكن الخرق الأوسع هو التشبيه نفسه، إذ إنّ وَصْفَ الآلهة بأنها طائر كركي يحط من قدرها ويهينها، وليس أي طائر، إنه

---

[١٥٢] سورة الزخرف: ١٧.

[١٥٣] لسان العرب، لابن منظور.

الكركي وليس الصقر أو البازي أو النسر، ثم ما الشفاعة التي ترتجى عند طائر الكركي؟ أليس هذا إسفافاً، وهل يمر مثل هذا الكلام على قريش أهل الفصاحة الذين يحكّمون في هذا المجال؟ ألا يستدعيهم ما استدعى طرفة ليقولوا «استذكرت آلهتنا»؟ أو «تحولت آلهتنا إلى طيور تصطاد الحشرات»؟ فلو كانت القصة حقيقة لأغضبتهم بدلاً من أن يفرحوا بهذا الكلام المهين والمعنى الغث والأسلوب الهابط ويسجدوا عنده. لم تكن قريش بهذا الجهل اللغوي فتستصغر عقولها بهذه الرواية، لكن الحقيقة أنها كانت استصغاراً لعقول من جاء بعدهم.

افتراءات المعاصرين عليه ﷺ

لم يكن الذين افتروا على أنبياء الله عليهم السلام ليتركوا خاتمهم ﷺ يسلم من إفكهم، فلما عجزوا عن تحريف القرآن الكريم، وخابوا في دس القصص المكذوبة في سيرته الطاهرة، حركوا مطاياهم من المأجورين أو المشتَرَين بأثمان بخسة، قد تكون شهرة أو شهادات دكتوراه أو جني أموال، فانطلقوا يلفقون الأكاذيب ويتخيلون القصص ويستنبطون للأحداث أسباباً غير ما هو معروف، وقد تتناقض مع الحقيقة وقد تخالف العقل والمنطق والسَّنن الاجتماعي والتفسير التاريخي، وبعضهم عمد إلى الاصطياد في الماء العكر من خلال قصة أغرق في تأولها على غير وجهها، ومنهم من تخيل قصة لا ترتبط بسيرته ﷺ، لكنها تطعن فيها بشكل غير مباشر، ومنهم من افترى سيرة أخرى مخالفة لا حقائق فيها بمجملها ولا في أدق

تفاصيلها، سيرة متخيلة على نمط العهد القديم والتلمود، كل ما فيها مختلق مزيف مفترى، ومنهم من راح يتخيل كل حادثة حصلت وراءها مؤامرة مدبرة وكل ميت مات كان وراءه جريمة اغتيال. هذا إلى جانب مسابقات الرسوم المسيئة إليه ﷺ، والاتهامات المتوالية للإسلام بأنه دين إرهابي، والأقلام التي انبرت تنبش في سلة مهملات التاريخ لتستخرج أحكاماً فقهية تتأولها على هواها فتدين بها الإسلام. وسنقف عند أربعة كتب لأفراد بعضهم محسوب على الإسلام، وهو ألد أعدائه، وبعضهم اختبأ تحت مظلة نظرية «الأدب للأدب»، فسكب على الورق ما في نفسه من قذارة قدمها على أنها إبداع.

طه حسين

لم يكن طه حسين شخصية مثيرة للجدل لا في حياته ولا بعد موته، فقد كان واضحاً منذ صعود نجمه، وإذا كان لجأ إلى التُّقية بعد ذلك فإنما اتخذها شكلاً مجرداً لسد باب التكفير الذي فتح عليه، أما فكره ونتاجه فلم يتغير فيهما شيء، اللهم إلا تركه المصادمة المباشرة، ومن يقرأ كتابه «على هامش السيرة» يجد أنه لا فرق بين مضمونه وبين مضمون كتابه «في الشعر الجاهلي» من حيث المنهج، فقد كان في الشعر الجاهلي منكراً، وفي الهامش مستنكراً.

بدأ طه حسين حياته الأدبية شاعراً، وقد كتب قصيدة في مدح حاكم مصر إبان الاحتلال البريطاني لها اللورد كرومر صاحب حادثة دنشواي

المشهورة، وعرّض في القصيدة بالزعيم المصري مصطفى كامل، واتهمه وحزبه بالطيش. والغريب أنني لم أجد أثراً للقصيدة في كل المراجع التي وصلت يدي إليها، سوى كتاب «المفكر والأمير طه حسين والسلطة في مصر» لمصطفى عبد الغني، الذي حاول في كتابته صناعة تاريخ سياسي مشرّف ووطني مخلص لطه حسين، فلم يذكر من القصيدة سوى بيت واحد، ذكره في هامش الصفحة ٩٣، وهو قوله:

ومن يدّعي بالطيشِ نصرةَ قومِهِ ورائدُه الأهـواءُ أنـى تـيمّـمـا

وأسس طه حسين «مجلة الكاتب المصري»، التي تحولت إلى «دار الكاتب» للنشر، وكانت تملكها عائلة هراري اليهودية، وترأس تحريرها مع الصهيوني أوبري سوليمون مائير إيبان، الشهير باسم «أبا إيبان»، الذي كان رئيساً لتحرير مجلة «الشباب والصهيونية»، ثم صار وزيراً للتعليم والثقافة في حكومة «بن غوريون»، ثم نائباً لرئيس الوزراء، ثم وزيراً للخارجية الصهيونية في فلسطين المحتلة. ونشأت صداقة وثيقة بينه وبين طه حسين من خلال الدار التي عملت على نشر كتب الإباحيين والملاحدة والباطنية باسم «الفن للفن» وباسم الحرية، وكانت بينهما مراسلات شخصية. ولم ينف وزير الثقافة المصري السابق حلمي النمنم هذه الدعوى، في مقالة بعنوان: «طه حسين ليس صهيونياً» التي نشرتها جريدة «الجريدة» الكويتية، بتاريخ ١١/ ١٠/ ٢٠١٠م، بعد صدور كتاب «طه حسين والصهيونية»، لكنه اكتفى بالقول: «وهي اتهامات لا تزال

تلاحقه حتى بعد وفاته قبل نحو أربعة عقود. لكن معجبي عميد الأدب العربي ينفون تلك التهم كافة». ولم يورد دليلاً واحداً يستند إليه في نفيه. واستطاع طه حسين من خلال كتاباته تحقيق علاقات بوأته مكانة عالمية، فإضافة إلى علاقته مع «أبا إيبان» جاءت زيارته للجامعة العبرية بعد عامين من تأسيسها، وكذلك زيارته مدرسة الطائفة اليهودية في شارع النبي دانيال بالإسكندرية عام ١٩٤٣ وإلقاؤه محاضرة فيها، لتجعله شخصاً مرغوباً عند اليهود، حتى إن المدرسة وضعت جائزتين باسمه، وفي الجهة الأخرى كسب ود المحتل الإنكليزي بمعاداته بعض الشخصيات والتيارات والأحزاب، يقول مصطفى عبد الغني: «فبدلاً من مهاجمة السياسة الإنكليزية راح يهاجم الحزب الوطني». وحين قويت شوكة الحزب الوطني وصارت تصدر له خمس صحف يومية اندفع طه حسين يغير موقفه من الحزب ليكسب مساحته الإعلامية في نشر شعره، سعياً إلى الشهرة من خلالها، ويبرر مصطفى عبد الغني تغير موقف طه حسين من الحزب بأنه نتيجة لتغيير الحزب منهجه السابق. أما الشيعة فقد كسب طه حسين ودهم من خلال كتاب «علي وبنوه»، الذي زعم فيه أن أبا بكر رضي الله عنه اغتصب الخلافة من علي عليه السلام، كما أنكر وجود شخصية عبد الله بن سبأ، وبذلك برّأ اليهود من فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه، كما برأهم من اختراع مذهب الرافضة عابدي علي بن أبي طالب عليه السلام، وأرضى الرافضة بنفي نسبة دينهم إلى مؤسس يهودي، في حين استطاع تحييد المسلمين بذهابه إلى الحج، حيث استقبله هناك الإمام

محمد متولي الشعراوي بقصيدة مدحه فيها. وهكذا تمكن من إرضاء جميع الأطراف بالمداهنة التي يَعُدّها بعضهم ذكاء في حين يعدها غيرهم ازدواجية وخيانة وتسلقاً.

كان طه حسين عاشقاً للأساطير اليونانية متأثراً بها تأثراً تغلغل في دمه، وبدا أثرها واضحاً في أهم نتاج بحثي له، وهو كتابه «في الشعر الجاهلي» الذي أحدث ضجة كبرى، وهو الذي أسفر فيه طه حسين عن وجهه الحقيقي إسفاراً لا ضبابية فيه، فقال إن محمداً ﷺ هو من ألّف القرآن الكريم ونسبه إلى الله تعالى. وهذا يجعلنا نعود إلى قصة تأليف عزرا للعهد القديم على لسان موسى عليه السلام، إضافة إلى التلمود، فكيف فات طه حسين، الذي درس الأدب العربي وقرأ أقوال أعداء الإسلام من المشركين واعترافهم بأنه ليس من كلام البشر؟ لقد كان طه حسين يؤمن بأن مثل هذه الأقوال لُفقت تلفيقاً على ألسنة أشخاص، بعضهم وهميون لا وجود لهم في الواقع، كما يرى أن الشعر الجاهلي لُفق على ألسنة شخصيات لا وجود لها، عازياً ذلك إلى قيام الدولة العربية (الإسلامية) التي نحت إلى صناعة تاريخ أسطوري لها كأساطير الإغريق والروم وغيرهم من الشعوب، عادّاً بذلك الشعر الجاهلي والقرآن الكريم نوعاً من الأساطير التي أقيمت على خيال واسع ونسبت إلى شخصيات قد لا يكون لها وجود أصلاً. ولست في معرض تصنيف الشخص أمسلم هو أم عدو للإسلام، ولا أن أبرهن على أن لقب «عميد الأدب العربي» أسبغ عليه بلا استحقاق، وإنما كان ثمناً لخدمات معينة، فهذا ليس من غاية بحثنا ولا من

لوازمه، وإنما سأتناول كتابه «على هامش السيرة» الذي كتبه بما يشبه الرواية التي تقتنص شيئاً من جوانب الحياة الاجتماعية لفترة بعثة النبي ﷺ، لكنها تُخضع للخيال كثيراً من الأحداث التي لا أصل لها، والتي لا تمسّ شخصية النبي ﷺ مباشرة، ولكنها موازية لها من خلال تزامنها مع سيرته، ويأتي سياق الأحداث الخيالي فيها ليزرع في قلب القارئ التشكيك برسالة محمد ﷺ.

فبعد نشر كتاب «في الأدب الجاهلي» قامت الدنيا على طه حسين، ورفعت عليه شكاوى، فمنع الكتاب وأوقف بيعه، وخضع كاتبه لمحاكمة، ثم أغلق الملف. نعم أغلق، ولا عجب، فمصر كانت حينها تحت الاحتلال.

ليس هناك أسلوب أخطر في مقارعة الصدق من خلطه بشيء من الكذب ثم نشره وتداوله، وبذلك تكون أمامه ثلاثة مواقف، الأول موقف العاقل نصف المثقف، فهذا سينبذ الرواية بمجملها، والثاني الجاهل الذي ينبهر بالكذب المدسوس ويقيم اعتقاده عليه، والثالث الحكيم الذي يبحث ويؤصل ليأخذ الصدق وينقيه من الكذب. وهذا ما عمد إليه كتبة العهد القديم، فخلطوا حقاً بباطل وصدقاً بكذب وحقائق بافتراءات، فتخرج من مدرسته ثلاثة أصناف، الأول استنتج منه أن الدين كذبة بشرية، وأن الأنبياء أناس اذكياء عملوا لأجل مصالحهم واخترعوا لتحقيقها الديانات، ويبني سلوكه وتعامله على هذا الأساس باستحلال ما تصل إليه يده، وتحريم ما لا تصل إليه. ومنهم من يجهر بإلحاده ومنهم من يبقى متخفياً وراء ستار الدين محافظاً على علاقاته الاجتماعية ومتحرياً مصالحه الفردية، والصنف الثاني هم

الجهلة الذين تمكنت في نفوسهم عقيدة أنهم أبناء الله وأن بقية الشعوب غوييم، والصنف الثالث الذي بحث وتحرى فأخذ الصدق ونفى الكذب، فاعتزل الباطل وطلب الحق، بدءاً من عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وابن أخته سلام، وأسد وأسيد ابنا كعب القرظي، وثعلبة بن قيس، وسلمة بن أخيه، ويامين بن يامين، رضي الله عنهم، وأم المؤمنين السيدة صفية بنت حيي رضي الله عنها، وكلهم من يهود المدينة المنورة، ومن النصارى سلمان الفارسي عليه السلام، وبِشْرٌ أخو أسقف نجران لأمه، كلهم أعلنوا إسلامهم بين يدي النبي ﷺ، كما أسلم قساوسة كثير في العصر الحديث، وأشخاص ذوو شهرة ومكانة اجتماعية وسياسة وفكرية، مثل الفيلسوف روجيه غارودي، والبطل العالمي محمد علي كلاي، والكاتب الطبيب أنطوني جورج بيكر، والمغنية سينيد أوكونور، والرئيس السابق للغابون عمر بونغو، ومؤسس وزعيم قوة متطوعي دلتا النيجر مجاهد دوكوبو أساري، وقبلهم إلبيدوس البيزنطي حاكم صقلية، والقائمة تطول، نسأل الله أن يهدي جميع الناس إلى الحق.

وهكذا اكتشف طه حسين أنه ارتكب خطأ عظيماً بهذه المقامرة، فغير أسلوبه من المواجهة إلى المسايرة والدس. وكيف يتمكن من الدس في السيرة النبوية، وروايات أحداثها محققة منقّاة؟ نعم هناك باب، إنه الإسرائليات المدلسة التي نفاها العلماء، وهناك الأحاديث المكذوبة الموضوعة التي بيّن العلماء كذبها. ولكن كيف يكتب صاحب مكانة علمية مثل طه حسين سيرةً لا يتحرى فيها الصحيح ويتنخل الروايات؟ هنا كان

لا بد ألا يدخل الحِمى (السيرة النبوية الشريفة)، وإنما يرعى حوله (على هامش السيرة)، فيدس بين الفينة والفنية ما يريد، فاختار لكتابه ذلك الاسم المموه بمسمى «رواية»، فأعطى نفسه حق التدخل في الأحداث وإيرادها في غير سياقها التاريخي، كما أدخل فيها شخصيات لا حقيقة لها، مثل نسطاس الرومي وأبي مرة (إبليس)، وأنكر شخصيات حقيقية مثل عبد الله بن سبأ، وأدخل احداثا أسطورية مثل لقاءات أبي مرة وأبي جهل، ونادي الشياطين، وما إلى ذلك من ترهات تجعل السيرة خليطاً من الأساطير والكذب والدس، فقارؤها لا يخرج عن الأصناف الثلاثة الذين ذكرناهم. هذا إضافة إلى إيراده الحديث المشهور بأنه موضوع مفترى على رسول الله ﷺ: «لو عاش إبراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطي»، فإبراهيم عليه السلام ابن النبي ﷺ من مارية القبطية رضي الله عنها. وهذا الخلط الواضح بين ما هو ديني وما هو دنيوي يقود إلى فساد اعتقاد عند المصدق به، فالجزية تشريع، والتشريع في أي شيء لم يكن نبوياً أبداً، بل هو إلهي محض. أما «لو عاش إبراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطي» فهذا قد يصدر عن ملك وضع قانوناً أو نظاماً فيمكنه تغييره أو استثناء جماعة منه تكريماً أو استجابة لاستعطاف، أما الأنبياء فلا يصدر عنهم ولا يحق لهم تغيير القوانين والتشريعات الإلهية، وهل يرفع النبي ﷺ الزكاة عن أهل الجزيرة لو عاش ابنه القاسم مثلا؟ الجزية على الكتابي تقابل الزكاة على المسلم، وهي أقل من زكوات كثير من المسلمين، فالكتابي يدفعها مقابل الضمان الأمني بالحماية، والضمان الاجتماعي بمعونته إذا افتقر أو

حصلت له مصيبة في ماله، وأكبر مثال العجوز اليهودي الذي رآه عمر رضي الله عنه يتسول، فقال له: «ما أخذنا منك الجزية شاباً لنضيعك شيخاً»، فأخذه إلى عامل بيت المال وفرض له راتباً!

لقد خلط طه حسين في «على هامش السيرة» الصدق بالكذب، والحق بالباطل، والواقعي بالأسطوري، مستخدماً لغة أدبية راقية تخاطب العاطفة وتهيمن عليها، وأسلوباً أنيقاً مثيراً للمشاعر، فيندمج القارئ مع لغته غافلاً عن صحة الأحداث متغافلاً عن واقعيتها في تدفق هذا الماء السلسال العذب من الأسلوب المشوق، كمن يتابع أفلام «سوبرمان» وأمثاله من أفلام الخيال التي يتقن مؤلفوها سبك أحداثها وإحكام حبكتها وإغناء عاطفتها، حتى ترى العاقل اللبيب يتابع أحداثها بشغف دون أن يتدخل عقله ليقول له: «هذا مستحيل»! فقد سيطر المؤلف على العاطفة لتغيِّب العقل في تعاملها مع الكتاب فلا تناقش شيئاً مما فيه، وكأنه مسلمات! فإذا انتهى الفلم أو الرواية قال العاقل لنفسه: «هذا كله خيال»، نعم كله بمجمله، لم يختر منه أحداثاً دون أحداث، في حين يخرج الجاهل إلى الشارع باحثاً عن مجال يستعرض فيه تطبيقات لبعض المشاهد التي تمكنت من نفسه على رغم علمه بخياليتها المغرقة. أما الحكيم فيترك الفيلم أو الرواية بعد أول مشهد، ويقول هذا مضيعة للوقت.

أما جدوى هذا العمل الذي أنجزه طه حسين فقد كانت وقتية، صفق لها مؤيدوه، ورضي عنه أسياده، وتحقق له مكسب مالي. لكن الهدف الذي سعى إليه من خلالها لم يتحقق، مع أن الرواية أنتجت مسلسلاً تلفزيونياً

في ما بعد، لكن اليوم لا أحد يقرؤها ولا أحد يحيل إليها في بحث أو مقالة أو كتاب.

ونضرب لذلك مثالاً هو أن الكاتب تخيل – ونقول تخيل لأن ما كتبه لا أصل له في الحقيقة لا تاريخياً ولا افتراء – أن المجتمع الجاهلي في فترة بعثة النبي ﷺ شُغل كثيراً ببشارات الكهان ببعثة خاتم النبيين في مكة، حتى صارت هذه النبوءة هماً يركد على صدور الناس وأملاً يداعب مشاعر الطامحين، كأم قبيح زوجة أبي لهب، التي طلبت منه أن يترك الخمر والميسر وأن يدّعي النبوة. وهذا لم يحدث تاريخياً، بل إن عكسه هو الثابت، فحين سأل قيصر أبا سفيان عن النبي ﷺ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قال: لاَ. فَقَالَ هرقل: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: «رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ»[١٥٤]. ولو كان أبو لهب أو غيره فعل ذلك حقاً - كما زعم طه حسين - لأخبره أبو سفيان. ويؤيد ما ذهبنا إليه ما نقله الأستاذ مجدي إبراهيم محرم، في مقالة بعنوان «طه حسين على هامش الكذب والتدليس» نشرت في صحيفة «دنيا الوطن»، من قول الدكتور محمد حسين هيكل: «أستميح طه العذر إن خالفته في اتخاذ النَّبيِّ ﷺ وعصره مادة لأدب الأسطورة... ففي رأيي يجب ألّا تتخذ حياة النَّبيِّ ﷺ مادة الأدب الأسطوري، وإنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب، وما اندثر أو ما هو في حكم المندثر، وما لا يترك صدقه أو كذبه

---

[١٥٤] صحيح البخاري، برقم٧.

في حياة النفوس والعقائد أثراً ما.... واعلم أن هذه «الإسرائيليات» قد أريد بها إقامة ميثولوجية إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب، ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه ﷺ، فقد كانت هذه غاية الأساطير التي وضعت عن الأديان الأخرى. من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين في جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام.

جرجي زيدان

له كتابات كثيرة عن تاريخ الإسلام من عهد النبي ﷺ إلى دولة المماليك. وما يهمنا هو تعامله مع سيرة النبي محمد ﷺ، لذا سنعتمد على كتاب نقدي لأسلوبه، هو كتاب الدكتور شوقي أبو خليل، رحمه الله، «جرجي زيدان في الميزان»، الذي وفر علينا مشقة البحث والاستدلال على مواضع الدس والتشويه في كتبه، والانحراف عن أمانة النقل التاريخي.

يقول أبو خليل في مقدمة كتابه: «يواجه تاريخنا وأعلامه محاولة مدروسة دقيقة لتزييفه وإفساده... كل ذلك في عرض روائي جذاب شائق، هدفه طرح أرضية تاريخية وفكرية واسعة لإثارة الشبهات حول تاريخنا وتراثنا وأدبنا ورجالاتنا. سموم حقيقية قُدّمت إلى شباب جيلين في أمتنا، من طريق قصص تقوم على الحبكة الغرامية الخيالية (يقصد المتخيلة دون أن تكون لها حقيقة) حملت عنوان «روايات تاريخ الإسلام» لجرجي زيدان. وروجت دار الهلال لهذه الروايات... والغريب أن بعض الأدباء والكتاب

رددوا ادعاءات جرجي على تراثنا وتاريخنا، كطه حسين وسلامة موسى ولويس عوض ولطفي السيد ومحمود عزمي وحسين فوزي. والأغرب أنه لم يُكتب عن هذه الروايات نقدٌ شافٍ... وجرجي يظن أنه يكفيه من الاستعدادات لكتابة تاريخ الإسلام اقتباس أسلوب الغربيين فيه ومراجعة وترجمة كتبهم الجامعة لمادته»[١٥٥].

وبهذا يوضح أبو خليل المصادر التي استرفد منها جرجي نتاجه المزيف والمفترى، ويؤكد بعد ذلك أنه أخطأ أخطاء فادحة في الرأي، وكانت أخطاؤه في النقل والترجمة أفدح: «وبخاصة إذا علمنا أنه روائي وليس مؤرخاً»[١٥٦]، فقد كان بعيداً عن منهجية البحث العلمي والأمانة التاريخية، فيأخذ عن الكتب الموضوعة لأخبار الماجنين وحتى من كتب الخصوم، تساعده سعة خياله في اختلاق الأحداث وتزييف الحقائق. كما أورد أبو خليل تلاعب جرجي بالأسماء فصحف فيها وحرّف لغايات في نفسه، كما حرّف في وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه للصحابة، وأثبت تبعيته للغرب بمقولة لمحمد عبد الغني حسن في كتابه عن جرجي زيدان الذي عدّه فيه علماً من أعلام العرب فقال: «وبالطبع كان جرجي يسير على نهج الأوربيين والمستشرقين في تاريخ الآداب العربية».

وبناء على ما نقله الدكتور شوقي أبو خليل فإن لنا أن نتساءل: كيف يفهم الأوربيون أخلاق العرب، فضلاً على فهم أخلاق المسلمين؟ كيف يفهمون

---

[١٥٥] جرجي زيدان في الميزان، لشوقي أبي خليل، مقدمة الكتاب.
[١٥٦] المصدر السابق.

مبدأ إغاثة الملهوف، وإجارة المستجير، واستقبال الموت دفعاً عن عار انتهاك حرمة ضيف أو جار؟ وكيف تجير امرأة رجلاً مطلوباً بدم لقبيلة، فيبلغ الخبر إخوتها فيقبلون ليسلوا سيوفهم دفاعاً عن المستجير بأختهم، كما حدث في استجارة السليك بفكيهة؟ كيف يفسرون بكاء الرجل من بيت هجاء، وكيف يفسرون قول الابن لأبيه اذبحني وقدم لحمي طعاماً للضيف؟ وهل يجدون تفسيراً سوى الغباء أو الجنون لمثل هذا أو لمن يبيت وأسرته جياعاً ليطعموا الضيف كل ما لديهم من طعام نزر؟ كيف يفسرون قبول أبي بكر الصديق جوار قاتل ابنه، وقبول عمر رضي الله عنه جوار قاتل أخيه، دون عقوبة أو ثأر أو حتى دية، بحجة ﴿الإسلام يجب ما قبله﴾[١٥٧]؟ كيف يفسرون التزام العرب وعد حاجب بن زرارة ويستعظمون الرهينة التي تركها عند كسرى، ولم تكن الرهينة إلا قوسه؟ كيف يتعامل الغربيون مع قيم الوفاء بالعهد التي لم تُمكِن لملوكهم، فضلاً على سوقتهم؟ كيف يفسر الأوربي إخفاء البطل نفسه بعد إنجاز عمل بطولي، كصاحب النقب حين استعصى على المسلمين فتح حصن، فندب القائد مسلمة بن عبد الملك الناس إلى نَقْب هو المدخل الوحيد للحصن، لعل أحداً يغامر بنفسه فيدخل منه ويقاتل في الداخل حتى يصل إلى الباب فيفتحه للمسلمين، فدخله رجل ففتحه، فنادى مسلمة: أين صاحب النّقب؟ فلم يخرج، فأقسم عليه أن يخرج، فجاء رجل ملثم فاستأذن على الأمير وقال: «أنا أخبركم عن صاحب

---

[١٥٧] صحيح ابن حبان، برقم ٣٩٦.

النقب»، فأذن له، فقال: «إن صاحب النِّقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألا تُسَوِّدُوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه: ممن هو! فقال مسلمة: فذاك له، فقال الرجل: «أنا هو»[١٥٨]، ثم استدار وخرج! ألا يبحث الجندي البطل عن ترقية، أو جائزة، أو تخليد اسمه في ديوان الخليفة أو في التاريخ؟ كيف يفسر الأوربي هذا العمل؟ إن التفسير المادي لأحداث التاريخ لا يسمي ذلك إلا أساطير ومبالغات لا يصدق أن تكون في مجتمع متحضر، فكيف بها في مجتمع البداوة والفقر وشظف العيش؟ وبعد ذلك نرضى بأن يأتي من يقول «يسير على نهج الأوربيين في تاريخ الآداب العربية»؟ عندما تختلف القيم تختلف التفسيرات، وهكذا فجرجي وغيره من الأوربيين ومن سار على نهجهم لن يفسر عملاً فيه عطاء أو تضحية أو وفاء أو عفاف أو إيثار إلا بأن وراءه مصلحة لمن قام به، فيجهد خياله في إيجاد مصلحة ما.

ويستدل أبو خليل بأحداث ووقائع من سيرة جرجي زيدان بأنه من صناعة المدارس التبشيرية بلبنان، ثم سافر إلى أوربا في زيارة طويلة، وأقام علاقات مع مستشرقين، ويكفي أنه رجل استخبارات بريطانية نال ثلاثة أوسمة. إضافة إلى تساؤله عن أموال إقامة مطبعة الهلال التي أسسها جرجي وكان وقتها فقيراً! ثم يعرض أبو خليل نماذج من قصص جرجي، مقدماً لها بقوله: «كل قول يجريه مؤلف القصة التاريخية على لسان أحد

---

١٥٨ عيون الأخبار، لابن قتيبة، ج١، ص٧٣.

أبطال قصصه، وليس له سنده التاريخي ونصه في المراجع والمصادر، يُحسَبُ على المؤلف، قولاً واحداً بإجماع الآراء». يعني بذلك أن الكاتب يضع قناعاته وأفكاره على ألسنة أبطاله، ويمثل لذلك بأمثلة من روايات جرجي. ونأتي إلى ما يخص طعنه في سيرة النبي ﷺ، كقوله: «وبجوار بصرى هذه دير البحيراء الذي نزل أبو طالب ومعه ابن أخيه صاحب الشريعة الإسلامية حين قدما الشام للتجارة قبل ظهور الدعوة الإسلامية ببضع وعشرين سنة»! فقد كذب جرجي في قوله إن ذلك كان قبل ظهور الدعوة الإسلامية ببضع وعشرين سنة، فقد كان بين ذلك اللقاء قبل البعثة بنحو من ثلاثين سنة، فقد كان عمر النبي ﷺ يومها تسع سنين، وقيل اثنا عشر عاماً، فقد أراد جرجي من إدخال افترائه هذا أن يحسُب القارئ الزمن فيجد أن النبي ﷺ حين بُعث كان عمره أربعين عاماً، وعلى هذا الأساس يكون عمره عند لقاء بحيرا قريباً من عشرين عاماً، أي أنه راشد يعي ما يقال له، وبذلك يستنتج القارئ أن بحيرا درّسه وأعطاه القرآن، أو أعطاه التعاليم الدينية فبنى عليها القرآن! فقد استهدف جرجي بهذه الكذبة إثارة الشك في نفس القارئ بأسلوب دنيء تعمد المغالطة في السن. أما لقاء بحيرا فقد حصل، وهو مذكور في كتب السيرة، وأثبتته كتب الحديث الصحيحة: «خرج أبو طالب إلى الشام، ومعه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فخرج إليهم، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت، قال: وهم يحلون رحالهم جعل الراهب يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، وقال: هذا سيد العالمين،

هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرّ ساجداً ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به، وكان ﷺ في رعية الإبل، قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجد القوم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. فماذا يستوعب ابن تسعة أعوام، أو اثنا عشر عاماً في لقاء لا يزيد على سويعات تستريح فيها القافلة؟ ونلحظ تعمده الدس من خلال قوله «نزل أبو طالب ومعه ابن أخيه صاحب الشريعة الإسلامية» ولم يقل «النبي» أو «محمد»، وإنما جاء بالصفة (صاحب الشريعة)، فنسب الشريعة إليه لا إلى الله، إمعاناً في غرس بذرة الشك في نفس القارئ الذي سيستنتج ما حمله جرجي على استنتاجه بغير عناء. فأراد ترسيخ فكرة أنه شاب راشد ينتمي إلى مجتمع وثني، التقى راهباً، وبعد عشرين عاماً خرج بشريعة! ثم يتمادى جرجي في تزييف الحقائق وتحريف الكلام، سواء في رسالة النبي ﷺ إلى قيصر، أم في محادثة أبي سفيان وقيصر، ووسمه هو وأصحابه بأنهم قطاع طريق: «لم يدع لنا قافلة تمر من المدينة إلا غزاها وفرق أسلابها وأموالها بين رجاله»! متى حدث ذلك؟ مرة واحدة كانت لتعويض أموال المهاجرين وأملاكهم التي استحوذ عليها القرشيون بعد هجرتهم، ومع ذلك فإن القافلة نجت ولم تؤخذ أموال ولا أسلاب! وكذلك في الحوارات في ثنايا القصص

التي يبدي فيها أن النبي ﷺ وصحابته غزاة لا دعاة، فإذا غزوا قبيلة فإنهم يعملون على إبادتها عن آخرها. أما انتصارات المسلمين على الروم فعزاها إلى تهدم القلاع والحصون، والانقسامات الدينية، والانقسامات الشعبية. وأما انتصارهم على الفرس فكان بسبب اختلال أمور فارس. في حين أن الحقيقة أن النصر كان من الله سبحانه، أما الأسباب فلم تكن تسمح بانتصاراتٍ أدنى من هذه. وفي فتح مصر يقول: «رأى العرب قد أمعنوا في المدينة قتلاً ونهباً»، «العرب ينهبون المدينة ويقتلون حاميتها»! متى حدث ذلك؟ التاريخ الذي كتبه الأقباط أنفسهم يبرأ من مثل هذا الكلام. وكثير من مثل هذه الهرطقات والافتراءات والعلاقات النسائية يوردها عن شخصيات يمثلون القيم الرفيعة في تراثنا، حاول جرجي تشويه صورهم. ونكتفي بما استشهدنا به وما استنتجناه، لنبين أن هذا المسخ الأدبي أو التاريخي لم يكن عبثياً، وإنما كان له دوافعه ومساندوه، وكل مساعيهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[١٥٩] فخابت أفواههم وخزيت أقلامهم واحترقت قلوبهم، ولم يزدد هذا الدين إلا انتشاراً، ولم يزدد نبيه ﷺ إلا عزاً ورفعة.

---

[١٥٩] سورة التوبة: ٣٢.

آيات سلمان رشدي الشيطانية

كتاب لا يساوي ثمن الورق الذي طبع عليه، لا في قيمته الأدبية ولا التاريخية ولا الاجتماعية، وحتى لو قوّمناه بين الكتب الهزلية لكانت النتيجة صفراً. فما الذي جعله مشهوراً وتُرجم إلى معظم اللغات الحية؟ إنها فتوى الزعيم الفارسي الخميني، الذي أفتى بوجوب قتل المؤلف سلمان رشدي، وأعلن جائزة قدرها نصف مليون دولار لمن يقتله، ولم يكن الخميني يجهل أن هناك حلولاً أفضل من هذا الإعلان، كالتي يتبعها اليهود في مواجهة الكتب التي تنشر ضدهم، لكنه أراد استغلال الحادثة لتحقيق مكاسب سياسية ودينية، فيظهر أمام العالم أنه حامي الإسلام الأول، في الوقت الذي لم يصدر عن الجهات المتقدمة في تمثيل الإسلام، كالأزهر والسعودية، مثل هذه الفتوى وهذه الجائزة، ومن جهة أخرى أراد الخميني أن يستميل الشارع الإسلامي إليه، وخصوصاً بعد أن صارت سمعته في التراب بعد الحرب العراقية - الإيرانية، وصارت شخصيته مهزلة يوسم باسمه الدجاجلة والمشعوذون والمتسترون بستار الدين، فكان من نتائج هذه الفتوى وسم الإسلام بأنه دين إرهابي، واتهامه بمصادرة الرأي، وحصول سلمان رشدي على حماية أمنية من بريطانيا ومرافقين يحرسونه، والأهم من ذلك كله هو أن من لم يسمع بالكتاب سمع به فصار يبحث عنه، فترجم إلى عدد من لغات العالم، وتوالت طباعة نسخه، وبدأ سلمان رشدي يجني الأرباح، وصار أشهر من يهوذا الإسخريوطي.

أما مضمون الكتاب فكان مماثلاً لهامش طه حسين في الغاية والهدف، لكنه اختلف عنه بأن هامش طه خلط فيه حقاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وخيالاً وواقعاً، أما «آيات» سلمان فكله خيال وكذب وافتراء.

وطبعاً كان منهج الكتاب روائياً، نقل فيه سيرة النبي ﷺ وأصحابه بخيال محض لم تتخلله حقيقة واحدة، ولا ريب أن الهدف من الكتاب تشويه صورة النبي ﷺ والإسلام في عيون من لم يقرؤوا السيرة أو التاريخ، فعلى سبيل المثال، أحد المشاهد يصف فيه النبي ﷺ في مجلس مع عدد من الصحابة رضي الله عنهم، يشربون الخمر ويضحكون، ثم ينهض عمر، فيسأله: إلى أين تذهب؟ فيقول له: إلى تلك العاهرات، ويشير إلى بيوت أزواج النبي ﷺ! ربما لم يقرأ سلمان رشدي أن حفصة بنت عمر من زوجات النبي ﷺ، وإلا لاختار غيره، إلا إذا كانت قذارة سلمان التي تملأ جنبيه تبيح له فعل الفاحشة بابنته. وهكذا فإن الكتاب كما قلنا لا يساوي ثمن ورقه، بل ثمن حبره، وقد أفل نجمه بعد أن ثارت ضجته في ظل الفتوى الخمينية، ولم يعد يذكره أحد، وقبل ذلك اكتشف الغربيون تفاهة الكتاب بعد أن كتب عنه صحافيون في إثر الضجة التي أثيرت حوله والترجمات التي حظي بها، ليعلنوا للقراء أن الكتاب خاوٍ لا فائدة فيه ولا مادة علمية ولا قيمة أدبية ولا دقية تاريخية.

دعوى التشابه بين قصص القرآن الكريم والعهدين

ظهر بين مدّعي الإسلام أفراد زعموا أنهم قرؤوا القرآن الكريم والتوراة والإنجيل، فوجدوا تشابهاً بين القصص القرآني والقصص المذكورة في الكتابين الآخرين، مشيرين من طرف خفي إلى أن النبي ﷺ استنسخها من هذين الكتابين، ونقول له: إن أجدادك أبا جهل وأُبيَّ بن خلف وعقبة بن أبي معيط قالوا ذلك صراحة دون لمز أو تلميح، وأثبت الله مقولتهم في كتابه: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(١٦٠) فكان الرد عليهم: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾(١٦١)، فالذي أنزل التوراة والإنجيل هو الذي أنزل القرآن، والقصصُ التي ذكرت فيها حقيقيةٌ في أصلها وليست من خيال كاتبي التوراة والإنجيل، لكن الكتبة غيروا وبدلوا، أما القرآن الكريم فقد أورد القصص الحقيقية دون تحريف، ولك أن تقارن بين قصص «أخطاء الأنبياء» التي ذكرت في القرآن الكريم، ومقابلاتها في التوراة والإنجيل، وكذلك القصص التي ذكرناها آنفاً في الافتراء على الأنبياء الكرام، والتي لم يأخذ بها القرآن الكريم، ولو أنه كان مستنسخاً كما يحاولون أن يلمحوا إليه، لأورد ما أورد الكتابان من افتراءات المتزيّدين فيهما، لكن التشابه في أن وقوع القصص حق، لكن الرواية اختلفت بين ما أضاف إليه البشر

---

١٦٠ سورة الفرقان: ٥.

١٦١ المصدر نفسه: ٦.

وكذبوا فيه، وبين ما نقله الله سبحانه محفوظاً من التحريف. والحقيقة أنه لو لم يكن ثمة تشابه بين القرآن والإنجيل والتوراة لما أيقنا أن الكتب الثلاثة خرجت من مشكاة واحدة – كما قال النجاشي حين سمع القرآن – ولا آمنا أن منزل الكتب الثلاثة واحد هو الله، وهذا دليل من دلائل نبوة محمد ﷺ الذي كان أمياً ولم يقرأ الكتب، فجاءه الوحي بقصص لم يعرفها مجتمعه، ويؤكد الله سبحانه ما ظنه حفيد الجاهليين اكتشافاً عظيماً، وهو التشابه بينها، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾[١٦٢]، فالقرآن مؤكد ومصدق لما ورد في الكتابين السابقين (في ما لم يُحَرّف)، ﴿ومهيمناً عليه﴾ أي أن ما أثبته القرآن مما في الكتب السابقة ثابت، وما ألغاه ملغى، وما أنكره فهو منكر، وما زاده فهو لازم.

وقد تطرق كثير من علماء المسلمين إلى مثل هذه الدعوى، منهم شيخنا العلامة الدكتور نور الدين عتر، رحمه الله، في كتابه «القرآن الكريم والدراسات الأدبية»، والدكتور عبد الرحمن بدوي، في كتابه «دفاع عن القرآن ضد منتقديه»، والدكتور سامي عامري، في كتابه «هل القرآن العظيم مقتبس من كتب اليهود والنصارى»؟ وأثبتوا بطلانها، وفصّلوا في هذه المسألة وردّوا المزاعم بالأدلة والحجج الدامغة. إضافة إلى أن العهد

---

[١٦٢] سورة المائدة: ٤٨.

القديم (التوراة) لم يكن كله من وحي الله سبحانه، فقد أكد الدكتور سهيل زكار، في تقديمه لكتاب «التلمود» للدكتور أحمد أبيش أن «عزرا الكاتب هو المدون الأول لأسفار العهد القديم والمؤسس الفعلي لليهودية (الحالية)، إذ كان متصدراً الكهنة الإداريين في بلاط الإمبراطور أردشير عام ٤٥٥ق.م، وكانوا زرداشتيين بشكل عام، لكن لهم تميزهم داخل هذه الديانة التي انضوى تحت لوائها عدد من العقائد والديانات، ولا بد أن عزرا نقل ما دوّنه، فشكل نواة ما سيعرف بالعهد القديم، وعزاه إلى النبي موسى عليه السلام، وقد استقاه من محفوظات مجمع القصور الملكية (مدينة الفرس)، وعلى رغم التعديلات التي دونها عزرا والإضافات، ما تزال ثمة ملامح زرداشتية واضحة». ولا شك أن ثمة محفوظات صحيحة عن موسى عليه السلام وغيره من أنبياء بني إسرائيل أضيفت إلى العهد القديم في أسفار منفردة، سواء على يد عزرا الكاتب أو غيره، فاختلط الحق بالباطل، ويؤكد ذلك قول النبي ﷺ: ﴿إذا حَدَّثَكُم أهلُ الكتابِ فَلا تُصَدِّقوهُم ولا تُكَذِّبوهُم، وقولوا: آمَنّا بِاللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، فإنْ كان حقاً لم تُكَذِّبوهُم، وإنْ كانَ باطِلاً لم تُصَدِّقوهُمْ﴾[١٦٣]. وعليه فالصواب من رواياتهم ما وافق القرآن الكريم، أما ما لم يصدقه القرآن فهو خاضع لقاعدة «لا تُصدّقوا ولا تُكذّبوا».

---

[١٦٣] مسند أحمد بن حنبل، برقم ١٦٨٩٠.

اتّهام الأنبياء والافتراء عليهم لمصلحة من؟

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[١٦٤].

لا ريب أن محاربة أي دين أو دعوة ومحاولة نخر مضامينها وإفراغها من جوهرها، يصب في مصلحة أعدائها، حتى لو كانوا سدنتها وقادتها القائمين عليها والمؤتمنين على حفظها، فالمصالح الشخصية إذا تضاربت مع النظام الذي يحميه الإنسان تدفعه إلى تحريفه والتلاعب به، لكي لا يعد تصرفه خرقاً للنظام، فمثلاً إذا كان دستور دولة يقضي بألا يقلّ عمر الرئيس عن أربعين عاماً، فمات الرئيس وأراد الكهان والسدنة توريث ولده ذي الخمسة والثلاثين عاماً اضطروا إلى تغيير الدستور والتلاعب به، لكي لا يكون تصرفهم خرقاً له، وهذا ما حدث في سورية يوم مات حافظ الأسد، فكان لا بد من تحريف مادة الدستور لإيصال بشار إلى سدة الحكم. وفي الشرائع السماوية تحريم للربا، فإذا أراد الحبر أو الحاخام أن يرابي فليس له إلا أن يتهم نبياً بالمراباة، وكذلك إذا ارتكب أو أراد أن يرتكب أي عمل شائن، فلكي يخفف السَّدَنة عن أنفسهم أعباء التشريع من اجتناب المحرمات التي يرتكبونها، أو ليبرروا لأنفسهم الاحتيال والغش والخداع وأكل أموال الناس بالباطل، يبادرون إلى الإفك على الأنبياء

---

١٦٤ سورة الأنعام: ١١٢.

واتهامهم بتلك الخطايا، ليقول للناس: لستُ وحدي، وأنا بشر وها هو النبي فعل ذلك! فوجود مثل هذه الافتراءات في كتب تنسب إلى الدين تؤسس لثقافة تنتج مجتمعات إباحية، ورهباناً وقساوسة شبقين يمارسون الرذيلة مع طالبات العلم الكنسي، بل ومع الأطفال من طلابه ذكوراً وإناثاً، وكذلك مع النساء القادمات لطلب الغفران، بدءاً من ممثّل الإله القائم بأمره والذي يمنح صكوك الغفران نيابة عنه «البابا» المقدس المنزه في اعتقادهم، مثل البابا إسكندر السادس، مروراً بالبابا أينوتشنتو الثامن، وصولاً إلى أمثال راسبوتين الذي كان يبارك نساء القياصرة وبناتهم في الحمام، وبعضهن كن بناته من الزنا بأمهاتهن، ومثل مارك أندرسون الذي اغتصب ابنته، وأولاشندي وأمثاله ممن اغتصبوا الراهبات والقاصرات وحتى الأطفال الذكور، وغيرهم ممن يتخذون أنبياء التلمود والعهد المزيف قدوة لهم، فمن يقرأ تلك القصص يومياً في الكتب المدعوة «مقدسة» لا ريب أن الشيطان يفتح له باب الإغواء ويقنعه بأنه أقل ذنباً من النبي الذي زنا بابنتيه والنبي الذي زنا بزوجة أحد جنوده ثم أرسله إلى الحرب ليهلك، فانتشرت الفاحشة في الأديرة والكنائس حتى تحولت إلى ما يشبه المواخير، ولم يعد كتاب لويس عوض «ثورة الفكر» يفي بوصف درجة الفحش التي وصفها بقوله: «كانت الفضائح في روما مركز البابوية تُزكِم الأنوف»!

ثم يأتي القسم الآخر، وهم أعداء الأنبياء جنود إبليس الذي تعهد أن يتخذ من عباد الله نصيباً مفروضاً وأن يحتنك ذرية آدم ويمنيهم، وهم الشياطين؛ شياطين الإنس الذين ينصاعون لوسوسات شياطين الجن وتلتقي أهواؤهم

عند معاداة الأنبياء: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ...﴾[١٦٥]، وبذلك نرجع إلى الصراع القديم بين الشيطان وآدم، بين الخير والشر، بين الحق والباطل، والاختبار القائم على إمداد ابليس بالعمر الطويل والسماح له بالتغلغل في الدماء والوسوسة في صدور الناس، إلا عباد الله المخلصين، الذين أعرضوا عن أهوائهم وانشغلوا بإرضاء ربهم. لكن هل يتوقف ذلك على أصحاب المصالح الشخصية؟ أم أن هناك من يريد إضلال البشرية كلها؟ البشرية؟! نعم، أو يمكنك أن تقول «الغوييم»! وكذلك فإن الإغواء الجماعي يخدم إبليس أكثر من الإغواءات الفردية، لأن الفرد قد يتوب فيتوب الله عليه، أما إذا أسست جماعة كبيرة تتبنى عقيدة منحرفة مبنية على ذهنية ذات مرجعية منسوبة إلى الرب أو الأنبياء، فهؤلاء لا تؤمل منهم توبة؛ لأنهم علي يقين تام بأنهم على الحق يستندون إلى التنزيل السماوي وسنن الأنبياء، وتتشكل مصالحهم في قوالب تلك التعاليم، وهكذا يتوغلون في المجتمع الآدمي فيفسدون معتقدين أنهم يصلحون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[١٦٦]، وهكذا تصبح المعصية عندهم طاعة وسنة، وتُتخذ قربى إلى الله، وهي مبعدة عن بابه مستجلبة سخطه ونقمته، وهذه غاية ما يتمنى إبليس ويسعى إليه؛ إذ يتشكل بهم مجتمع يبرر أخطاءه وغدراته واحتياله وظلمه وأكله أموال الناس وجرائمه وفواحشه وفجوره تبريراً دينياً له

---

[١٦٥] سورة الأنعام: ١١٢.

[١٦٦] سورة البقرة: ١١.

مرجعيته، فكيف إذا أضيف إلى هذه الذهنية أن تؤمن هذه الجماعة بأنهم ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[١٦٧]، ذنوبهم مغفورة، أما غيرهم من الأمم الأخرى فهم «غوييم» أي حيوانات خلقها الله على صورة البشر لخدمة هذه الجماعة (بني إسرائيل)، إذ لا ينبغي لبني إسرائيل أن تخدمهم الحيوانات؟! وكيف إذا ترتب على تلك الذهنية أن هؤلاء الأمميين (الغوييم) مهما كانت درجة إيمانهم والتزامهم الدين وعملوا من الصالحات فلا مكان لهم في جنة الآخرة، وأن ارتكابهم المعاصي والفواحش أمر حتمي يتناسب مع آخرتهم المحتومة؟ وكيف إذا أوجدوا لهم عقائد منحرفة ترسخ في أذهان أجيالهم أن المعاصي قُربات، كما فعل اليهودي ابن سبأ في عقيدة الرافضة، وأنهم مهما ارتكبوا من معاصيَ وفواحش وقتلوا وظلموا فمجرد إيمانهم بهذه العقائد ينجيهم، كما فعل مخترع عقيدة الصَّلب عند النصارى اليهودي بولس، الذي كان كافراً بعيسى مكذباً له، واضطهد تلاميذه، ثم زعم أنه رأى عيسى في طريقه إلى دمشق وتولى الدعوة إليه؟ وقد أخذ بولس هذه العقيدة، كما يذكر علاء أبو بكر، من عدد من الأساطير الوثنية، منها أسطورة «ميثرا» عند الفرس، الذي قُتل ليخلص العباد من آثامهم، ثم عاد إلى الحياة وصعد إلى السماء؟!

وكيف إذا اخترع يهودي مثل كارل ماركس للأمميين عقيدة تنفي وجود إله خالق للناس سيحاسبهم على أفعالهم؟ لكنه حين جاءه الموت رفع بصره

---

[١٦٧] سورة المائدة: ١٨.

إلى السماء وقال «يا إلهي ساعدني»! لا شك أن ذنبه في إضلالهم مغفور لأنه من بني إسرائيل، أما «الغوييم» الذين أضلهم فلا فرق بين طاعاتهم ومعاصيهم، فهم لا مكان لهم في الجنة كما يعتقد؟ وكيف لو خرج على الأمميين يهودي مثل داروين ليقنع الناس بأن الخلق كله قائم على التطور، ابتداء من خلية سرت فيها الحياة صدفة ثم انقسمت وتكاثرت ليتشكل منها حيوان صار يتطور ويتكاثر، فصار منه الإنسان والحيوان والطير والشجر... وتحرك المال والإعلام اليهوديين لنشر هذا الهراء باسم العلم وأدخله في مناهج المدارس والجامعات؟ وكيف إذا خرج للناس يهودي آخر مثل فرويد ليزعم للناس أن الجنس أصل لكل السلوكات البشرية، والعُقد الجنسية هي المحرك الأول والمنتج لهذه السلوكات القائمة على الشهوة الجنسية، بدءاً من ارتضاع الطفل ثدي أمه؟

لا ريب أن ترسيخ تلك العقائد بين الأمميين سيولّد تنافراً وصراعات دينية وعقدية لا تترك للبشرية فرصة للاجتماع على دين أو عقيدة واحدة، فالجميع ضالون؛ مؤمنهم وكافرهم، وهو ما يسعى إليه العدو الأول للآدمية «إبليس»، أما اليهود صُنّاع هذه الاتجاهات الضالة المضلة فلا يرون في ذلك بأسا على أحد، فالأمميّون الغوييم - في اعتقادهم - لا خلاص لهم ولا نجاة في الآخرة، فلا فرق بين ضلالهم وهداهم، أما هم فموقنون بأنهم أبناء الله وأحباؤه، والخلاص يشملهم وحدهم مهما ارتكبوا.

وهكذا لم يبق لهم ولزعيمهم إبليس من عدو غير الإسلام، فلما فشلوا في تكذيب نبوة محمد ﷺ وفي محاولة اغتياله، ثم في تأليب العرب عليه، كما

لم ينجحوا في التشكيك في دينه الموافق للفطرة المبني على العقل والعلم والبصيرة، وفشلت في تحريف مفاهيمه الشخصيات التي دسوها بين أهله وفي مراكز التعليم تحت عمائم وضعتها الماسونية على رؤوسهم، لم يبق أمامهم إلا اتهامه بالإرهاب، وإحياء تيار الخوارج وتشكيل جماعات يتبنون ذلك الفكر الضال المنحرف، فيستحلون دماء المسلمين ويرتكبون الجرائم، ليظهروهم للناس حجة وشاهداً حياً على أن الإسلام دين إرهاب وإفساد في الأرض، ومع ذلك فشلوا، فاتخذوا سبيلاً أخرى، فأخرجوا من بين المسلمين جهلة أدعياء ثقافة يفسرون لهم القرآن الكريم على غير وجهه، ويختصرون الإسلام في الاعتقاد والصلاة، ليجعلوا منه ديناً كنسياً محصوراً في حدود المسجد، ولا علاقة له بالمعاملات والحياة العامة للمجتمع، بل وحتى في الأسرة. يضاف إلى ذلك ما يصدر عن رؤساء دول وسياسيين كبار من أنهم - وهم من اليهود والنصارى والملاحدة - سيعيدون إنتاج الإسلام لنا ويعلموننا ديننا بحسب فهمهم له لا بحسب فهم نبينا ﷺ وأصحابه وعلماء أمته، دين جديد يتبع خطوات بولس اليهودي في تحريف دين عيسى عليه السلام، ويقوم على إلغاء الثوابت وإبطال الحدود وإيقاف الدعوة، واستبدال التشريعات الدولية الإنسانية بالتشريعات الإلهية ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾[١٦٨]، وممارسة الضغوط على

---

[١٦٨] سورة البقرة: ٦١.

الدول الإسلامية بالاقتصاد، أو التهديد، أو التدخل المباشر بفرض سياسات معينة أو بالاحتلال المباشر، بحجة القضاء على الإرهاب.

واليهود اليوم اكتفوا باحتلال فلسطين وما حولها من أراضٍ، واختفوا من واجهة الصراع الإسلامي زاعمين أنهم يريدون السلام، في حين تمسك أصابعهم بكل خيوط هذه الدمى التي تهاجم الإسلام، سواء من المنسوبين إليه، أم ممن هم خارجه، في السياسة والأدب والفن، بدءاً من تصريح الرئيس الأمريكي بعودة الحروب الصليبية، مرورا بالرسوم المسيئة إلى النبي ﷺ، وانتهاء بتصريحات السياسيين في دول أخرى كفرنسا التي أخذ الإسلام ينتشر فيها انتشار المسك في الهواء منذ الثمانينيات، وصرح كثير من سياسيي فرنسا بمخاوفهم من هذا الإقبال العجيب على اعتناق الفرنسيين له، وأجريت بحوث إحصائية توقعت أن تصبح نسبة المسلمين في فرنسا عام ٢٠٣٠ مئة في المئة!

أخطاء النبي محمد ﷺ

بين الرأي والوحي

نتناول في هذا الفصل أخطاء النبي محمد ﷺ ونناقشها بين الشريعة التي جاء بها (الوحي)، وبين آرائه الشخصية الصادرة عن رؤيته البشرية في حدود المعارف الحياتية والاجتماعية، ونبحث مدى تطابق أحداثها مع قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ۞﴾[١٦٩].

وعلى غير ما تعاملنا مع أخطاء الأنبياء السابقين، حيث اكتفينا بإثبات ما جاء في الوحي من قصصهم وأخطائهم، فإننا مع نبينا محمد ﷺ سنتناول أخطاءه من مصدرين؛ الوحي، والتاريخ، وسنَفصِل الأخطاء الناشئة من الرأي في أمور الدنيا عن الأخطاء المتعلقة بالدين والمرتبطة بالوحي.

لم تحظَ سيرة شخصية بما حظيت به سيرة النبي محمد ﷺ من العناية، وذلك لأهميتها وارتباطها بالدين ارتباطاً وثيقة، إذ صنف تحت مسمى «السُّنّة» «كلُّ قَولٍ أو فِعلٍ أو تقريرٍ صدر عنه ﷺ»، فهي جزء من الدين، لأنها الممارسة العملية التي يتجلى فيها التشريع النظري (القرآن الكريم والحديث الشريف)، وقد أكد ذلك قوله ﷺ: ﴿من رغب عن سُنَّتي فليس مني﴾[١٧٠]، وفي هذا تأكيد أن سنة الصحابة رضي الله عنهم، أو سنة آل البيت عليهم السلام لا تغني عن سنّته ﷺ، إلا ما أقرّه في قوله: ﴿عليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيّينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ﴾[١٧١]،

---

[١٦٩] سورة النجم: ٣-٥.
[١٧٠] صحيح البخاري، برقم ٥٠٦٣.
[١٧١] سنن الترمذي، برقم ٢٦٧٦.

والمعروف أن الخلفاء الراشدين المهديين خمسة، كما صنفهم السيوطي رحمه الله، وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والحسن بن علي، رضي الله عنهم أجمعين. فسنّتهم تبع لسنّته ﷺ متممة لها، ولكن ماذا إن تعارضت السنّتان؟ لن تتعارضا؛ لأنه لا سُنّة لأحدٍ تلغي سنته ﷺ، وقد كان الخلفاء الراشدون والصحابة عامة إذا طرأ طارئ فأول ما يبحثون فيه كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فحين خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام لقيه أمراء الأجناد، أبو عبيدة ابن الجراح وأصحابه رضي الله عنهم، قبل أن يدخل، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام. فقال عمر لابن عباس: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا. ثم دعا الأنصار فاستشارهم فقالوا نرى أن ترجع بالناس. فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً في بعض حاجاته، فقال: إن عندي في هذا علماً؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه﴾[١٧٢] فحمد اللهَ عمرُ ثم انصرف بالمسلمين. ولا ريب أن مثل هذه الأحداث تطعن في دين من يهجر سنة النبي ﷺ ليستن بسنة صحابي أو سليل بيت النبوة أو شيخ. فكان للسنة الشريفة مكانها من الدين والدنيا، ولذلك لقيت ما لقيت من الاعتناء بها توثيقاً من القدماء لأهميتها، وتحقيقاً من المعاصرين لصيانتها،

---

[١٧٢] صحيح البخاري، ٥٧٢٩.

وتدقيقاً من أعداء الإسلام بحثاً عن ثغرات فيها.

فإذا أردنا أن نبحث في أخطاء النبي ﷺ فعلينا أولاً أن نفصِل بين ما هو ديني وما هو دنيوي، لتتبيّن لنا مواضع الخلل من مواضع التهمة، ثم نفرّق في الجانب الديني بين الوحي والرأي، لتكون الأمور أجلى.

الأخطاء في الدين

١- الأخطاء في الوحي:

لم تثبت الأيام منذ بعثته ﷺ إلى يومنا هذا حدوث خطأ مما ورد في الوحي، أو حصول أمر بخلاف ما نزل، بدءاً من قوله تعالى ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾[١٧٣] مروراً ببشارة ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ...﴾[١٧٤]، إلى تحديده مصارع الكفار في قبل معركة بدر، إلى ضربه الصخرة التي عرضت في الخندق، ﴿فجاء ﷺ فأخذ المِعْوَلَ فقال: بسمِ اللهِ، فضرب ضربةً فكسر ثُلُثَها، وقال: اللهُ أكبرُ أُعْطِيتُ مَفاتيحَ الشامِ، واللهِ إني لَأُبْصِرُ قصورَها الحُمْرَ الساعةَ، ثم ضرب الثانيةَ فقطع الثلُثَ الآخَرَ فقال: اللهُ أكبرُ، أُعْطِيتُ مفاتيحَ فارسٍ، واللهِ إني لَأُبْصِرُ قصرَ المدائنِ أبيضَ، ثم ضرب الثالثةَ وقال: بسمِ اللهِ، فقطع بَقِيَّةَ الحَجَرِ فقال: اللهُ أكبرُ أُعْطِيتُ مَفاتيحَ اليَمَنِ، واللهِ إني لَأُبْصِرُ أبوابَ صنعاءَ من مكاني هذا الساعةَ﴾[١٧٥]،

---

[١٧٣] سورة الروم: ٢.

[١٧٤] المصدر نفسه: ٢، ٣.

[١٧٥] فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، ج٧، ص٤٥٨.

إلى وصفه أحداث معركة مؤتة وقتل القادة الثلاثة زيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة، حيث أخذ الراية وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، حتى حاد حيدة ثم قال:

أقسمتُ يا نفسُ لتنزِلِنَّهْ   إن أجلب الناس وشدوا الرّنّهْ

كارهة أو لتطاوعِنّهْ   مالي أراك تكرهين الجنّهْ

﴿فرأيتُ في سريرِ عبدِ اللهِ بنِ رواحةَ ازورارًا عن سريريْ صاحبيْهِ، فقلتُ عمَّ هذا؟ فقيل لي مَضَيَا وتردَّدَ عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ بعضَ التردُّدِ ثم مضى﴾[١٧٦]، ثم إخباره بالفتن التي حدثت بين الصحابة ﴿فإنِّي لَأَرَى الفِتَنَ تَقَعُ خِلالَ بُيُوتِكُمْ كَوَقْعِ القَطْرِ﴾[١٧٧] ووصف طريقة قتل علي رضي الله عنه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ، فجاء عليّ فسلّم، فأقعده رسول الله إلى جنبه، فقال: ﴿يا علي، مَن أشْقى الأوَّلينَ؟ قلْتُ: عاقِرُ النَّاقةِ، قال: صَدَقْتَ، فمَن أشْقى الآخِرينَ؟ قلْتُ: لا عِلْمَ لي يا رسولَ اللهِ، قال: الَّذي يَضرِبُك على هذه، وأشار إلى يافُوخِه﴾[١٧٨]، وفي رواية ﴿فأهوى بيده إلى لحية عليّ، فقال: يا علي الذي يخضب هذه من هذا، ووضع يده على قرنه﴾، قال أبو هريرة: «فوالله ما أخطأ (القاتل) الموضع الذي وضع رسول الله يده عليه». إذ ضربه ابن ملجم بالسيف على قرنه فسال الدم وخضب لحيته. وإخباره بالظعينة التي أرسل معها

---

[١٧٦] البداية والنهاية، لابن كثير، ج٤، ص٢٤٥.

[١٧٧] صحيح البخاري، برقم ٧٠٦٠.

[١٧٨] إتحاف الخيرة المهرة، للبوصيري، ج٧، ص٢١٧.

حاطب بن أبي بلتعة كتاباً ينذر قريشاً فيه، وإخباره سراقة بن مالك بأنه يلبس سواري كسرى، وقوله لجبل أحد حين صعِدَه هو وأبو بَكْرٍ وعمرُ وعثمانُ فرجفَ بِهِم: ﴿اثبت أُحُدُ فإنَّما عليكَ نبيٌّ وصدِّيقٌ وشَهيدانِ﴾[١٧٩]، فكان كما أخبر، إذ مات أبو بكر الصديق رضي الله عنه على فراشه، واستشهد عمر وعثمان رضي الله عنهما، ثم إخباره بتولي المروانيين الحكم، ثم بني العباس، ثم النبوءات التي ما زلنا نشهدها تباعاً والتي لم نشهدها وستحصل لا محالة. فلم يرد أي خطأ في ما جاء به الوحي. وطالما أنه لم يحدث خطأ في ما نزل من وحي، فإننا نعلن خروجنا من هذا الباب دون أن نجد أخطاء.

٢- الأخطاء في الرأي:

نقصد بذلك الرأي في الأمور الدينية (التشريع)، فالنبي ﷺ حامل رسالة الله وناقل تشريعه إلى الخلق، والله سبحانه لم ينزل الشريعة دفعة واحدة، وإلا لاختلطت على الناس وشغلتهم عن حياتهم وزراعتهم وتجارتهم، لكنه سبحانه نزلها تدريجياً، وكي لا يلتبس الفهم على أحد جعل سبحانه لكل حكم دواعيه مما سمي «أسباب النزول»، ولا شك أن ربط أي معلومة بحادثة معينة له أربع ثمرات: الأولى فهم الحكم تماماً واستيعابه، والثانية وَعيُ الحكمة منه، والثالثة حفظه للرجوع إليه عند الحاجة، والرابعة عدم

---

[١٧٩] صحيح البخاري، برقم ٣٦٧٥.

التباسه على الناس، فلا يُظن الحكم على غير وجهه ووجه مسألته، ولا يُحكم به في مسألة أخرى ليست في بابه، بناء على فهم قاصر أو جهل أو هوى. لكن إذا لم ينزل الوحي بتشريع مسألة فهل يبدي النبي ﷺ فيها رأيه، أو يستنبط لها حكماً من فكره؟ فمثلاً السهو في الصلاة، أو النسيان في صيام الفرض وفي صيام التطوع، أو تقديم واجب في الصلاة على ركن، وغير ذلك من الأحكام التعبدية أو الحياتية؟ وهل يأتي رأيه صواباً أم خطأ؟ وما موقع الآيات الكريمة ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[١٨٠]، في هذا الباب؟

﴿جاء رَجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: يا نبيَّ اللهِ، إنِّي أخَذتُ امرأةً في البُستانِ، ففَعَلتُ بها كلَّ شيءٍ غيرَ أنِّي لم أُجامِعْها؛ قَبَّلْتُها ولَزِمتُها، ولم أفعَلْ غيرَ ذلك، فافعَلْ بي ما شِئتَ، فلم يَقُلْ له رسولُ اللهِ ﷺ شيئًا، فذَهَبَ الرَّجُلُ، فقال عُمَرُ: لقد سَتَرَ اللهُ عليه لو سَتَرَ على نفْسِه، قال: فأتبَعَه رسولُ اللهِ ﷺ بَصرَه، فقال: رُدُّوه علَيَّ، فرَدُّوه عليه، فقَرَأَ عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ إلى: ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾[١٨١]، فقال مُعاذُ بنُ جَبلٍ: ألَه وَحدَه أم للنَّاسِ كافَّةً يا نَبيَّ اللهِ؟ فقال: بل للنَّاسِ كافَّةً ﴾[١٨٢]. فالرجل جاء معترفاً بخطيئة ارتكبها وأثقله عبء الإثم، فجاء يطلب التطهر مسلّماً نفسه للشرع لتحديد العقوبة. وهو ذنب لم ينزل وحي

---

[١٨٠] سورة النجم: ٣-٥.

[١٨١] سورة هود: ١١٤.

[١٨٢] صحيح البخاري، برقم ٥٢٦.

بتشريع حد على مرتكبه، فهل يجتهد النبي ﷺ بتقرير حد، ولو كان شيئاً من صيام أو صدقة، أو تعزيراً؟ هذا ليس من شأنه ﷺ، فالتشريع لله، ومهمة النبي البلاغ وإقامة الشرع، لذلك سكت ﷺ وكأنه يقول له: لا شيء لك عندي! هكذا بكل بساطة، لا شيء، ليس عندي تشريع يناسب حالتك. فذهب الرجل، فنزلت الآية: ﴿إِنَّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾. فقال: ﴿رُدُّوه علَيَّ﴾.

يوضح لنا هذا الموقف وأمثاله أن التشريع لم يكن بيد النبي ﷺ ولا يحق له إيجاد تشريع ولو لحال طارئة، وإنما ينتظر أمر الله سبحانه.

ومثل ذلك ما كان في أمر الجلاس وربيبه، حيث لم يحكم ﷺ، ولو حكم لما رد حكمه أحد، لكنه انتظر حكم الله، وكذلك في قصة المجادلة خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت، إذ غضب عليها فقال لها: أنت عليَّ كظهر أمي. وكان الإيلاء والظهار من الطلاق في الجاهلية، فسألت النبي ﷺ فقال لها: حرمت عليه. فقالت: يا رسول الله، قد نسخ الله سنن الجاهلية، وإن زوجي ظاهر مني، فقال ﷺ: ما أوحيَ إليَّ في هذا شيء. فقالت: يا رسول الله، أوحي إليك في كل شيء وطُوي عنك هذا؟! فقال: هو ما قلت لك. فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسوله. فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[١٨٣]، فهنا صرّح النبي ﷺ بكل وضوح: ﴿ما أوحي إلي في هذا

---

[١٨٣] سورة المجادلة: ١.

شيء﴾، فلم يجتهد ولم يقل برأيه، حتى نزل عليه الوحي بالحكم. ثم حادثة الإفك على أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، فقد أجرى التحقيق واستمع لكلام الشهود الذي يرجح براءتها، لكنها شهادات لم تكن حاسمة، وكانت عائشة أحب الناس إليه، لكن ذلك لم يدفعه إلى الاكتفاء بشهادة من شهد بأنها لا يمكن أن تقع في هذا الجرم فيدرأ الحد حباً بها، أو يقبل إفك ابن سلول فيوقع الحد انتقاماً، وهو يعلم أن الله يحفظ الأنبياء في نسائهم حتى لو كن عاصيات لهم أو كافرات بهم، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾[١٨٤]، فلم تكن الخيانة في نفسيهما وإنما في دينهما؛ فامرأة نوح كانت تخبر أنه مجنون، وامرأة لوط دلت قومها على ضيوفه، وهل من إثبات بعد استنباط عمر رضي الله عنه، حين استشاره النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله من زوجكها؟ قال الله، فقال عمر: أفتظن أن الله دلس عليك؟ فكان الأمر لديه واضحاً، لكنه مع ذلك انتظر حتى نزل الوحي بتبرئتها. فالنبي ﷺ في الأمور الدينية يقف بلا رأي ولا اجتهاد حتى ينزل الوحي، فهو مبلّغ لا مشرع.

وهكذا نجد أنه لم يكن له ﷺ رأي في الدين أو التشريع إلا بوحي، وبذلك نكون قد خرجنا من الأمور الدينية إلى الأمور الدنيوية.

---

[١٨٤] سورة التحريم: ١٠.

هل كانت إباحة المتعة قبل تحريمها خطأ في الرأي

تقول القاعدة الشرعية: الأصل في الأشياء الإباحة، ما لم ينزل وحي بالتحريم. وقد أنزل الله تعالى تفصيل المحرمات من النساء في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[١٨٥]، وقبل الإسلام تعددت أنواع الزواج في المجتمع، فنزل تحريم بعضها، مثل زواج المقت الذي حرم في الآية ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾، ولحق به الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها، وكانوا يرثون النساء، فإذا مات الرجل وله زوجة ورثها ابنه، إن شاء زوجها لغيره وإن شاء تزوجها هو إن لم تكن أمه، فلما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً﴾[١٨٦]، ونوع آخر من الزواج هو الشغار (البدل)، وهو أن يتفق اثنان على أن يزوج كل منهما الآخر أخته أو ابنته أو عمته أو خالته أو ابنة أخيه، وقد حرمه الله تعالى: ﴿عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

١٨٥ سورة النساء: ٢٣.

١٨٦ سورة النساء: ١٩.

نَهَى عَنْ الشِّغَارِ﴾[١٨٧]. وفي يوم فتح مكة سأل الناس النبي ﷺ عن زواج المتعة، ولم يكن قد نزل عليه تحريمه، فأذن لهم به، ليس عن رأيه وإنما عن قاعدة الأصل في الأشياء الإباحة، ثم نزل الوحي بتحريمه، فقال ﷺ: ﴿يا أيُّها النَّاسُ، إنِّي قدْ كُنْتُ أذِنْتُ لَكُمْ في الاسْتِمْتاعِ مِنَ النِّساءِ، وإنَّ اللَّهَ قدْ حَرَّمَ ذلكَ إلى يَومِ القِيامَةِ، فمَن كانَ عِنْدَهُ منهنَّ شيءٌ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ، ولا تَأْخُذُوا ممَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شيئًا﴾[١٨٨]. هذا كل شيء، فلم يقل برأيه، وقد كان لديهم أنواع أخرى من الزواج، من نكاح بغي واستبضاع، فحرمها الله تعالى كلها إلا نكاح البعولة، الذي ينشأ بالخطبة والمهر والعقد والولي والشاهدين ونية الاستدامة، وهو ما يسمى «الزواج الشرعي»، وهو الذي منه النسل الصحيح للأنساب.

أخطاء النبي ﷺ بالرأي في أمور الدنيا

الرأي: الفكرة، والمشورة، والاعتقاد. والرأي يصدر عن الإنسان لترجيح الصواب مستنداً إلى مكونات الرأي، من ثقافته الخاصة من مسموعات ومشاهدات وتجارب، أو العامة من أعراف مجتمعه، أو بحساب الأمور منطقياً، أو قياسها إلى غيرها، فإن استند إلى شيء ثابت أصاب، وإن لم يستند إلى المكونات، أو كان نتيجة قياس غير متوافق الأطراف في

---

[١٨٧] صحيح البخاري، برقم ٥١١٢.

[١٨٨] صحيح مسلم، برقم ١٤٠٦.

المقارنة، كقياس ما ينفع مع الطفل على الشيخ، أو قياس شاذ على عام كقياس النخل إلى عموم النباتات، فقد يصيب وقد يخطئ.
والنبي ﷺ بشر مثلنا، امتاز علينا بالوحي، فإذا انقطع عنه الوحي عاد مثلنا، فإذا أدلى برأي فقد يخطئ وقد يصيب، لأنه يقيس الأمور بظواهرها لا بما خفي عليه منها، فإذا نزل الوحي جاء بالحقائق الخفية فانجلى الظن باليقين، وقد أكد ﷺ ذلك في حديث سبق أن ذكرناه ﴿ إِنَّمَا أَنَا بشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ؛ فَأَقْضِي لَهُ بِنحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ﴾[١٨٩]، وهذا ما يؤكد ضلال الفكرة التي جاء بها دعاة التنوير من أن الأنبياء ذوو ذكاء مفرط بحيث لا يصدر عنهم خطأ، يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله: «ورأينا كيف يكتب الشيخ محمد عبده فيقول: قد يُعَرَّف النبي بإنسانٍ فُطر على الحق علماً وعملاً، أي بحيث لا يعلم إلا حقاً على مقتضى الحكمة وذلك يكون بالفطرة، أي لا يحتاج فيه إلى الفكر والنظر. فإن فُطِر أيضاً على دعوة بني نوعه إلى ما جبل عليه فهو رسول أيضاً»[١٩٠]!

أهذه صفات النبي والرسول؟ فأين صفة ﴿يوحى إلي﴾؟ فلو دققنا في ما نقل الشيخ البوطي من كلام محمد عبده لوجدناه يصف فيه فيلسوفاً حكيماً، أو رجلاً ذكياً استطاع تأسيس هيكلية معينة أو منهاجاً تشريعياً يشبه

---

[١٨٩] سبق تخريجه برقم ٩٧.

[١٩٠] كبرى اليقينيات الكونية، لمحمد سعيد رمضان البوطي، ص ٢٢١.

الأنظمة الداخلية للأحزاب والتيارات، ثم دعا الآخرين إلى اعتناق فكرته، فهكذا فعل ماني وزرداشت ومزدك وماركس وغيرهم، فالنبي - عند محمد عبده - ليس من يوحى إليه، والرسول ليس من كلفه الله بتبليغ رسالة. أي هراء هذا؟ هذا يساند مزاعم الغربيين بأن محمداً ﷺ مصلح اجتماعي فذٌّ ومفكر صاحب ذكاء خارق وبُعد نظر وقدرة قيادية مميزة، لكي يتهربوا من الصفة العظمى وهي أنه «نبي رسول» فهذا دأب أعداء الإسلام وأعداء نبيه ﷺ، فماذا عن حاملي لواء الإسلام المتصدرين واجهته من المتنورين الذي بوأهم الاحتلال البريطاني سدة الأزهر والمراكز الإعلامية؟

يقول الشيخ البوطي رحمه الله: «ورأينا كيف أخذت تروج صفة (العبقرية) و(العظمة) و(القيادة) وما شاكلها، للنبي ﷺ تعويضاً عن صفات النبوة والوحي والرسالة، وتغطية لها وإبعاداً للفكر عنها»[١٩١].

فأعداء الإسلام يقرون له بكل هذه الصفات ويعترفون بإنجازاته الفكرية والأخلاقية، وهذا ما جعل مايكل هارت اليهودي الأمريكي يصنفه الرجل الأول على المئة الذين نفعوا البشرية، وجعل الفيلسوف جورج برنارد شو يقول: «لو كان محمد حياً لحل مشكلات العالم وهو يحتسي فنجان قهوة»، ودفع ماركس ليقول: «هذا النبي افتتح برسالته عصراً للعلم والنور والمعرفة، حري أن تدون أقواله وأفعاله بطريقة علمية خاصة، وبما أن هذه التعاليم التي قام بها هي وحي فقد كان عليه أن يمحو ما كان متراكماً

[١٩١] المصدر السابق، الصفحات التي تليها.

من الرسالات السابقة من التبديل والتحوير»، والأديب الروسي تولستوي ليقول: «أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه، وليكون هو أيضا آخر الأنبياء». قالوا ذلك ولم يتبعوا دينه، لأنهم يعدونه مصلحاً حكيماً لا نبياً يوحى إليه، وقائداً فذاً لا رسولاً، والحقيقة التي أقولها مؤمناً بها، وإن أثارت سخط بعض التيارات، إن النبي محمداً ﷺ لولا النبوة ولولا الوحي لم يكن أفضل من غيره من أمثاله، وهو ذكي ذكاء بشرياً نادراً لكنه ليس ذكاء خارقاً، ولديه مؤهلات قيادية مثل كثير من الخلق، إلا أنها لا تؤهله ليبتكر عقيدة ويضع تشريعاً يضمّنه في كتاب معجز في بلاغته ونظامه وصحة أخباره ودقة حقائقه العلمية، ويضع نظاماً اقتصادياً يقوم على تحريم الربا وفرض الزكاة والحث على الصدقات ليلغي الفقر من العالم في عام واحد، ونظاماً اجتماعياً فصّل في كل مسائل الأحوال الشخصية، ودستوراً نظم العلاقات الدولية، وغير ذلك مما جاء به ورسخه مما لو اجتمع آلاف الحكماء عبر آلاف السنين لا يضعون مثله، ولولا الوحي لفشل في كثير من النواحي في دعوته، ولولا الرعاية الإلهية والحفظ والعصمة لقتله الأربعون شاباً الذين باتوا ليلتهم على بابه، أو لقتله سراقة بن مالك، أو لقتله عمير بن وهب بسيفه المسموم، أو لقتله اليهود بإلقاء الصخرة عليه، أو لقتلته أكلة خيبر، وقد جمع كثيراً من مثل هذه الأخبار في كتب «دلائل النبوة»، علماءُ قدماء كالبيهقي والأصبهاني وابن تيمية، ومن المعاصرين سعيد باشنفر، وكتب «معجزات النبي ﷺ» كابن كثير، ومن المعاصرين ابن

خليفة عليوي، ومحمد متولي الشعراوي، ومسعد حسين محمد، ومصطفى مراد.

وقد سمعت أحدهم يقول متعجباً: كم هو رجل عظيم نبينا محمد ﷺ! كيف استطاع في أعوام قليلة جمع أناس من قبائل عدة وشعوب متنوعة وديانات مختلفة، على دين واحد وعقيدة واحدة ونظام موحد يحافظ عليه الجميع، بعد أن كانوا متنافرين متناحرين بينهم عداوات وثارات وتِرات؟ فقلت له: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١٩٢]، فالفعل لله سبحانه لا للأنبياء، فالنبي بغير النبوة لا يختلف عن بني جنسه إلا بمواهب الله له، ولم يكن النبي ﷺ من دون النبوة ليزيد على أمثال أبي بكر وعمر وعلي وأمثالهم ممن جُمِعَ لهم العبقرية والصلاح من بين البشر ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١٩٣]، لذلك فهو ﷺ في أمور الدين لا يفتي برأي، لأن الرأي البشري قاصر أمام التشريع الإلهي من جهة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[١٩٤]، ولأن ذلك ليس من حقه، من جهة أخرى. أما في أمور الدنيا فقد يخطئ وقد يصيب بحسب توافر مكونات الرأي الصادر عنه، فما صدر عن خبرة يختلف عما صدر

[١٩٢] سورة الأنفال: ٦٢-٦٣.
[١٩٣] سورة يونس: ١٦.
[١٩٤] سورة يوسف: ٧٦.

عن ظن مجرد، وما كانت معطياته خادعة يلبَّس على من يأخذ بالظاهر: ﴿وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ؛ فأَقْضِي لَهُ بِنحْوِ مَا أَسْمَعُ﴾[١٩٥]، فهو ﷺ ليس إلهاً فينزَّه عن الخطأ البشري الممكن في حياته كما في حياة غيره، من دون الوحي والتوجيه الإلهي، وليس نصف إله كما تزعم الأساطير اليونانية في أبطالها لتمنحهم قدرات خارقة فوق إمكانات البشر، فالخطأ وارد منه ﷺ في الأمور الخاصة بالدنيا إذا لم يستند إلى مكوّنات الرأي التي ذكرناها، وقد يكون أصل هذا الخطأ صواباً من جهة القيم التي يحملها المرء، لكنه خطأ في مفهوم المصلحة الخاصة، فمن يشعل المصباح على بابه طوال الليل ليضيء للمارة تصرّفُه صحيح في منظور القيم الإنسانية، لكنه خطأ في منظور المصلحة الشخصية، فهو يتكبد خسارة في ما لا يعود عليه بالنفع. ومثل ذلك ما كان من اختيار النبي ﷺ موضع المعركة في موقع بدر، وقد يكون هذا الخطأ من باب القياس الخاطئ لظواهر الأمور على عمومها، فقد تعلم أن محدّثك كاذب ولكنك مضطر إلى تصديقه إذا حلف بالله، لقول النبي ﷺ: ﴿مَنْ حلَفَ باللهِ فلْيصدُقْ، ومَنْ حُلِفَ لهُ باللهِ فلْيرْضَ، ومَنْ لمْ يرْضَ باللهِ فليسَ من اللهِ﴾[١٩٦]، فهناك قيم ذهنية، منها أنه لا يمكن أن يحلف أحد بالله فيكذب، لذلك كان بعض الصحابة قد رأى بعينه أمراً فلما حُلف له بغير ما رأى قال: «آمنت بالله وكذّبت عيني»! وقد يكون القياس في الرأي صحيحاً في مبدئه، لكنه خطأ

[١٩٥] سبق تخريجه برقم ٩٧.
[١٩٦] سنن ابن ماجه، برقم ١٧٢١.

في تعميمه، فالشاذ لا يقاس عليه ولا يقاس هو على العام، ومثل ذلك ما حصل في لقاء الإمامين جعفر الصادق رضي الله عنه وأبي حنيفة رحمه الله، إذ قال له: أأنت الذي تقيس؟ قال نعم. قال: هل قست رأسك؟ ماء عينك مالح وماء فيك عذب وماء أذنك مر؟ وكلها تخرج من الرأس. ومثل ذلك كان موضوع تأبير النخل.

١- قصة تأبير النخل:

لم يكن القرشيون أهل زراعة، فمكة المكرمة كما وصفها إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[١٩٧]، لذلك كان أهلها أهل تجارة ورعي، وحين هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنورة كانت أرضها خصبة، وأهلها يعملون في الزراعة، ولهم بساتين نخل وغيره مما يزرع في ظله، لذلك لم يكن للنبي ﷺ معرفة بطرق الزراعة وأساليب العناية بها، فلما رآهم يصعدون إلى النخل لتأبيره (تلقيحه) أخذه العجب، فعَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِقَوْمٍ عَلَى رُؤوسِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ»؟ فَقَالُوا: يُلَقِّحُونَه، يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيَلْقَحُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئاً». قَالَ فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ فَقَالَ: « إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ، فَإِنِّي إِنَّمَا

[١٩٧] سورة إبراهيم: ٣٧.

ظَنَنْتُ ظَنّاً، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللهِ شَيْئاً فَخُذُوا بِهِ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴾[١٩٨].

وفي رواية أخرى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾[١٩٩]. فقوله ﷺ يؤكد ما ذكرناه آنفاً من أنه في الأمور المتعلقة بالدين لا يخطئ مطلقاً، أما في الرأي الشخصي (خارج إطار الوحي) فرأيه صادر عن بشريته، فقد يخطئ وقد يصيب، ولا يفوتنا لفظه ﷺ ﴿مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئاً﴾ فقد بنى رأيه على ظن لا على حُكم، والله تعالى يقول ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[٢٠٠]، فلم يكن قوله ﷺ نهياً لهم عن فعله، وإنما كان مجرد ظن طرأ ارتجالاً أثناء مروره بالقوم في كلامه مع طلحة تعليقا على الإجابة، ولم يَبْنِ ظنه على سابق علم أو معرفة، والدليل أنه سأل: «ما يصنع هؤلاء؟» فلم يكن لديه علم به، بل إن سؤاله كان استفهاماً تعجبياً، فلما أخبر بالأمر قاسه على بقية المزروعات التي تلقح بالرياح وبالحشرات، فظن أنه لا يغني، والظن قد يصيب وقد يخطئ، فثمة أشجار شذت عن الطريقة الطبيعية في التلقيح فلا بد من تدخل الفلاح، منها النخل، ومنها نوع من المشمش.

---

[١٩٨] صحيح مسلم، برقم ٢٣٦١.

[١٩٩] المصدر السابق، برقم ٢٣٦٢.

[٢٠٠] سورة يونس: ٣٦.

٢- اختيار موضع معركة بدر:

حين هاجر النبي ﷺ وأصحابه صادر القرشيون أموالهم وأملاكهم، كما أن بعضهم لم يتركوهم يخرجون من مكة إلا بعد أن دفعوا إليهم أموالهم المخبأة، مثل صهيب الرومي رضي الله عنه. فلما بلغ النبيَّ ﷺ قدوم قافلة من الشام بقيادة أبي سفيان، تحمل أموال قريش، ندب المسلمين لأخذها تعويضاً عن أموالهم التي صودرت في مكة، وكانت النية أن يحاصروا القافلة فيضطروا طاقمها إلى تسليمها والنجاة بأنفسهم، من دون إراقة دم، فلما بلغ أبا سفيان خروجهم أرسل إلى قريش فخرجوا بجيش لحماية أموالهم، ثم انحرف بالقافلة إلى طريق أخرى فنجت، ولكن قريشاً أصروا على الحرب، ولم يكن النبي ﷺ قد خاض معركة قط قبل ذلك، فلم تكن له خبرة في رسم الخطط الحربية ولا اختيار موقع المعركة ولا تنظيم الجيش، فكيف به وقد وجد نفسه ملزماً قيادة المعركة الأولى في حياته لا مناص، بلا سابقة إعداد ولا تخطيط ولا تدريب؟ ولم يأته وحي بخطة، فلم يكن في يده إلا شجاعته وشجاعة القلة من أصحابه وما وهبه الله من قدرات ذهنية وعقلية ورأي، فوضع خطة ذكية تجلت في اختيار موقع المعركة بما يخدمه، ولأن الماء هو الحياة فقد أسعفه تفكيره بأن ينزل بجيشه الصغير عند آبار بدر فيشرب جيشه منها في هذه الصحراء، فسار بهم حتى نزل عند أدنى ماء من مياه بدر، وكانت عدداً من الآبار المتباعدة، ولم يفكر ﷺ في منع الماء عن جيش العدو، فأصحاب النفوس الزكية والقلوب الخيّرة

الرحيمة لا تطرأ لهم مثل هذه الفِكَر ولا تخطر في بالهم، والنبي ﷺ لم يعتد المنع، لم يعتد أن يحرم أحداً شيئاً ممكناً، فكيف بالمبذول؟ فقال الحباب بن المنذر رضي الله عنه: يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل؟ أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال: فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فننزله ونغوّر ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتلهم، فنشرب ولا يشربون. فالاختلاف في اختيار الموضعين هو فقط هذه النقطة «نشرب ولا يشربون» ولم يكن مثل هذا الأمر ليتبادر إلى ذهن نبي الرحمة ﷺ. ففي أول تجربة قيادية وحربية له ﷺ اتخذ أهم تدبير يدل على الذكاء الفطري الذي لم يعتمد على تجارب سابقة، وهو اختيار موقع المعركة بما يخدم جيشه، ولم يترك الاختيار للعدو، وهذا الأمر كان سبباً في تحقق النصر للمسلمين في بدر ومعارك كثيرة خلال عصور التاريخ الإسلامي، منها معركة عين جالوت التي هزم فيها المغول، فقد أصر بيبرس على اختيار موقع المعركة بما يخدم جيشه وانتظار قدوم المغول، فكان ذلك أساساً لنجاح بقية الخطة. فاختار النبي ﷺ الموقع المناسب بجانب آبار الماء، وهو أحوج ما يحتاج إليه الجيش من مادة الحياة، وهذا دليل على ذهن متوقد وعقل راجح أغنياه عن التجارب والخبرات. فحين لم ينزل الوحي اعتمد الرأي البشري الارتجالي على الاختيار الذكي في إطار ذهنيته السامية التي ترى أن يشرب، ولم تدفعه إلى التفكير في أن يمنع

غيره من الشرب، فجاءت المشورة بتغيير الموضع لا الموقع، فقط لكي يمنعوا الكفار من الماء، وهذا من أسلحة الحرب التي توهن عزائم العدو وتنهك أجسادهم، فأخذ بها ﷺ، وما تأخر الوحي يومها ولا قدر الله على نبيه ﷺ أن يختار هذا الموضع، إلا لترسيخ مبدأ الشورى وتعليمنا أننا يجب أن نعمل عقولنا في الأمور غير التشريعية ونستعين بعقول غيرنا حتى نستنفد حيلتنا، وأن نتعامل مع العدو في الحرب بما أمكن من أحكام العداوة، وأن هذه أمور دنيا يجب فيها الاعتماد على الخبرات وتقليب الرأي على أكثر من وجه وحسن التدبير والأخذ بالأسباب المؤدية إلى النجاح، لأن قدر الأمة أن تمضي في الجهاد بعد وفاة نبيها ﷺ وانقطاع الوحي، فماذا يفعلون وقتها؟ فكان ذلك درساً عظيماً. أما بعد نزول الوحي فقد اختلف الأمر، قَالَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بِالْأَمْسِ، يَقُولُ: ﴿هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَداً، إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾[٢٠١]، قَالَ عُمَرُ : فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطؤوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»، فحين انتهت المعركة وجدوا أن كلاً من الكفار قتل في المكان الذي حدده ﷺ قبل المعركة، حتى قيل إن أحدهم طُعن وسقط في غير المكان الذي أشار إليه ﷺ، فزحف حتى بلغ المكان المحدد فمات فيه.

فإن عُدَّ اختياره الموضع من الموقع خطأ فهو خطأ الرحمة وسمو الخلق الذي طالما استغلّه الأشرار في الخيّرين، هو خطأ النفس الكريمة التي لا

---

[٢٠١] صحيح مسلم، برقم ٢٨٧٣.

تفكر في حرمان أحد من نعمة مبذولة وإن كان عدواً، والنبي ﷺ هو القائل: ﴿ثلاثٌ لا يُمنَعْنَ: الماءُ، والكلأُ، والنَّارُ﴾[٢٠٢]، ولو اختار ذلك الموضع بنفسه لخالف فعلُه قولَه، لكن حين صار الأمر رأياً صادراً عن شورى تبعه بلا نقاش، فهي الحرب، ولها قوانينها الخاصة. ويا ترى لو أنه ﷺ اختار الموضع الذي اختاره الحباب، وقال «نشرب ولا يشربون» ألا يخرج علينا مدّعو الأخطاء في سيرته ليقولوا: أين الرحمة للعالمين؟ وأين العدل في الحرب والسلم؟ ألا يخلّ منع الجيش المقابل من الماء واحتكارك له بعدالة النزال وشرف البطولة؟

بلى سيقولون، وسيقولون أيضاً إنه أخطأ بمنع الماء وهو الذي حرم منعه من قبل، وسيزعمون بأنه يشرع وفقاً لهواه، فيحرّم ويحلّ بما تقتضيه مصلحته، لكن الله خيبهم، فقدر له اختياراً لا يَصِمُه، وألزمه الشورى.

---

[٢٠٢] سنن ابن ماجه، برقم ٢٤٧٣.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾

أين مدلول هاتين الآيتين في ما سبق عرضه؟ أليس المفترض مع وجود هذا النص أن يكون أمره الناس بالنزول عند أدنى آبار بدر، وتشكيكه ﷺ بأن التلقيح لا يغني، أتياً من وحي يوحى، طالما أن الآية نفت نطقه عن الهوى؟ قبل كل شيء علينا أن نميز بين الهوى والرأي والظن.

ما الهوى؟ «هَوى النفسِ: إرادتها، والجمع الأَهْواء. وفي التهذيب: قال اللغويون الهَوَى محبةُ الإنسان الشيء وغَلَبَتُه على قلبه؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[٢٠٣]؛ معناه نَهاها عن شَهَواتِها وما تدعو إليه من المعاصي»[٢٠٤].

لقد وصف الله سبحانه نبيه ﷺ بأنه ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، أي أن التعاليم الدينية والتشريعية التي تصدر عنه والتوجيهات والإرشاد والأمر والنهي لا تصدر عنه لأنها أعجبته أو مالت نفسه إليها فأحلها، أو عافتها نفسه فحرمها، وإنما مصدر كل ذلك ﴿وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ من الله سبحانه.

ونأخذ مثالاً على ذلك تحريم أكل الحمر الإنسية، إذ لم ينزل تحريمها في القرآن الكريم، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾[٢٠٥] لكن النبي ﷺ حرمها في حديث مشهور يوم

---

[٢٠٣] سورة النازعات: ٤٠.
[٢٠٤] لسان العرب، لابن منظور.
[٢٠٥] سورة المائدة: ٣.

فتح خيبر، فعن أنس رضي الله عنه قال: ﴿لَمَّا فَتَحَ رَسولُ اللهِ ﷺ خَيْبَر، أَصَبْنَا حُمُرًا خَارِجًا مِنَ القَرْيَةِ، فَطَبَخْنَا منها، فَنَادَى مُنَادِي رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: أَلَا إنَّ اللَّهَ وَرَسوله يَنْهَيَانِكُمْ عَنْهَا، فإنَّهَا رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ، فَأُكْفِئَتِ القُدُورُ بما فِيهَا، وإنَّهَا لَتَفُورُ بما فِيهَا﴾[٢٠٦]. فهل حرمها لأن نفسه عافتها أو كرهتها؟ لنقرأ في المقابل ما جاء عن ابن عباس، قال: ﴿دَخَلْتُ أَنَا وَخَالِدُ بنُ الوَلِيدِ، مع رَسولِ اللهِ ﷺ بَيْتَ مَيْمُونَةَ، فَأُتِيَ بضَبٍّ مَحْنُوذٍ، فأهْوَى إلَيْهِ رَسولُ اللهِ ﷺ بيَدِهِ، فَقالَ بَعْضُ النِّسْوَةِ اللَّاتي في بَيْتِ مَيْمُونَةَ: أَخْبِرُوا رَسولَ اللهِ ﷺ بما يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَ، فَرَفَعَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ، فَقُلتُ: أَحَرَامٌ هو يا رَسولَ اللهِ؟ قالَ: لَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بأَرْضِ قَوْمِي فأجِدُنِي أَعَافُهُ. قالَ خَالِدٌ: فَاجْتَرَرْتُهُ فأكَلْتُهُ وَرَسولُ اللهِ ﷺ يَنْظُرُ﴾[٢٠٧]. فقد عافت نفسه ﷺ لحم الضب، لكنه لم يحرّمه موافقة لها، وإنما اكتفى بعدم أكله، أما الحمر الأنسية فقد حرمها، فالمسالة ليست مسألة هوى، وإنما هو ﴿وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

وقد يدّعي مدّعٍ أنه حرم الحمر لحاجة الناس إليها في ركوبهم وحمل أثقالهم، فنجيبه أوَ ليست الإبل والخيل مراكب لهم وتحمل أثقالهم وتحملهم أبعد مما تحملهم الحمر وأسرع؟ فلماذا لم تحرم لحوم الخيل والإبل؟ وعلى رغم قيمة الخيل وغلاء أثمانها وبركة تربيتها لم ينه ﷺ عن أكل لحمها! فالمعنى واضح في تحريم لحم الحمر في قوله: ﴿فإنها رجس﴾.

---

[٢٠٦] صحيح مسلم، برقم ١٩٤٠.

[٢٠٧] المصدر السابق، برقم ١٩٤٥.

لقد نفى الله سبحانه عن نبيه النطق عن الهوى، وأكد أنه (أي منطوقه) ﴿وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فهل ينطبق ذلك على عموم ما ينطقه ﷺ ليشمل الرأي والحديث اليومي؟ أي أنه إذا قال لإحدى زوجاته اطبخي لنا كذا؟ والجواب «لا» فالوحي خاص بالتشريع، ولا يأتي بالكلام اليومي وما يتعلق بأمور المعيشة والدنيا، إلا إذا كان في تلك الأمور محظور شرعي، أما إذا تضمن كلامه ﷺ تشريعاً فهو بوحي بلا ريب، مثال ذلك حين مر في السوق فقال للبائع: ﴿يا وزَّانُ زِن وأرجِحْ﴾[٢٠٨]، فهذا تشريع جاء بوحي، أما إذا سأل تاجراً بكم تبيع القمح؟ فذلك ليس بوحي. ومثال على ذلك ما جاء عن أنس بن مالك ﴿أنَّ رجلاً مِن أهلِ الباديةِ كان اسمُه زاهِراً وكان يُهدي إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الهَديَّةَ فيُجَهِّزُه رسولُ اللهِ ﷺ إذا أراد أن يخرُجَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّ زاهراً بادِيَتُنا ونحن حاضِروه، وكان النَّبيُّ ﷺ يُحِبُّه، وكان دَميماً، فأتى النَّبيُّ ﷺ يوماً وهو يبيعُ متاعَه، فاحتَضَنه مِن خَلفِه وهو لا يُبْصِرُه فقال أرْسِلْني مَن هذا؟ فالتفَت فعرَف النبي ﷺ فجعَل لا يَألو ما ألصَقَ ظَهرَه بصَدرِ النَّبيِّ ﷺ حينَ عرَفه، وجعَل النَّبيُّ ﷺ يقولُ: مَن يشتري العبدَ؟ فقال يا رسولَ اللهِ إذن تجِدَني كاسِداً، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لكنَّك عندَ اللهِ لَسْتَ بكاسِدٍ، أو قال عندَ اللهِ أنت غالٍ﴾[٢٠٩]، فالحادثة بدأت مزحةً مزحها النبي ﷺ مع صديقه، وفيها قوله: «من يشتري العبد»؟ فهذا كلام مداعبة لم يكذب النبي فيه؛ فكلنا عبيد لله،

---

[٢٠٨] صحيح ابن ماجه، برقم ١٨١٩.

[٢٠٩] مجمع الزوائد، للهيثمي، ج٩، ص٣٧١.

لكنه لم يكن بوحي، أما قوله ﷺ ﴿لكنَّك عندَ اللهِ لَسْتَ بكاسِدٍ﴾ فهو عن وحي بلا ريب، وإلا كان تألياً على الله تعالى، وهو ﷺ أبعد الخلق عن ذلك، يؤكد قوله الذي ذكرناه آنفاً: ﴿فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللهِ شَيْئاً فَخُذُوا بِهِ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾[٢١٠].

وبذلك نخلص إلى أنه ﷺ لا يخطئ في التشريع لأنه ﴿وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، ولا ينطق عن الهوى لا في تشريع ولا في غيره، فما لم يوافق هواه تركه ولم يحرّمه، ما لم ينزل بتحريمه وحي، وما وافق هواه إن كان حلالاً أخذه، وإن كان حراماً امتنع منه وأخبر بحرمته. فعَن أَبِي سَعِيدٍ الخُدرِي رضي الله عنه، قَالَ: ﴿جَاءَ بِلالٌ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَمْرٍ بَرْنِيٍّ، فَقَالَ له النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مِن أيْنَ هذا؟ قَالَ بِلالٌ: كانَ عِنْدَنَا تَمْرٌ رَدِيٌّ، فَبِعْتُ منه صَاعَيْنِ بصَاعٍ؛ لِنُطْعِمَ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِنْدَ ذلكَ: أَوَّهْ أَوَّهْ! عَيْنُ الرِّبَا، عَيْنُ الرِّبَا، لا تَفْعَلْ، ولَكِنْ إذَا أرَدْتَ أنْ تَشْتَرِيَ فَبِعِ التَّمْرَ ببَيْعٍ آخَرَ، ثُمَّ اشْتَرِهِ﴾[٢١١].

أما الخطأ في الرأي، فمع اتفاقنا على إمكان صدوره عنه ﷺ، فإننا لم نجد منه أثراً، أما ما كان من اختيار موضع معركة بدر فقد فصلنا فيه، فمع أنه لم تكن لديه تجربة حربية ولا قيادة معركة قبل ذلك، وكان الأمر مفاجئاً، واضطره الظرف إلى قيادة معركة فاصلة بعدد قليل ومن دون خبرات سابقة يستند إليها ويستفيد من تجاربها، فقد اختار المكان الصحيح،

---

[٢١٠] تقدم تخريجه برقم ١٩٦.

[٢١١] صحيح البخاري، برقم ٢٣١٢.

وأوضحنا لماذا لم يختر الموضع الذي أشار إليه الحباب. وأما قضية تأبير النخل فهي أكثر وضوحاً بأنها لم تكن خطأ، فقد صرح ﷺ: ﴿إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنّاً﴾، وهو لا خبرة له بالزراعة، فقاس النخل على بقية النباتات، في حين أنه شاذ عنها في مسألة التلقيح.

صور العتاب الإلهي له ﷺ

في ما سبق وضعنا أيدينا على أخطاء الأنبياء عليهم السلام من خلال معاتبات الله سبحانه لهم، ونفينا الروايات المكذوبة والقصص المفتراة. فإذا جئنا إلى النبي محمد ﷺ لتناول المواقف التي عاتبه الله سبحانه فيها فإننا نجد كثيراً من المعاتبات جاءت رحمة به لا تأنيباً له، وغيرة له لا عليه، وتخفيفاً عنه لا تشديداً عليه، فمن ذلك: أنه كان شديد الحريص على ألّا يبقى من قومه ضال، فكان يكرر دعوتهم لا يكلّ ولا ييأس، حتى قيل إنه دعا أبا جهل بن هشام أكثر من ثمانين مرة، وكان حزيناً على إعراضهم تتقطع نفسه أسفاً عليهم، فعاتبه الله سبحانه لكي يرفق بنفسه، فقال ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾[٢١٢]، أي هل تريد أن تهلك نفسك حسرة عليهم لعدم إيمانهم؟ فالعتاب جاء للرفق بنفسه وتخفيف حزنه على إعراض قومه عن الحق، فيقول له: فارفق بنفسك ودعهم لأن ربك خلق ما على الأرض ابتلاء واختباراً للخلق: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا

---

[٢١٢] سورة الكهف: ٦.

مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٢١٣].

ومثل ذلك ما حصل مع ابن أم مكتوم، فقد كان النبي ﷺ، ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، واقفاً مع صناديد قريش؛ عتبة بن ربيعة، وأخيه شيبة، وأبي جهل بن هشام، ، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الله وتوحيده ونبذ أصنامهم، ويناقشهم في أنها لا تضر ولا تنفع، وفي تلك الأثناء أقبل ابن أم مكتوم، والنبي ﷺ مشتغل بهم يدعوهم إلى الله تعالى، وقد قوي طمعه في إسلامهم، لأن فيه إسلام من وراءهم من قومهم، فكان في حواره متحمّساً لدعوتهم مغتاظاً من إعراضهم، على رغم صحة حجته ووضوحها، وابن أم مكتوم أعمى لم ير من حضر ليقدّر قيمة الموقف ويعرف أهمية وقفة النبي ﷺ هذه لينتظره حتى ينتهي من حديثه معهم فيستقرئه، فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكثر النداء، ولا يدري أن النبي ﷺ مشتغل بهؤلاء، حتى ظهرت الكراهة في وجهه ﷺ لقطعه كلامه، وقال في نفسه: سيقول هؤلاء: «إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد»[٢١٤]، وكأنه يقول له: ليس وقتك الآن، أمامك متسع من الوقت لتتعلم، أما الآن فدعني أقنع هؤلاء، فإنهم إن اهتدوا اهتدى كل من وراءهم، فقد كان ﷺ حريصاً على هدايتهم أشد الحرص، فعبس وأعرض عن مؤمن ليتابع حواره معهم لعلهم يهتدون. لكن الله سبحانه عالم الغيب والشهادة يعلم أن هؤلاء لن يؤمنوا وسيُقتلون كافرين، (وقد قتلوا جميعاً

---

[٢١٣] المصدر السابق: ٧.

[٢١٤] تفسير البغوي (معالم التنزيل)، تفسير سورة عبس.

في معركة بدر)، وعليه فإن هذا الأعمى المؤمن عنده خير من ملء الأرض من هؤلاء، فنبّه نبيه ﷺ إلى أن تعليم هذا ما يزكيه أهم من محاورة هؤلاء ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾[٢١٥]. وأهم ما نلحظه أن الله سبحانه بدأ السورة بالكلام عن غائب ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾[٢١٦] من الذي عبس؟ ثم جاء الكلام بصيغة المخاطب وَمَا يُدْرِيكَ ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾، ﴿جَاءَكَ﴾، ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾، لنعلم أن الذي عبس هو رسول الله ﷺ، مع إمكان تخيّل غيره، إذ نستطيع أن نعطي الكلام منحى آخر فنقول إن أبا جهل عبس وتولى إذ جاء الأعمى يسأل النبي ﷺ، فقد جاء الفعل «عبس» بصيغة الإخبار، في حين جاءت بقية الكلام بصيغة الخطاب، فلم يقل له عبست وتوليت، لكن ما يثبت أن المخاطب هو النبي ﷺ أنه كان بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه ويقول: ﴿مرحباً بمن عاتبني فيه ربي﴾. ثم يقول له: ﴿هل من حاجة﴾[٢١٧]؟ ما يعني أن ذلك الخطاب كان له ﷺ وأنه هو الذي ﴿عبس وتولى﴾، فلماذا جاء العتاب بصيغة الغائب في حين جاءت بقية الكلام بصيغة الخطاب؟ لنفهم أن الموقف ليس تقريعاً له ﷺ، بل كانت فيه مراعاة

---

[٢١٥] سورة عبس: ٣-١١.

[٢١٦] المصدر السابق: ١، ٢.

[٢١٧] تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، تفسير سورة عبس.

لموقفه الحريص على دعوة هؤلاء لله لا لرغبة دنيوية، وكان عبوسه لقطع الحوار معهم ولم يكن احتقاراً لابن أم مكتوم، فصرف الله العتاب إلى صيغة الغائب ليكون عتابه توجيهاً وإرشاداً لا لوماً وتقريعاً، فهو يعاتبه لأجل نفسه ﷺ لا لأجل الأعمى، لتهدئة اندفاعه واستماتته في دعوة من لم يكتب لهم الله الهدى، ففيه المعنى نفسه في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾[٢١٨]، وفيه أيضاً جبر لخاطر الأعمى المؤمن بعد هذا الموقف ولبيان مكانة المسلم عند الله سبحانه حتى لو كان معوّقاً، وأنه أهم من المعرضين عن دين الله حتى لو كانوا سادة، ولو كان عتاباً على خطأ لقال له «عبست وتوليت».

وأحياناً يكون العتاب نابعاً من الحرص على أسباب سعادته ﷺ واستمتاعه بنعم الله عليه، كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢١٩]، فالعتاب هنا جاء للتوسعة عليه لا لأجل خطأ ارتكبه، والله سبحانه أباح للعباد أن يمنعوا أنفسهم ما شاؤوا من الحلال، فقد حرم نبي الله يعقوب عليه السلام على نفسه لحم الإبل وهو حلال، وتقشف أصحاب النبي ﷺ مع انفتاح الدنيا عليهم، فقيل كان في ثوب عمر رضي الله عنه ثلاث عشرة رقعة، وأبو عبيدة رضي الله عنه فاتح الشام لم يكن في بيته أثاث سوى فراشه وقصعة طعامه، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

---

[٢١٨] سورة الكهف: ٦.

[٢١٩] سورة التحريم: ١.

دنيا تخادعني كأنّـــي لست أعرف حالها
ذم الإلـه حرامَـهـــا وأنا اجتنبت حلالها
مـدت إليَّ يـمـينَـهـا فكففتُها وشمالَهـا
ورأيتُـهـا محـتاجـةً فـوهبتُ جملـتها لها

يا دنيا، أنت طالق، طالق، طالق. فطلقها ثلاثاً. ومثل ذلك ما جاء عن كثير من الصحابة رضي الله عنهم أنهم لم يأخذوا من متاع الدنيا إلا الضروري، مع ما فتح الله عليهم منها، منهم أبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري. فالعتاب هنا جاء لأنه ﷺ حرم نفسه من شيء حلال إرضاء لأزواجه، لا لأنه لا يريده، ثم كان ذلك تشريعاً لتحلة الأيمان لمن حلف ألا يفعل مباحاً، فقد جاءت الآية التالية: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ۚ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[٢٢٠] لتفتح لعامة الأمة الباب المغلق باليمين.

فالعتاب في حقه ﷺ لا يأتي دائماً على ارتكاب خطأ، وإنما يكون في أحيان كثيرة للرفق بنفسه وعدم تحميلها فوق طاقتها، وحثه على أخذ فسحة في ما أحل الله له من طعام ونساء وساعات نوم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا

[٢٢٠] سورة التحريم: ٢.

تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٢١]. فقد جاء عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت له: لمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: ﴿أفَلا أحبُّ أن أكونَ عَبداً شَكُوراً﴾[٢٢٢]؟! فرخّص الله سبحانه له أن يريح نفسه من هذا العناء، ويكتفي من العبادات بما لا يحملها ما لا تطيق، رفقاً بنفسه ورحمة به ﷺ.

ما نُسب إلى الخطأ من أفعاله ﷺ

مر بنا أن أعداء الله وأعداء أنبيائه يحاولون تلفيق القصص المفتراة على الأنبياء عليهم السلام لتشويه صورتهم، وليكون في ما يأفكون من خطايا وآثام في حقهم أسوة لأتباعهم من جهة فيستحلون ما حرم الله ويقولون قد فعل ذلك النبي فلان، وللطعن في نبوتهم من جهة أخرى، فيقول المكذبون: لو كان فلان نبياً لما فعل كذا وكذا من الفواحش. وقد افتروا على عدد من الأنبياء كما مر بنا في العهد القديم وفي التلمود، وحاولوا الافتراء على نبينا محمد ﷺ، لكن التاريخ والعلماء الذين دققوا السيرة النبوية الشريفة والأحاديث والروايات، وجرحوا وعدلوا في الرواة، وطعنوا وبينوا صحة

---

[٢٢١] سورة المزمل: ٢٠.

[٢٢٢] صحيح البخاري، برقم ٤٨٣٧.

الصحيح من كذب المفترى والموضوع، فدأب هؤلاء يبحثون في تفاصيل سيرته الكريمة المنقولة بدقة وصحة عن مطاعن فلم يجدوا، فحاولوا تحوير الأحداث إلى غير ما كانت عليه، وتأوّلها على غير وجوهها، لتقديم صورة مشوهة للنبي ﷺ من دون أمانة في النقل أو منهج علمي في النقد، وإنما بنوا أوهامهم على تكهناتهم وما تقودهم إليه تفسيرات نفوسهم المريضة ويوحيه إليهم شياطين الجن الذين يعينونهم في معاداة أنبياء الله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[٢٢٣]، ونحن تقصينا في بحثنا الحقائق وتحرينا ألّا نميل ميلاً عاطفياً لتبرير تصرف أو حمل خبر على غير وجهه طلباً للعذر، وإنما لزمنا المنهج العلمي في تناول الروايات وردّ المكذوب والمدلس منها، وقدّمنا التفسير المنقول عن الثقات والقائم على المنطق لا على الخيال أو ما يرضي الهوى، فأثبتنا قصة اختيار موضع معركة بدر، وقصة تأبير النخل، وقصة الأعمى بشفافية مطلقة بلا تحيز أو ميل إلى شخص النبي ﷺ أو مجانبة الحقائق. وسنناقش مزاعمهم بالأسلوب العلمي والمنطقي نفسه، ونرد شبهاتهم التي جانبت العلم والعقل معاً.

---

[٢٢٣] سورة الأنعام: ١١٢.

فداء أسرى بدر وفتح مكة

حين تقف بين شخصين يرشدانك فيقول لك الأول اذهب يميناً، في حين يقول الآخر اذهب شمالاً، فاعلم أن أحدهما أو كليهما يريدان إضلالك. وهاهم يتقاسمون الأدوار، فيقول قائل: ارتكب محمد خطأ بالقبول بفداء أسرى بدر، وقد عاتبه الله بذلك في القرآن! أي أن القائل يريد لو أن محمداً ﷺ قتل أسرى قريش أبناء عمومته وأقاربه بعد أن أسرهم في المعركة. ثم يبرز آخر من الجهة الأخرى ليقول: إن فتح محمد مكة يُعدُّ «خيانة وطنية»، فمكة وطنه، وقد خرج منها ثم عاد بجيش من أهل المدينة (وطن آخر) ليفتحها بسيوف الغرباء!

الآن كيف نرد على اثنين؛ أحدهما يعيب على النبي ﷺ عدم قتل الأسرى من قومه، والآخر يعيب عليه فتح مكة وهدم أصنامها، ويعدها خيانة وطنية؟ فما يرضي قول هذا يسخط هذا، والعكس بالعكس! ألا نرى أن الطرفين يعملان لهدف واحد على رغم تناقض دعواهما؟ فكلاهما يريد أن يخطّئ النبي ﷺ، فلو أنه قتل الأسرى لقال صاحب الدعوى نفسه إن محمداً قتل أرحامه ولم يرع قرابة ولا نسباً ولا عشرة ثلاثة وخمسين عاماً قضاها بينهم في مكة. ولو لم يفتح النبي ﷺ مكة لقال صاحب دعوى الخيانة الوطنية إن محمداً لم يخلص لله، فترك مكة بما فيها من الأصنام، مع امتلاكه القوة القادرة على فتحها، لكنه غض عنها الطرف لأجل أقاربه وأرحامه فيها.

هذه هي أساليبهم، ومع ذلك لن نعرض عن الزعمين، وسنناقش كلاً على حدة.

فداء أسرى بدر:

سبق أن أثبتنا أن النبي ﷺ لم يكن له رأي تشريعي، وأنه كذلك لا يحكم بالهوى، وحين يأتي قول الله تعالى في المسلمين: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٢٢٤] ينفتح أمامهم باب عظيم على مصراعيه في ما لم ينزل به وحي، هو باب الشورى. فإذا قضي الأمر ثم نزل الوحي بغيره فإن ذلك يعد من تيسير الله تعالى وإرادته قضاء ما أقرته الشورى مع تعليم المسلمين الأوجب منه في مثل هذه الأحوال. فقد انتهت معركة بدر بنصر المسلمين، فقُتل أعتى أركان الشرك وقادة الكفر وصناديدهم، وجيء بآخرين أسرى، وحين لم ينزل وحي يفصل في أمرهم لجأ النبي ﷺ إلى الشورى، فهو ليس بالمستبد الذي يقضي أمره من دون أن يراجع أتباعه، أما ما ينزل فيه وحي فلا مكان فيه لشورى أو مراجعة، وقد شاور النبي ﷺ أصحابه قبل معركة بدر، ولم يكتف بشورى المهاجرين، بل ظل يكرر قوله: {أشيروا علي أيها الناس}[٢٢٥] حتى قام سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال: «والله، لكأنَّك تريدنا يا رسول الله! قال: أجل. قال: قد آمنَّا بك، وصدَّقناك، وشهدنا أنَّ ما

---

٢٢٤ سورة الشورى: ٣٨.

٢٢٥ الرحيق المختوم، ص١٤٠.

جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السَّمع والطاعة لك، فامضِ يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر، فخضته لخضناه معك، ما تخلف منَّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً، إنا لصَبْرٌ في الحرب صِدْقٌ عند اللقاء، ولعلَّ الله يُريك منَّا ما تَقَرُّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله»[٢٢٦]. وذلك قبل أن ينزل الوحي في شأن المعركة، وهذا دأب النبي ﷺ مع كل أمر لم ينزل فيه وحي، فلما جيء بالأسرى استشار أصحابه فيهم، فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال عمر بن الخطاب: ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكن أن تمكنّا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكنّي من فلان (قريب له) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وصناديدها[٢٢٧]، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه، ثم أضرمه عليهم ناراً. قال: فقال له العباس (وكان في الأسرى): قُطِعتْ رَحِمُك! فسكت رسول الله ﷺ فلم يجبهم، ثم دخل. فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس: يأخذ بقول عُمر. وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج عليهم ﷺ فقال: ﴿إنّ اللهَ لَيُلَيِّنُ قلوبَ رجالٍ حتى تكونَ أَلْيَنَ من اللّبَنِ، وإنَّ اللهَ لَيُشَدِّدُ قلوبَ رجالٍ حتى تكونَ أشدَّ من الحِجارة! وإنّ مَثَلك يا أبا بكر مَثَلُ إبراهيمَ،

---

[٢٢٦] المصدر السابق.

[٢٢٧] المصدر نفسه، ص ١٥٤.

قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢٢٨]، وَمَثَلَكَ يا أبا بكر مَثَلَ عيسى قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾[٢٢٩]. ومَثَلَكَ يا عُمر مَثَلَ نوحٍ، قال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[٢٣٠]، وَمَثَلَكَ كَمثَلِ موسى قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[٢٣١]. ثُمّ قال ﷺ: أنتم اليوم عالةٌ، فلا ينفلتّنَ أحدٌ منهم إلا بفداء أو ضرب عنق. قال عبد الله بن مسعود: إلا سهيلَ بنَ بيضاء، فإني سَمِعْتُهُ يذكرُ الإسلام! فسكتَ رسولُ اللهِ ﷺ، فما رأيتُني في يومٍ أخوَفَ أن تقع عليَّ الحجارةُ من السماء، مني في ذلك اليوم، حتى قال ﷺ: إلا سهيلَ بنَ بيضاء[٢٣٢]. ولأنه ﷺ نبي الرحمة الذي قال فيه الله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٢٣٣] فقد أخذ بقول أبي بكر. فأين الخطأ؟ أليست الرحمة أوجب في وجهة النظر الإنسانية؟ وأدعى في حال الأنبياء؟ ولو أخذ برأي عمر رضي الله عنه أفلا ينكر عليه أصحاب الدعوى فيقولون: هذا مخالف للإنسانية؟ ثم يأتي آخرون ليقولوا: أنبيٌّ ويقتل الأسرى؟! ثم يقول آخر: ألا يناقض فعله مضمون الآية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾؟ بلى كل ذلك كان سيحدث لو أخذ النبي ﷺ برأي عمر.

---

[٢٢٨] سورة إبراهيم: ٣٦.
[٢٢٩] سورة المائدة: ١١٨.
[٢٣٠] سورة نوح: ٢٦.
[٢٣١] سورة يونس: ٨٨.
[٢٣٢] مسند أحمد بن حنبل، ج١، ص ٥٢٦.
[٢٣٣] سورة الأنبياء: ١٠٧.

وبعد انقضاء الأمر نزل الوحي بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٣٤]، وقد أخّر الله سبحانه الوحي لحِكَمٍ بالغة، فهو سبحانه في علمه الغيب يعلم أن النبي ﷺ سيأخذ بالشورى ما لم ينزل عليه وحي، وأنه ستغلبه الرحمة التي جبل عليها فيأخذ برأي أبي بكر رضي الله عنه، ولو أراد الله قتلهم لأنزل فيه وحياً قبل حدوث الشورى، لكنه سبحانه أراد إنزال الرحمة واقعاً وتنزيل حكم القتل تشريعاً، فأخّر الوحي حتى تم الأمر، فأنزل الحكم الشرعي، وفي ذلك تبيين استباقي لأحداث مستقبلية، وإعذار لنبيه ﷺ في الأخذ بالرحمة، وهو نبي الرحمة، وتهديد للمشركين بأنه لن يكون هناك أسرى بعد اليوم إلى أن يثخن النبي ﷺ في الأرض وتقوى شوكة الإسلام، وحذر المسلمين من الميل إلى عرض الدنيا. ونقف عند قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فما الكتاب الذي سبق؟ إنه كتاب الله في اللوح المحفوظ، فقد قضى فيه سبحانه حصول الأمر فقدّره، لولا تقديره ذلك بحكمته ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فنسب الله سبحانه قضاء ذلك الأمر إلى جنابه، ولو كان فعله ﷺ وأصحابه خطيئة لكان المال الذي غنموه من الأسرى حراماً، ولنهاهم عن أكله، لكنه سبحانه

---

[٢٣٤] سورة الأنفال: ٦٧-٦٩.

قال لهم:﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فلم يكتف بالأمر ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ وإنما أتبعه بوصفه ﴿حَلَالاً﴾ ثم أكد عدم وجود أي شبهة فيه فزاد ﴿طَيِّباً﴾. فأحل للنبي ﷺ وأتباعه الغنائم، وكانت من قبل حراماً على الأنبياء، إذ تُجمع وتحرق. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بسِتٍّ: أُعطيتُ جوامعَ الكلِمِ، ونُصِرْتُ بالرُّعبِ، وأُحِلَّتْ لي الغنائمُ، وجُعِلت لي الأرضُ طَهوراً ومسجداً، وأُرسِلْتُ إلى الخَلقِ كافَّةً، وخُتِم بي النَّبيُّونَ»[٢٣٥]. فالأمر لم يكن تأنيباً ولا تبكيتاً، وإنما كان لِحكم بالغة، وتحققت كلها. ولو أن النبي ﷺ قتلهم لكانت ثلمة في سيرته ﷺ، ولرأينا الذين يخطّئونه في تصرفه هذا يقفون موقفاً معاكساً، أفليسوا هم أنفسهم الذين تساءلوا عن الرحمة والإنسانية في حادثة عرينة؟ فالغاية عندهم التخطئة لا الحق ولا الرحمة ولا الشدة.

هل كان فتح مكة خيانة وطنية؟

قبل خلق الإنسان ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٢٣٦]، اختار الله سبحانه الأرض وطناً للإنسان، فتوزع فيها بنو آدم، وكانت التجمعات تقام على أساس قومي أو قبلي، وحين جاء إبراهيم عليه السلام بزوجته هاجر وابنه إسماعيل إلى مكة لم تكن وطناً ولا تصلح أن

---

[٢٣٥] صحيح ابن حبان، برقم ٢٣١٣.
[٢٣٦] سورة البقرة: ٣٠.

تكون وطناً، فلم يكن فيها طائر يطير ولا سائر يسير، ولا زرع فيها ولا تصلح للزراعة: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[٢٣٧]، فأنبع الله لهم «زمزم» فأقبلت الطيور، وجاءت قبيلة جرهم المتنقلة مثل كل قبائل الجزيرة العربية بحثاً عن مواطن الماء والكلأ، فنزلت عند إسماعيل وأمه عليهما السلام واستأذنتها في الإقامة فأذنت لهم، فصارت مكة وطناً، ثم توزعت ذرية إسماعيل في نواحي الأرض، وصارت مكة موطناً لقبيلة خزاعة حتى جاء قصي بن كلاب بعد ثلاثة قرون فأخرجهم منها وجعل مكة وقفاً على قريش، وكانت قبائل العرب تتنازع وتتقاتل على مواطن الماء والكلأ، فلم يكن للوطن قيمة بغير ما فيه من الخير، أما مكة فكانت مكانتها دينية فحسب لوجود الكعبة ومقام إبراهيم وحِجر إسماعيل، عليهما السلام فيها، أما القيمة الحقيقية والانتماء فكانا للقبائل لا للأوطان، ولم يظهر مصطلح «الوطنية» إلا بعد تلاشي الخلافة الإسلامية وتقسيم دولها بين المحتلين الأوربيين (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا) وبعد تحررها منهم تحولت إلى دول بقي لها انتماؤها القومي «العروبة» ويتحرك أتباعها بين الأقطار والدول بلا معوقات، فيقيم الشامي في العراق، ويقيم المصري في الحجاز، ويقيم النجدي في المغرب، وتصبح أوطاناً لهم على قدر ما يجدون أرزاقهم فيها،

---

[٢٣٧] سورة إبراهيم: ٣٧.

وبعد إصدار جوازات السفر والجنسيات نشأت ضوابط للتنقل والإقامة، إلى أن ظهرت قضية «الوطنيات» في العصر الحديث جداً. لقد كانت الزكاة تجبى من بلاد الشام وفارس ومصر والمغرب وخراسان والسند، لتأتي إلى بيت مال المسلمين في المدينة المنورة، ومن بعدها إلى دمشق، ثم إلى بغداد، حتى قال هارون للرشيد للسحابة المسرعة: «أمطري حيث شئت فإن خراجك سيأتيني»! ومعظم قصائد العرب كانت تبدأ بالوقوف على أطلال المرتحلين، ففي كل فترة زمنية لهم وطن جديد يرتبط بمعاشهم. فلو أن صاحب دعوى الخيانة الوطنية قال «خيانة قومية» لكان لكلامه مستند، أما الوطنية فلم يكن لها وجود لا في الأذهان ولا على الألسنة.

وحين بعث الله محمداً ﷺ أنزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٢٣٨]، ووقف النبي ﷺ في حجة الوداع ليرسخ هذا المفهوم بقوله: ﴿يا أيُّها النَّاسُ ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ وإنَّ أباكم واحدٌ، ألا لا فضلَ لِعَربيٍّ على أعجميٍّ ولا لعَجميٍّ على عربِيٍّ، ولا لِأحمرَ على أسودَ ولا لِأسودَ على أحمرَ، إلاَّ بالتَّقوى، أبلَّغتُ؟ قالوا بلَّغَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وعلى آلِهِ وسلَّمَ﴾[٢٣٩]. هذا دين الأنبياء عليهم السلام ومنهاجهم، لا قومية ولا وطنية فيه، والانتماء إلى الدين فقط، وفي ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

---

[٢٣٨] سورة الحجرات: ١٣.
[٢٣٩] الصحيح المسند، للوادعي، برقم ١٥٣٦.

إِخْوَةٌ﴾[٢٤٠]، وقد آخى النبي ﷺ بين كل مهاجر من قريش أو غيرها وبين أنصاري من الأوس أو الخزرج، فصارت أخوّة أمكن من القرابة، حتى إن أحدهم ليقتسم ماله وبيته وبستانه مع أخيه، وبلغ ببعضهم أن قال لأخيه: «لي زوجتان؛ فإن شئت طلقت واحدة لتتزوجها»! وألغيت قرابة الدم وذكرنا من قبل أن الله سبحانه أنزل ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[٢٤١] وأبو لهب عم النبي ﷺ، في حين قال ﷺ: ﴿سلمانُ منا أهلَ البيت﴾[٢٤٢] وسلمان رضي الله عنه فارسي! ومر بنا الحديث عن نوح عليه السلام حين قال له الله تعالى ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[٢٤٣] ولم يقل «ليس ابنك». فالانتماء أصبح للدين فحسب لا إلى عرق ولا إلى أرض، وفي ذلك قال نهار بن توسعة:

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سِواه   إذا افتخروا بقيسٍ أو تميمِ
دعيٌّ القوم ينصر مدعيه   فيلحقُه بذي النَّسبِ الصميمِ
وما كرمٌ ولو شرُفتْ جُدودٌ   ولكنَّ التَّقيَّ هوَ الكريمُ

فلم يكن لدى النبي ﷺ وأتباعه انتماء قومي أو وطني ليرفع هذا المدعي صوته فيحاسبه على ما لم يؤمن به يوماً، وإنما رفضه رفضاً قاطعاً وبلّغه للناس وأشهد الله عليه وقال لهم ﴿فليبلغ الشاهد الغائب﴾، هذه رسالته ﷺ بلغتنا، فكيف ندّعي عليه بما يناقض مضمونها؟ أما الخيانة فهي خيانة الله

---

[٢٤٠] سورة الحجرات: ١٠.
[٢٤١] سورة المسد: ١.
[٢٤٢] تقدم تخريجه برقم ٦٢.
[٢٤٣] سورة هود: ٤٦.

سبحانه في دينه أو أمانته، فإن كان أحدد يوسم بالخيانة فإنما يوسم بها قوم النبي ﷺ قبيلة قريش، فقد جهزوا لقتله غيلة أربعين شاباً يترصدونه على باب بيته، ليضيع دمه بين القبائل! أليست هذه هي الخيانة؟ بلى، وقد أكد الله أنها خيانة حين قَبِلَ النبي ﷺ فداء أسراهم فأنزل عليه: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٢٤٤]. ثم ماذا نسمي جمع عشرة آلاف مقاتل من قريش وقبائل العرب لاقتحام المدينة المنورة والقضاء على المسلمين؟ وبعد أن هزمهم الله بأكثر من عام سار النبي ﷺ بأصحابه إلى مكة لأداء العمرة، فمنعتهم قريش، فقبل النبي ﷺ الرجوع دون قتال، وعقد معهم صلح الحديبية بشروط قريش التي كانت مجحفة بحق النبي ﷺ والمسلمين، ثم دبّروا مع أحلافهم من بني بكر مكيدة، وخطّطوا للتآمر على بني خزاعة أحلاف النبي ﷺ في مكّة؛ وانتهزوا فرصة انشغال المسلمين بالدعوة وإرسال السرايا حول المدينة المنورة، فأغار بنو بكر على بني خزاعة ليلاً بعد أن أمدّتهم قريش بالسلاح، وقتلوا منهم ثلاثةً وعشرين شخصاً، معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ، في مكان يسمى «الوتير»، فتوجه عمرو بن سالم الخزاعي إلى النبي ﷺ في المدينة يُخبره بما حدث، وأنشد:

يَـــا ربّ إنـــّي نَاشِـدٌ مُحمّدا   حِلـفَ أبينَا وأبيـــه الأتــلَدا

قَـــد كُنـــتُم وَلدَاً وكُنّا وَالِـداً   ثمّـــت أَسلمنَا فَـلم نَنزِع يَدا

---

[٢٤٤] سورة الأنفال: ٧١.

فانْصُر هَدَاك الله نصراً أعتدا	وادْع عِــبَاد الله يَأتُــوا مدَدا
فيهــم رسُـــــول الله قَد تجرّدا	إن سِيمَ خَسْفاً وجـــهه تَربدا
في فَيلقٍ كالبَحرِ يجري مزبدا	إن قُريشَاً أخلَفُـوكَ المَوعِدا
ونَقَضُـــوا مِيثَاقـــك الموكدا	وجَعلُوا لي في كدَاء رصدا
وزعمُوا أنْ لست تدعُوا أحَدا	وهُـــم أذَلُّ وأقـــلُّ عَددا
هـــم بيتـــونَا بالـوَتير هُجَّدا	وقَتَلُـــــونَا رُكّـــعَاً وسُجّدَا

فأجابه النبي ﷺ: «نُصِرتَ يا عمرو بنَ سالمٍ».

فأراد النبي ﷺ حل الأمر سلمياً، فأرسل إلى قريش يخيّرهم بين دفع ديات القتلى إلى بني خزاعة، أو التخلي عن حلف بني بكر، فأخذتهم العزة بالإثم وأبوا الخيارين، فزادوا إلى الأحقاد القديمة حقداً جديداً وهو الاستهانة بالمسلمين وحلفهم، ما قد يفتح أبواباً أخرى من النقض عند كل القبائل التي في حلفها، إضافة إلى إحراج النبي ﷺ الذي لن يثق أحد بحلفه بعد ذلك، إلى جانب بقاء الحادثة سُبّة بين الناس، لعدم نصرته أحلافه. فلما بلغ قريشاً أن النبي ﷺ يعد جيشه لفتح مكة ندموا على فعلتهم وأرسلوا أبا سفيان إلى المدينة ليعقد حلفاً جديداً، لكن الأوان قد فات.

فمن الخائن؟ وأين موضع الخيانة في كل ما سلف من النبي ﷺ؟ أين الخيانة حين قال سعد بن عبادة وهو على رأس كتيبة الأنصار:

اليوم يوم الملحمة   اليوم تستحل الحرمة

فبلغ قوله النبي ﷺ فقال: ﴿كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الحرمة، ويوم تكسى فيه الكعبة﴾[٢٤٥]. ثم أرسل بنقل الراية من سعد إلى ابنه قيس بن سعد، رضي الله عنهما. فكيف كان الفتح؟ علمت قريش أنها لا طاقة لها بقتال المسلمين، فاستسلمت، ودخل النبي ﷺ ولم ترق قطرة دم، إلا ما كان من جهة خالد بن الوليد رضي الله عنه، إذ حاول عكرمة بن أبي جهل ورجال من قريش التصديَ له، فقاتلهم خالدٌ وقَتَلَ منهم اثني عشر رجلاً، وفرَّ البقية! هذا ما فعله جيش مكون من عشرة آلاف فارس. فماذا فعل النبي ﷺ حين فتح مكة ليزعم المفتري أنها خيانة وطنية؟ لم يَقتل أو يُذلَّ أحداً أو يُهِنْ كرامة أحد، ولم يغنم شيئاً ولم يأسر، ولم يقم في بيته الذي بمكة، وإنما غادرها هو أصحابه بعد أن جمع أهلها، الذين آذوه وطردوه واجتمعوا لقتله غيلة، ثم جمعوا عشرة آلاف فارس للقضاء على دعوته وأنصاره واستئصال شأفتهم، فقال لهم: «يا معشرَ قريشٍ، ما ترَونَ أنِّي فاعلٌ بكم»؟ فقالوا: «خيراً، أخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كريمٍ»، فقال ﷺ كلمة مايزال صداها مدوياً بعد أربعة عشر قرناً يعجب منه الصديق والعدو: ﴿اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ﴾[٢٤٦]! فأين الخيانة في ما فعل ﷺ؟ نعم، صحيح لقد هدم الأصنام ورفع الأذان فوق الكعبة المشرفة. فإن كان المدّعي يزعم أنها «خيانة وثنية» فقد صدق، فهدمُ الأوثان يَعُدُّهُ عابدوها «خيانة وثنية» عظمى، وقبله فعلها جده إبراهيم عليه السلام فأوقدوا ناراً عظيمة لإحراقه،

---

[٢٤٥] صحيح البخاري، برقم ٤٢٨٠.
[٢٤٦] مسند أحمد بن حنبل، برقم ١٩٢١٨.

فهل هذه نار الخليل توقد مرة أخرى على المنابر الإعلامية لإحراق النبي محمد ﷺ بالتهمة نفسها (الخيانة الوثنية)، فنطقوها بالطاء «وطنية» للتلبيس على الناس؟

القتال في الشهر الحرام

بعد رجوع النبي ﷺ من معركة بدر تحسّب أن تتحرك قريش للثأر، فبعث عبد الله بن جحش ومعه ثمانية من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً، وأمره ألّا ينظر فيه حتى ينزل ملل (اسم موضع) ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره، ولا يستكره من أصحابه أحداً. فلما وصل فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت إلى كتابي هذا فسرْ حتى تنـزل نخلة (موضع بين مكة والطائف)، فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم». فلما قرأ قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة فأرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فلم يتخلَّف أحد، ومضوا حتى نـزلوا بنخلة، فمرت عيرٌ لقريش تحمل زبيباً وأدَماً وتجارةً، فيها منهم عمرو بن الحضرمي وآخرون، فلما رآهم القوم هابوهم، وقد نـزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا وقالوا: عُمّار! فلا بأس علينا منهم. وتشاور عبد الله وجماعته فيهم فقالوا: والله لئن تركتم القومَ هذه الليلة ليدخُلُنَّ الحرم فليمتنعُنَّ به منكم،

ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام! فتردّدوا فهابوا الإقدام عليهم، ثم شجُعوا وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم. فرمى واقدُ بن عبد الله التميمي عمرَو بن الحضرميّ بسهم فقتله، واستأسرَ عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلت نوفل بن عبد الله فأعجزهم.

وقدم عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين، وقال لأصحابه: إنّ لرسول الله ﷺ مما غنمتم الخمُس. وذلك قبل أن يُفرضُ الخمس من الغنائم، فعزل لرسول الله ﷺ خُمس العير، وقسم سائرها على أصحابه، فلما قدموا قال لهم النبي ﷺ: ﴿ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام﴾! فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلما قال ذلك، سُقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنَّفهم المسلمون في ما صنعوا، وقالوا لهم: صنعتم ما لم تؤمروا به، وقاتلتم في الشهر الحرام ولم تؤمروا بقتال! وقالت قريش: قد استحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدمَ، وأخذوا فيه الأموال وأسروا. فقال من يردُّ ذلك عليهم من المسلمين ممن كان بمكة إنما أصابوا ما أصابوا في جمادى! وقالت يهود: تتفاءل بذلك على محمد ﷺ؛ فعمرو بن الحضرمي قتله واقد، «عمرو»: «عمرت الحرب»، و«الحضرميّ»: «حَضَرت الحربُ»، «وواقد»: «وقدت الحرب»! فجعل الله فألهم ذلك عليهم وبهم. فلما أكثر الناسُ في ذلك أنـزل الله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ

اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٤٧] فالمعنى: إن كنتم قتلتم منهم في الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام، وإخراجُكم منه، وأنتم أهله، أكبرُ عند الله من قتل من قتلتم منهم، فقد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، وذلك أكبر عند الله من القتل. ففرَّج الله بهذا الحكم عن المسلمين ما كانوا فيه من الغم، فقبض رسول الله ﷺ العيرَ والأسيرين[٢٤٨].

وبعد أن تناولنا القصة وألممنا بأطرافها لنا أن نسأل أين الخطأ، ونحن نتحدث عن أخطاء النبي ﷺ لا أخطاء أصحابه رضي الله عنهم؟ لم يكن النبي ﷺ في السرية، وأوصاهم بجلب الأخبار فحسب، وحين علم بما فعلوا لم يرضه وعاتبهم ﴿ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام﴾! وأتبع ذلك بتصرف عملي وهو أنه وقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. فأين الخطأ؟ إن كان ثمة خطأ فلا ينسب إليه ﷺ، وإنما ينسب إلى مرتكبيه. ومع ذلك نزل حكم الله بتبرئتهم من الخطأ بل ومدحهم بأنهم ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَ

٢٤٧ سورة البقرة: ٢١٦-٢١٨.
٢٤٨ البداية والنهاية، لابن كثير، ج٣، ص٢٤٧.

اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. فلم يعدَّ عملهم خطأ ولا عاتبهم، وإنما عده سبحانه جهاداً في سبيله. وفي كل الأحوال لم يكن النبي ﷺ في القضية، وبذلك تسقط الدعوى، وتُعدّ افتراء عليه ﷺ.

والعرب استحلوا الأشهر الحرم في حروب الفجار، وكانوا يحرمون بعضها متى اقتضت مصلحتهم ذلك، فسمي «النسيء» أي الزيادة، قال ابن كثير: كان فيهم من الغضب ما استطالوا به الأشهر الثلاثة في التحريم المانع من قتال أعدائهم، فأحدثوا تحليل المحرم وتأخيره إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال. وفي ذلك أنزل الله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٢٤٩].

قتل كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف، من قبيلة طيّئ، من بني نَبْهان، وأمه من بني النضير وكان من أشد اليهود حنقاً على الإسلام والمسلمين، وإيذاء لرسول الله ﷺ وتظاهراً بالدعوة إلى حربه، وكان شاعراً غنياً مترفاً حتى إنه لم يكن يسكن بيتاً وإنما يقيم في حصن له في شرق جنوب المدينة خلف ديار بني النضير. ولما بلغه انتصار المسلمين في «بدر»، وقتل صناديد قريش

---

[٢٤٩] سورة التوبة: ٣٧.

قال: «أحق هذا؟ هؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لَبَطنُ الأرضِ خيرٌ من ظهرها». وانبعث يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين ويمدح عدوهم ويحرضهم عليهم، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش، فنزل على المطلب بن أبي وَدَاعة السهمي، وجعل ينشد الأشعار يبكي فيها على قتلى المشركين، يثير بذلك حفائظهم، ويذكي حقدهم على النبي ﷺ، ويحرضهم على حربه، وسأله المشركون: «أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأي الفريقين أهدي سبيلاً»؟ فقال: «أنتم أهدى منهم سبيلاً، وأفضل»! وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً﴾[٢٥٠]. ثم رجع إلى المدينة، يلقي شواظ هجائه على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ويختبئ في حصنه المنيع، كالأفعى التي تلدغ ثم تأرز إلى جحرها، فقد كان عدواً صريحاً ولم يكن إليه سبيل لمنعه أو وقفه عند حده، ولم يكن هناك دولة بمعنى الكلمة لتحاسبه وتحكم عليه بسجن أو غيره، ولم يقف عند هذا حتى تناول نساء الصحابة بشعره، والأعراض أعز ما على العرب منذ جاهليتهم، والشعر إعلام مسموع يتداوله الرواة ويبلغ المشارق والمغارب، وتتعاير به الأجيال قروناً، فلم يبق لأحد عليه صبر، ولم يعد أمامهم إلا قطع هذا اللسان البذيء كي لا يلوك أعراض الناس مرة أخرى. وكان النبي ﷺ

---

[٢٥٠] سورة النساء: ٥١.

صبر على أذاه في نفسه، فلما أخذ يشبب بنساء الصحابة في أشعاره، ويؤذيهم بسلاطة لسانه أشد الإيذاء، ثارت غيرتهم على نسائهم، وعند ذلك ضاق الصبر بالنبي ﷺ، فقال: ﴿مَن لِكَعْبِ بنِ الأشْرَفِ، فإنَّه قدْ آذَى اللَّهَ ورَسولَهُ﴾[٢٥١]. فانتدب له محمد بن مسلمة، وعَبَّاد بن بشر، وأبو نائلة سِلْكَان بن سلامة، وهو أخو كعب من الرضاعة، والحارث بن أوس، وأبو عَبْس بن جبر، فاستنزلوه من حصنه، فلما استمكنوا منه قتلوه.

ولا نظن أن ذا عقل يقول إن هذا تصرف خاطئ، فكل عصر له مقاييسه، فالآن لدينا محاكم وأنظمة وقوانين تقتص وتسجن وتفرض غرامات على الإساءة أو الطعن في الأعراض أو التشهير، أما في ذلك العصر فلم يكن من سبيل سوى قتله، لأنه كان مقيماً في حصن يمنعه حتى لو جاءه جيش.

قطع أيدي المجرمين وسمر أعينهم

جاء إلى النبي ﷺ ثمانية نفر من عكل من قبيلة عرينة، فبايعوه على الإسلام، وهم مرضى موعوكون، وكانوا قد استوخموا الأرض، فاصفرت ألوانهم، وضخمت بطونهم وسقمت أجسامهم واجتووا (قيل هو مرض الاستسقاء، وقيل عانوا من داء في أجوافهم)، فشكوا إلى رسول الله ﷺ ما لقوا من بطونهم، فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة، فيشربوا من أبوالها وألبانها (وهو علاج قائم إلى اليوم في البادية لأمراض مستعصية يخلطون لبن

---

[٢٥١] صحيح البخاري، برقم ٤٠٣٧.

الإبل بنسبة معينة من بولها، ويسقونه للمريض)، حتى إذا صفت ألوانهم وخمصت بطونهم وسمنوا، عدوا على الراعي فقطعوا يديه ووضعوا الشوك في عينيه ومثّلوا به، ثم قتلوه واستاقوا الإبل، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم سرية، فأُدركوا، فجيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم، ثم ألقوا في الرمضاء حتى ماتوا. وقد أنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢٥٢].

ولا أدري أين الخطأ الذي ينسبه إلى النبي ﷺ في هذه الحادثة محامو الكفار والمشركين واليهود والشيطان؟ فهؤلاء النفر ارتكبوا عدداً من الجرائم، أولها الردة وجزاؤها القتل، ثم كافؤوا الإحسان بالإساءة، ثم الغدر بالراعي وقطع يديه وإدخال الشوك في عينيه، والتمثيل به، وحكم ذلك: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[٢٥٣]، وقد قتلوه بغير وجه حق، وجزاء القتلِ القتلُ قصاصاً، وسرقوا، وجزاء السرقة قطع الأيدي، وقطعوا السبيل وسعوا في الأرض فساداً، وجزاء ذلك ﴿أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾، وهو حكم شرعي من الله أنزله بوحي قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، ولم يكن حكماً نبوياً، فمن يُخطِّئه فإنما يُخطِّئ

[٢٥٢] سورة المائدة: ٣٣.
[٢٥٣] سورة الشورى: ٤٠.

المشرّع لا المنفذ، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[٢٥٤]، والحكمة أن مثل هؤلاء إذا سُكت عنهم سيفتحون باباً من الشر لغيرهم ممن يقول: «نفعل مثلهم فنخدع المسلمين ثم نسلبهم على غرة»، وفي الوقت نفسه يغلقون باب خير فلا يأمن المرء أن يجير مستجيراً أو يؤوي مريضاً أو يقبل إسلام من يأتيه مسلماً، وربما يكون هذا سبب دعوى محامي الشيطان؛ إذ إن هذه العقوبة الشديدة أغلقت الباب فلم يجرؤ عليه أحد بعد ذلك، فلا يأتي ليُسلم إلا صادق، ولا يحاول الخداع مجرم. فالقضية لا خطأ فيها، لكن هؤلاء وقفوا أنفسهم لمحاربة الإسلام، من خلال أحكامه، أو من خلال نبيه ﷺ، أو من خلال أتباعه، أو حتى من خلال اجتهادات المعاصرين فيه، أو ادعاءات جماعات من القتلة والمجرمين الانتماء إليه، ممن كشف الله سبحانه عن دخائلهم وأظهر حقائقهم وبيّن تواطؤهم مع أعداء الإسلام، فخرس محامو الشيطان عنهم، لكنهم استمروا في النبش في الرماد لعلهم يجدون جمرة أو حتى فحمة.

وزعم بعضهم أن خطأ النبي ﷺ يكمن في أنه سمر عيونهم، لأنه نهى بعد ذلك عن سمر العيون، وهذا الكلام مردود، فهو ﷺ إنما نهى عن سمر العيون عقاباً، وهو حين سمر عيون هؤلاء كان فعله بهم قصاصاً؛ فهم سمروا عيون الراعي بالشوك، فاستحقوا الجزاء بالمثل.

---

[٢٥٤] سورة الإسراء: ٤٣.

حكم سعد في قريظة وزواج النبي بابنة قتيله

لليهود في كل عصر محبون يسعون إلى إرضائهم، خوفاً أو طمعاً، أو لالتقاء الأهداف، كعداوة الإسلام ونبيه ﷺ، والرغبة في الإباحية، والتخلص من القيود الأخلاقية والحقوق التي يفرضها الإسلام، وحباً بالفساد والتهتك، فرضي بعضهم أن يكونوا أذناباً لليهود يسترون عوراتهم ويزحفون خلفهم يمسحون آثارهم، وآخرون تطوعوا ليكونوا أذرعاً لهم وألسنة تدافع عنهم وتنادي بمظلوميتهم وتقاضي التاريخ بما لقوا خلال مراحله، لكنهم تركوا مقاضاة فرعون على قتلهم ظلماً حين كانوا مؤمنين، وطووا صفحة السبي البابلي (الفارسي)، وتغافلوا عن جرائم محاكم التفتيش في أوربا التي نكّلت بهم، وتجاوزوا عن القتل المنظم لهم في شرق أوربا بعد الشغب الذي نفذوه واتهامهم بأنهم وراء مقتل القيصر الكسندر الثاني، فكانت فيهم مذابح عدة، منها «مجزرة وارسو»، وقتل أعداد كبيرة منهم بمدينة «كييف»، وقيام حملات الإبادة في «يليزنفيتغراد» و«خيرسون»، ثم قمعهم بعد ثورتهم على الحكم الملكي الروسي، في حملة تصفية جسدية شملت محافظات «بودولي» و«فولين» و«تشرنيغوف»، إضافة إلى حرق آلاف من بيوتهم وأحيائهم وتشريدهم، وكذلك السفينة التي حمّلت فيها روسيا مئات الأسر اليهودية وأرسلتها باتجاه إسطنبول، آملة بأن يقصفها الجيش العثماني، لكنه لم يفعل، تناسى هؤلاء كل تلك الصفحات الدامية وانقضّوا على ما يرتبط بالإسلام ونبيه محمد ﷺ، فنصّبوا

أنفسهم محامين ليهود المدينة المنورة، ليتهموا النبي ﷺ بظلمهم وقتل من قتل وإجلاء من بقي عن وطنهم (يثرب). ولعل أكثر ما يتشدق به هؤلاء هو ما لقيه بنو قريظة، دون أن يذكروا ما فعلوه ليلقوا هذا الجزاء. وسنتناول القصة من بدايتها، ثم نناقش المحامين الصهاينة في الحكم.

لم تكن عداوة اليهود للنبي ﷺ ناتجة من أسباب تتعلق بإقامته في المدينة المنورة، أو أحداث حصلت بعد هجرته إليها، فهم الذين قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام، وحاولوا صلب عيسى المسيح عليه السلام فرفعه الله ونجاه من الصلب، وفي ذلك قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[٢٥٥]، فجاء سبحانه بالفعل «تقتلون» بصيغة المضارع الذي يدل على الحال أو الاستقبال، ولا شك أن لهذا دلالته، فلم يبق في الحاضر أو المستقبل نبي سوى محمد ﷺ، وفي هذا إشارة إلى أنهم سيقتلونه، ولا بد أن ذلك مذكور في إنجيل عيسى عليه السلام، فقد علم به الراهب بحيرا فقال لأبي طالب: «احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به إلى الشام، إن اليهود حسد، وإني أخشاهم عليه»[٢٥٦]، بل كانت محاولات قتله قد بدأت فعلاً، فقد روى ابن سعد أن أم النبي ﷺ لما دفعته إلى حليمة السعدية لترضعه، قالت لها: احفظي ابني، وأخبرتها بما رأت من أمور خلال فترة حمله

---

٢٥٥ سورة البقرة: ٨٧.

٢٥٦ تاريخ الإسلام، للذهبي، ج١، ص٦٠.

وولادته. فمرت حليمة وزوجها باليهود في طريقهما، فقالت: ألا تحدثوني عن ابني هذا، فإني حملته كذا ووضعته كذا ورأيت كذا، (وذكرت ما أخبرتها به أمه). فقال بعضهم لبعض اقتلوه. فقالوا: أيتيم هو؟ قالت: لا، هذا أبوه وأنا أمه (وأشارت إلى زوجها). فقالوا: لو كان يتيماً لقتلناه[٢٥٧]. قال: فذهبت به حليمة وقالت: كدت أخرب أمانتي. فالصفات مذكورة عندهم يعرفها أحبارهم ويخفونها عنهم، فقد قال الله سبحانه ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾[٢٥٨]. وكانت المحاولة الثانية بعد مؤامرة وضعت خطة محكمة لاغتياله ﷺ، إذ أرسل بنو النضير إليه أن اخرج إلينا في ثلاثين من أصحابك، ولنخرج في ثلاثين حبراً حتى نلتقي في مكان كذا وكذا، نِصْف بيننا وبينك، فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا. ثم قالوا: كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك، ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا فليسمعوا منك، فاشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى ابن أخيها، وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته فأخبر النبي ﷺ، فرجع، فلما كان الغد غدا عليهم بالكتائب فحاصرهم، وتم إجلاء يهود بني النضير[٢٥٩]. وكانت محاولة إلقاء الصخرة عليه من فوق جدار، فأخبره الوحي بها فقام وترك المكان، ثم جاءت آخر المحاولات في قصة

---

[٢٥٧] الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج١، ص١١٣.

[٢٥٨] سورة الأنعام: ٢٠.

[٢٥٩] الدر المنثور، للسيوطي، ج١، ص١٨٩.

الشاة المسمومة، فعن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان يقول في مرضه الذي مات فيه: ﴿يا عائِشَةُ ما أزالُ أجِدُ ألَمَ الطَّعامِ الذي أكَلْتُ بخَيْبَرَ، فَهذا أوانُ وجَدْتُ انْقِطاعَ أبْهَرِي مِن ذلكَ السُّمِّ﴾[٢٦٠].
وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لأن أحلفَ تسعاً أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قُتل قتلاً أحبُّ إليَّ من أحلفَ واحدةً أنه لم يقتلْ، وذلك بأن اللهَ جعله نبيّاً واتخذه شهيداً»، فقد كان الصحابة يرون ذلك زيادة في أجر النبي ﷺ ورفع درجته عند الله تعالى، وفي هذه الصورة يتجلى سر مجيء الفعل في القرآن الكريم بصيغة المضارع ﴿فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾، ولم يقل «قتلتم» فكان الخبر كما أشار إليه القرآن الكريم.
بعض المعاصرين يحاور اليهود، في مواقع الشابكة، بغير علم، فيأخذون ولا يعطون، ويتأثرون ولا يؤثرون، كمن يدخل مكاناً موبوءاً دون أن يتخذ وقاية، فيرجع وقد تعلقت به جراثيم الوباء وتغلغلت، فتجد أحدهم ينصب نفسه محامياً لهم يدافع عنهم بحماسة، وينكر جانباً مهماً من القصة وهو اختيار اليهود تحكيم سعد بن معاذ رضي الله عنه فيهم، ويقول: «ألم يكن سعد جريحاً؟ فأين جُرح؟ أليس في المعركة مع اليهود؟ فكيف يجرحونه ثم يطلبون تحكيمه فيهم آملين بأن يحفظ ودهم ويحكم لمصلحتهم»؟ وكلامهم هذا تلبيس لا صحة له، فسعد رضي الله عنه أصيب في غزوة الخندق وليس في حرب بني قريظة، وسنذكر القصة بتفاصيلها[٢٦١]:

---
[٢٦٠] صحيح البخاري، برقم ٤٤٢٨.
[٢٦١] الرحيق المختوم، ص٢٧٦ وما بعدها.

حين انصرف المشركون بعد معركة أحد، واعدوا المسلمين إلى بدر العام القابل، فذهب النبي ﷺ وأصحابه، لكن أبا سفيان رجع بقريش لجدب ذلك العام، فلما مر عام آخر خرج نفر من اليهود، منهم: سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، حتى قدموا على قريش بمكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله. فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه. قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، وفيهم أنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾[٢٦٢]. فلما قالوا ذلك لقريش سَرّهم وزاد في إيغار صدورهم، فنشطوا لما دعوهم إليه من حرب النبي ﷺ، فاجتمعوا لذلك واتّعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب النبي ﷺ، وأخبروهم أنهم يكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك واجتمعوا معهم فيه. فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن الفزاري، والحارث بن عوف بن أبي حارثة

---

[٢٦٢] سورة النساء: ٥١، ٥٢.

المري في بني مرة، ومسعر بن رخيلة الغطفاني فيمن تابعه من قومه من أشجع. فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر، استشار الصحابة، فكان اقتراح ضرب الخندق على المدينة.

وتقدم الجيش وخيّم على مشارف المدينة، وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه مقطوع الأكحل فلم يكن يشارك في قتال، وكان له أطم (حصن صغير)، فجعل النبي ﷺ أزواجه وأهله في أطمه، فجاء رجل يهودي فجعل يطوف بالحصن، فقالت صفية عمة النبي ﷺ لحسان: إن هذا اليهودي لا آمَنُهُ أَن يدل على عوراتنا (مواطن ضعف الحصن وثغراته) فانزِل إليه واقتُلْه، فقال: يغفِر الله لك يا ابنة عبد المطلب، لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا. فأخذت صفية عموداً واعتجرت بعمامة ونزلت من الحصن حتى قتلت اليهودي. فقالت: يا حسّان انزل فاسْلِبْه، فما منعني من سلبه إلا أنه رجل. فقال: ما لي بسلبه من حاجة.

عندما وصل المشركون إلى المدينة كانوا يتوقَّعون أن يقابِلهم جيش المسلمين، كما حصل في معركة أحُد، ولمَّا أرادوا أن ينشبوا القتال خرج عمرو بن ودٍّ، وعكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله على خيلهم، وقالوا: تهيَّؤوا يا بني كنانة، فستَعلمون اليوم من الفرسان. ثمَّ أقبلوا حتى إذا وقفوا على الخندق فوجئوا به وقالوا: والله هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، وراحوا يبحثون عن مكان ضيِّق ليقتحموا منه، واقتحمت بعضُ الخيل، وجالت ما بين الخندق وسَلْع، فخرج إليهم علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين وسدَّ عليهم الثَّغرة التي اقتحموا منها، وتبارَز مع عمرو

بن ود، فقتَلَه وقتل ابنَه حسل بن عمرو، وعادت الخيل مُنهزِمة، كما حاول نوفل اجتياز الخندق فسقط فيه فرماه المسلمون بالحجارة، فقال: يا معشر العرب، قتلة خير من هذه، فنزل إليه عليٌّ فأجهز عليه.

وفي هذه الأثناء انطلق سيد بني النضير حيي بن أخطب إلى ديار بني قريظة، إلى سيدهم كعب بن أسد القرظي، الذي كان قد عاقد رسول الله على أن ينصره إذا أصابته حرب، فأغلق كعب بابه دونه، فما زال يكلمه حتى فتح له، فقال حيي: إني قد جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طَامٍ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رُومَة، وبغطفان على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بذَنَب نَقْمَي إلى جانب جبل أحد، قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه. فقال له كعب: جئتني والله بذُلِّ الدهر وبجَهَامٍ قد هَرَاق ماؤه، فهو يرْعِد ويبْرِق، ليس فيه شيء. ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء. فلم يزل حيي بكعب يفْتِلُه في الذِّرْوَة والغَارِب، وأعطاه عهداً من الله وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمداً، أن أدخل معك في حصنك، حتى يصيبني ما أصابك. فنقض كعب بن أسد عهده مع المسلمين، ودخل مع المشركين في المحاربة ضدهم، وفعلاً قام بنو قريظة بعمليات الحرب، فوصل خبر خيانتهم إلى النبي ﷺ فبعث لتحقيق الخبر سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخَوَّات بن جبير، وقال لهم: «انطلقوا حتى تنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تَفُتُّوا في

أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس». فلما دنوا من بني قريظة وجدوهم على أخبث ما يكون، فقد جاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فرجعوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: «عَضَل وقَارَة» (أي إنهم كغدر عضل وقارة). وعلى رغم محاولتهم إخفاء الحقيقة فطن الناس لجلية الأمر، فتجسد أمامهم خطر رهيب، فكان أحرج موقف للمسلمين، فجيش قريش العرمرم أمامهم، ونساء المسلمين وذراريهم على مقربة من بني قريظة من دون منعة، فبدأ المنافقون يثبطون الهمم فقال أحدهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط**!** وقال آخر في ملأ من قومه للنبي ﷺ: إن بيوتنا عورة من العدو، فائذن لنا أن نرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة. وهمت بنو سلمة بالفشل، فتقنع رسول الله ﷺ بثوبه، فاضطجع ومكث طويلاً حتى اشتد على الناس البلاء، ثم نهض مبشراً يقول: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره»، ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن، فبعث الحرس إلى المدينة لحماية الذراري والنساء، وخطط لفكرة تفضي إلى تخاذل الأحزاب، بأن يصالح رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة، لينصرفا بقومهما ويخلُّوا بين المسلمين وقريش، فاستشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما في ذلك، فقالا: يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيئاً تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرىً

أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف. فَصَوَّبَ ﷺ رأيهما وقال: «إنما هو شيء أصنعه لكم لمّا رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة». وفي أثناء المناوشات أُصيبَ سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم، رماه ابن العرقة في ساعده فقُطِع أكحله، فقال: «اللهمَّ إن كنتَ أبقيتَ من حرب قريش شيئاً، فأبقني لها؛ فإنَّه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهدهم من قوم آذَوا رسولَ الله ﷺ وكذَّبوه وأخرَجوه، اللهمَّ وإن كنتَ قد وضعتَ الحرب بيننا وبينهم، فاجعلها لي شَهادة، ولا تُمتني حتى تقرَّ عيني من بني قريظة». وكان المشركون ينتظرون من بني قريظة حراكاً في الداخل كما وعدوا، لكنهم كانوا أجبن من أن يغامروا، فهم يريدون أن يقتصر عملهم على إثارة القبائل في الخارج والمنافقين في الداخل ضد النبي ﷺ وتحريضهم على قتاله وشحن نفوسهم وبعث الأمل بالنصر فيها، وإغرائهم بالمكاسب، أما أن يخرجوا إلى الميدان فيقاتلوا، فهذا أبعد من النجوم، وقد بيّن الله صفتهم تلك في قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[٢٦٣]، فهم جبناء يخافون الموت ويحرصون على الحياة، بل على أي حياة، كما يدل تنكير كلمة «حياة»، حتى لو كانت في ذل وهوان أو فقر أو مرض أو سوء سمعة، وأكثر من ذلك، إذ إنهم أحرص عليها من

---

[٢٦٣] سورة البقرة: ٩٦.

الكفار، وذلك لعلمهم أن وراءهم عذاباً شديداً.
وهنا بدأت علائم نصر الله الموعود، فجاء إلى النبي ﷺ رجل من غطفان يقال له: نعيم بن مسعود الأشجعي فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني ما شئت. فقال ﷺ: ﴿إنما أنت رجل واحد، فَخذِّلْ عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة﴾، فذهب نعيم إلى بني قريظة ـ وكان عشيراً لهم ـ فقال لهم: قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت. قال: فإن قريشاً ليسوا مثلكم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمداً فانتقم منكم. قالوا: فما العمل؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأي. ثم مضى إلى قريش وقال لهم: تعلمون ودي لكم ونصحي لكم. قالوا: نعم. قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم. ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك. فبعثت قريش إلى يهود: أنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكُرَاع والخف، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً. فأرسل إليهم اليهود: إن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن. فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، فبعثوا

إلى يهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً. فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان، ودبت الفرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم. وأرسل الله عليهم جنداً من الريح فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قِدْراً إلا كفأتها، ولا طُنُباً إلا قلعته، وقذف الرعب في قلوبهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾[٢٦٤]، ففروا إلى ديارهم، فقال النبي ﷺ: ﴿الآن نغزوهم، ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم﴾، فلما أصبح رجع هو المسلمون إلى المدينة. قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لما فرغ رسول الله ﷺ من الأحزاب دخل المغتسل ليغتسل، وجاء جبريل فرأيته من خلل البيت قد عصب رأسه الغبار، فقال: «يا محمد، أوضعتم أسلحتكم»؟ فقال: «وضعنا أسلحتنا». فقال: إنا لم نضع أسلحتنا بعد، انهد إلى بني قريظة. فنادى ﷺ بالمسلمين: ﴿لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة﴾. فلبس الناس السلاح، وخرج رسول الله ﷺ فمر بمجالس بينه وبين بني قريظة، فقال: «هل مر بكم أحد»؟ فقالوا: مر دحية الكلبي على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج، فقال: ﴿ذلك جبريل أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم، ويقذف في قلوبهم الرعب﴾، أي أن جبريل عليه السلام ظهر على صورة دحية، فما ينبغي أن يظهر الملائكة على صورهم الحقيقية، وقد بين الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ

[٢٦٤] سورة الأحزاب: ٢٥.

الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۞ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[٢٦٥]. وقدّم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومعه رايته، وابتدرها الناس. فلما رأى علي بن أبي طالب رسول الله ﷺ مقبلاً، تلقاه وقال: ارجع يا رسول الله فإن الله كافيك اليهود. وكان سمع منهم قولاً سيئاً لرسول الله ﷺ وأزواجه رضي الله عنهن، فكره أن يسمع النبي ﷺ ذلك، فقال: «أظنك سمعت فيَّ منهم أذى، فامض فإن أعداء الله لو رأوني لم يقولوا شيئاً مما سمعت». فلما نزل ﷺ بحصنهم، وكانوا في أعلاه نادى بأعلى صوته نفراً من أشرافهم حتى أسمعهم، فقال: «أجيبوا يا معشر يهود، يا إخوة القردة، قد نزل بكم خزي الله عز وجل»، فحاصرهم بكتائب المسلمين بضع عشرة ليلة، وكان حيي بن أخطب دخل معهم حصنهم، حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه. فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر، ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا بما شئتم منها. قالوا: وما هن؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدّقه، فوالله لقد تبين لكم إنه لنبي مرسل، وإنه لَلَّذي تجدونه في كتابكم، فتُأمنون به على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه فهلم، فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه، رجالاً مصلتين بالسيوف،

---

[٢٦٥] سورة الأنعام: ٨، ٩.

لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر، فلعمري لنجدن النساء والأبناء. قالوا: أنقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم عليّ هذه، فالليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمِنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة. قالوا: أنفسد سبتنا، ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا، إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عنك، من المسخ؟ فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازماً. فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، نستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقّ لهم، وقالوا يا أبا لبابة: أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح. قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ وربط نفسه في المسجد إلى عمود، وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله على ما صنعت. فقال رسول الله ﷺ حين غاب عليه أبو لبابة: «أما فرغ أبو لبابة من حلفائه؟» فذكر له ما فعل. فقال: «لقد أصابته بعدي فتنة، ولو جاءني لاستغفرت له، وإذ قد فعل هذا فلن أحركه من مكانه حتى يقضي الله فيه ما يشاء. ونزل ﷺ على بئر من آبار بني قريظة، من ناحية أموالهم، يقال لها بئر أنى، فحصرهم خمساً وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت

الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت، يعنون عفوه عن بني قينقاع، حين سأله فيهم عبد الله ابن أبيّ. فقال ﷺ: «يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم»؟ قالوا: بلى. قال: «فذلك إلى سعد بن معاذ». وكان جعل سعد بن معاذ في خيمة في مسجده لامرأة من أسلم يقال لها رفيدة كانت تداوي الجرحى، فلما حكّمه في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار، وهم يقولون: يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: «قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم». فرجع بعض من كان معه من قومه فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد، وذلك من كلمته التي سمعوا منه، فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم». فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، إن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم. قال: وعلي من ها هنا في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: «نعم». قال سعد: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء. فقال ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[٢٦٦]. وقيل إن بني قريظة لما نزلوا إنما نزلوا على حكم سعد بن

---

[٢٦٦] البداية والنهاية، لابن كثير، ج٤، ص١٣٦ وما بعدها.

معاذ، وكان جرح سعد يقطر دماً، فلما دعا: «اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة» استمسك عرقه فما قطر قطرة حتى نزلوا على حكمه، وكانوا أربعمئة، فلما فرغ من قتلهم انفتق عِرْقُه، وفي المسجد خيمة من بني غفار، فلم يرَعْهُم إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا هو سعد يغدو جرحه دماً فمات منها رضي الله عنه وأرضاه[٢٦٧].

وباستعراض القصة كاملة نبين لمن نصّب نفسه محامياً عن اليهود أن سعد بن معاذ رضي الله عنه لم يصب في حرب مع اليهود وإنما مع الأحزاب، وأن رواية نزولهم على حكمه – التي كذّبوها – إلى جانبها رواية أنهم نزلوا على حكم النبي ﷺ فحكّم فيهم سعداً، وفي ذلك تدحض حجتهم بتكذيبهم الرواية، فحتى لو لم يكونوا نزلوا على حكم سعد فقد نزلوا على حكم النبي ﷺ، فحكّم فيهم سعداً، وهم يعلمون أن مصيرهم الذبح، فقد أخبرهم بذلك أبو لبابة من قبل، ومع ذلك رفضوا نصح كعب بن أسد بالإسلام واتباع محمد ﷺ وقد علموا أنه نبي مرسل من الله، وكذلك جبنوا عن القتال واستسلموا، لأنهم ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾[٢٦٨]، فظنوا أن يشفع فيهم حلفاؤهم، لكن سعداً رضي الله عنه خيّب آمالهم، فلم يمل إلى أهل الدنيا في حكمه، وانحاز إلى الحق فحكم فيهم حكم الله تعالى. وبعد هذه النهاية التي قُتل فيها حيي بن أخطب شهدت

---

[٢٦٧] مسند أحمد بن حنبل، ج ٣، ص٣٥٠.
[٢٦٨] سورة الحشر: ١٤.

ابنته السيدة صفية بنت حيي رضي الله عنها للنبي ﷺ بأن أباها وعمها أبا ياسر اعترفا سراً بأنه ﷺ نبي مرسل، لكنهما اتفقا على معاداته[٢٦٩]، وقد آمنت به السيدة صفية قبل أن تراه وقبل هذه الأحداث، وذلك من حديث أبيها وعمها عنه، لكن لم يكن أمرها بيدها، فقد كانت زوجة لرجل من يهود، فأكرمها الله سبحانه بأن زوّجها للنبي ﷺ وجعلها أماً للمؤمنين. وقد زكاها رسول الله ﷺ حين مرض مرضه الأخير، إذ دخلت عليه حزينة، وعنده أزواجه، فقالت: «إني واللهِ يا نبيَّ اللهِ لوددتُ أنَّ الذي بك بي»، فغَمْزْنَ أزواجُه ببصرِهِنَّ، فقال لهن النبي ﷺ: ﴿مَضْمِضْنَ﴾، فقلن: «من أيِّ شيءٍ»؟ فقال: ﴿من تغامُزِكِنَّ بها، واللهِ إنها لصادقة﴾[٢٧٠]. وحين قامت الفتنة وحوصر أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه في داره قدمتْ على بغلةٌ لِتَرُدَّ عنه، فلقيها الأشتر مالك بن الحارث النخعي، فضرب وجه بغلتها حتى مالت، فقالت: «ردُّوني لا يفضحني هذا»! ثم وضعت خشباً من منزلها إلى منزل عثمان تنقل عليه الماء والطعام له ولزوجته وخدمه. وقد كانت آخر زوجات النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مَوتاً. وقد كانت بعض نساء النبي ﷺ يغرن منها، حتى إن عائشة رضي الله عنها تقول: ما رأيتُ صانعةً طعاماً مثلَ صفيَّةَ، أَهْدَتْ إلى النبيِّ ﷺ إناءً مِن طعامٍ، فما مَلَكْتُ نفسي أن كَسَرْتُه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما كفارتُه؟ قال: إناءٌ كإناءٍ، وطعامٌ كطعامٍ.

---

[٢٦٩] سبق برقم ١٣٩.

[٢٧٠] الطبقات الكبرى، لابن سعد، ج ٨، ص١٢٩.

وتقول السيدة صفية رضي الله عنها: دخل علي رسول اللَّه ﷺ وقد بلغني عن عائشة وحفصة قولهما: «نحن أكرم على رسول اللَّه ﷺ منها، نحن أزواجه وبنات عمه»، فذكرت له ذلك، فقال: ﴿أَلَا قُلتِ: وكيف تَكونانِ خَيرًا منِّي، وزَوجي محمَّدٌ، وأبي هارونُ، وعَمِّي موسى﴾[٢٧١]؟!

وذكر الترمذي أن حفصة قالت في صفية، رضي الله عنهما: «بنت يهودي» فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك»؟ قالت: «قالت حفصة إني ابنة يهودي». فقال ﷺ: ﴿وإنَّكِ لابنةُ نَبِيٍّ وإنَّ عمَّكِ لنبيٌّ وإنَّكِ لتحتَ نبيٍّ، ففيمَ تفخرُ عليكِ؟ ثمَّ قالَ اتَّقي اللَّهَ يا حفصةُ﴾[٢٧٢].

لقد كان إسلامها، رضي الله عنها، حجة دامغة على اليهود، فقد أقرت بعلمها بأنه نبي وأن قومها تواطؤوا على تكذيبه عنتاً وعصبية، وهم يعلمون أنه رسول الله، وقد آمنت هي به قبل كل هذه الأحداث، ولم تكن في إسلامها منافقة ولا مداهنة ليدّعي أحد أنها فعلت لذلك لتنجو من القتل، أو لأنها لم يبق لها أحد من الأقارب، وكان النبي ﷺ قبل أن يتزوجها أمّلها بالعتق، وخيرها فاختارت أن تكون زوجته، وشهد لها ﷺ بصدقها وإخلاصها له في تمنيها المرض بدلاً منه، بل أقسم على ذلك، كما شهد بثباتها على إيمانها وإسلامها موقفها من عثمان رضي الله عنه، وشهد لها ما رواه ابن عبد البر، إذ إن جاريةً لها أتت عمر بن الخطاب رضي الله

---

[٢٧١] سنن الترمذي، برقم ٣٨٩٢.

[٢٧٢] المصدر السابق، برقم ٣٨٩٤.

عنه في خلافته، فقالت: «إن صفيَّة تحبُّ السبت وتَصِلُ اليهود». فبعث إليها عمر فسألها، فقالت: «أمَّا السبت فإنّي لم أحبّه منذ أبدلني الله به يوم الجمعة، وأمَّا اليهود فإن لي فيهم رحماً وأنا أَصِلُها». ثم قالت للجارية: «ما حملك على ما صنعتِ»؟ فقالت: «الشيطانُ». فقالت رضي الله عنها: «اذهبي فأنت حُرَّة»! ما أعجب هذا الموقف! أهذا كرم نفوس اليهود أم كرم نفوس أهل بيت النبوة عليهم السلام؟

ثم يأتي جاهل أو نصف مثقف ليقول: إن محمداً كان يقتل الناس ليتزوج بناتهم! هذه ابنة رجل قتله ﷺ، هذه سيرتها وهذا عملها وهذا كرم نفسها وحبها للنبي ﷺ الذي قتل أباها، التاريخ مفتوح أمامك فاقرأه، لتقرأ أن أباها لم يقتله النبي ﷺ وإنما قتله إعراضه عن الحق على رغم يقينه به، وقتلته خيانته لله أولاً حين شارك في تأليب قريش وقبائل من العرب على استئصال شأفة النبي ﷺ والمسلمين، ثم تحريضه كعب بن أسد وبني قريظة ودفعهم إلى نقض عهدهم مع النبي وخيانته، وقتله عنته وتعصبه لقومه المفترين على الأنبياء، ولتوراته المحرف، لذلك لم تحزن عليه ابنته صفية رضي الله عنها، وأعزها الله بصدق إيمانها وانحيازها إلى الحق ورفع قدرها في الدنيا والآخرة.

تعدد زوجات النبي ﷺ

يقف بعضهم ليقول إن النبي ﷺ رجل شهواني، لم يكتف بامرأة واحدة وإنما تزوج إحدى عشرة امرأة، ولو تيسر له أكثر لما رفض، بدليل أنه طلق اثنتين يوم دخوله عليهما حين وجد في إحداهما برصاً، والأخرى خدعتها النساء فقلن لها إنه ﷺ يحب إذا دخل على عروسه أن تقول له: «أعوذ بالله منك»، فلما فعلت ذلك قال لها: «عذت بعظيم» وأرجعها إلى أهلها. إضافة إلى أنه أباح لنفسه مخالفة دينه (الإسلام) الذي لم يسمح بأكثر من أربع نساء، حتى إن بعض أصحابه كانت لديه خمس نساء فأمره بتطليق الخامسة، بل إنه لم يكتف بذلك حتى تزوج طليقة زيد الذي تبناه، وزوجات الأبناء حرام على الآباء في الإسلام!

وسنناقش هذه الاتهامات كلاً على حدة.

قالوا: رجل شهواني:

الشهوة فطرة أوجدها الله سبحانه في الإنسان، وهي الدافع الأول والسبيل الوحيدة لاستمرار التناسل في النوع الإنساني، ونشوء المجتمعات وانتشار البشرية، لكن الله سبحانه وضع عليها قيوداً وجعل لها ضوابط تحفظ الأنساب والقيم الإنسانية والاجتماعية وتدرأ عن المجتمعات الأمراض التي لم تكن في أسلافهم كالإيدز. وغياب الشهوة من الإنسان دليل على نقص في رجولته، وذلك عُرْفٌ في كل المجتمعات، يستثنى من ذلك نبي الله يحيى الذي أراد الله أن يجعله «حصوراً» إن صح تفسير كلمة

«حصور» بهذا المعنى. كما أن ظهور الشهوة في الرجل دليل على بلوغه مبلغ الرجال وعلامة اكتمال رجولته، فمن لم يكن لديه ميل وشهوة للنساء – كما قال الداعية العلامة أحمد ديدات رحمه الله – فليراجع طبيباً نفسياً؛ لأنه لديه مشكلة تحتاج إلى معالجة، لأنه فاقد لصفة من صفات الإنسان الطبيعي. والنبي ﷺ من أولي العزم، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾[٢٧٣]، وأنه ﷺ ﴿كانَ يَطُوفُ علَى نِسائِهِ في اللَّيْلَةِ الواحِدَةِ، وله يَومَئذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ﴾[٢٧٤]، فلم يكن يغمط إحداهن حقها.

وقالوا: ولم يكتف بامرأة واحدة:

جاء في العهد القديم:

«١ وَأَحَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ نِسَاءً غَرِيبَةً كَثِيرَةً مَعَ بِنْتِ فِرْعَوْنَ: مُوآبِيَّاتٍ وَعَمُّونِيَّاتٍ وَأَدُومِيَّاتٍ وَصِيدُونِيَّاتٍ وَحِثِّيَّاتٍ ٢ مِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمُ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: «لاَ تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ لاَ يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ، لأَنَّهُمْ يُمِيلُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ». فَالْتَصَقَ سُلَيْمَانُ بِهؤُلاَءِ بِالْمَحَبَّةِ. ٣ وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ»[٢٧٥].

فذُكر أنه كان لنبي الله سليمان عليه السلام ألف امرأة، ومع ذلك لم نسمع أحداً يتهمه بأنه شهواني أو يعترض على جمعه ألف امرأة، ربما لأن ذلك

---

[٢٧٣] سورة الأحقاف: ٣٥.

[٢٧٤] صحيح البخاري، برقم ٥٢١٥.

[٢٧٥] سفر الملوك الأول، الأصحاح الحادي عشر، ١-٣.

يعني «معاداة السامية»، وليس لأن المدّعي يعمل لمصلحة اليهود أو بإدارتهم أو أنه يخاف أن ينالوه بسوء.

الحروب تفترس الرجال، والحوادث تعطب وتغيب كثيراً منهم، والنساء أطول أعماراً من الرجال وأكثر عدداً، ففي ١٥/ حزيران (يونيو) ٢٠١٩ نشر موقع «سكاي نيوز» مقالة بعنوان: «٢,٢ مليار ذكر مقابل ٥,٦ مليار أنثى حقيقة عدد سكان الأرض»، أي أن كل ذكر تقابله ثلاث إناث تقريباً، والسؤال: إذا تزوج كل رجل بواحدة فأين تذهب الاثنتان المتبقيتان؟ أي تبقى عندنا ثلاثة مليارات وأربعمئة مليون أنثى بلا زواج! هذا إذا استثنينا الذين لا يقدرون على الزواج أو الذين ترهّبوا وأعرضوا عن الزواج والذين لا يرغبون فيه أصلاً، فما الحل؟ هل هناك حل سوى أن يتزوج الرجل أكثر من واحدة؟ لقد كان الأنبياء أولى الخلق بالعمل على تحقيق المساواة وأداء الحقوق الإلهية والحقوق الإنسانية معاً، ولا ريب أن زواج النبي ﷺ بأكثر من امرأة يدفع أتباعه إلى التأسي به فيعملون بعمله، وبذلك تحل مشكلة العنوسة العالمية. وليس خطأ أن يتزوج المرء أكثر من زوجة، ولكن الخطأ أن يتخذ خليلات أو عشيقات يرتكب معهن الفاحشة بعيداً عن نظر الإعلام الذي يتغافل عن رجل يعاشر عدداً من النساء بالحرام، ويلتفت إلى نبي أو رجل صالح تزوج أكثر من امرأة زواجاً شرعياً! هذه سنة الله الذي خلق الناس فأحصاهم، وهو يعلم كم نسبة الرجال إلى النساء، وأن التعداد حل وحيد لمشكلة العنوسة، وجبر خواطر الإناث اللائي لم يبق لهن رجل يتزوجنه لو اكتفى كل رجل بواحدة. فجواز التعداد

وتحديده بأربع جاء من الله العالم بخلقه الذي ﴿أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾[٢٧٦] وعلم العدد الملائم في عملية «النسبة والتناسب» فأحل لعباده ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[٢٧٧]، وإذا كانت النسبة البشرية ثلاث نساء مقابل رجل، كما أسلفنا، فمن اكتفى بواحدة فإنه سيترك اثنتين بلا زواج، ومن اكتفى باثنتين فسيترك واحدة بلا زواج، فيجبر هذا الخلل من يتزوج بأربع. هكذا هو الحساب الرباني، ففي الحديث الشريف ﴿الخلْقُ كلُّهم عيالُ اللهِ فأحَبُّ الخلْقِ إلى اللهِ أنفَعُهُمْ لِعيالِهِ﴾[٢٧٨]، فالله لم يطعم المسلم ويحرم الكافر، فهو خالقهم جميعاً ومتكفل بأرزاقهم من كل شيء، ونظره سبحانه على الجميع يدبر أمورهم. وقد جعل سبحانه العدل شرطاً للتعداد، فمن خشي ألا يعدل فليكتف بواحدة. هكذا التنظيم الإلهي القائم على العلم بخفايا النفوس وشهواتها وبأعداد خلقه ونسبة ذكورهم إلى إناثهم، وإحصاؤه دقيق وحلوله موزونة، فمن زاد على أربع فقد ظلم وأخذ ما ليس حقاً له في القسمة الإلهية.

وقالوا: جمع أكثر من أربع نساء

كان الناس في الجاهلية يتزوجون عدداً لا حدود له من الزوجات، بقدر سعة المال والعزم لدى الرجل، وقد نهى الله سبحانه عباده عن الجمع بين أكثر من أربع زوجات، وأنزل ذلك بوحي يوحى وقرآن يتلى، ومع ذلك

---

[٢٧٦] سورة الجن: ٢٨.

[٢٧٧] سورة النساء: ٣.

[٢٧٨] مجمع الزوائد، للهيثمي، ج٨، ص١٩٤.

فإن النبي ﷺ تزوج ثلاث عشرة امرأة، طلق اثنتين قبل الدخول بهما، ودخل بإحدى عشرة، وتوفي عن تسع زوجات وجاريتين: مارية القبطية، التي اختلف في كونه ﷺ أعتقها أم لم يفعل، فإن لم يكن فعل فإنها عتقت بوفاته لأنها أم ولده إبراهيم. وريحانة القرظية التي اختارت أن تبقى جارية لا زوجة فلا تُلزمه ﷺ تبعات الزوجية، فقال هؤلاء: إن النبي لم يخضع للتشريع الذي أنزل عليه في حين خضع له الصحابة ومن بعدهم!

وهذا الكلام صحيح لا غبار على ظاهره، إلا أن فيه ما أخفوه، وهو أن النبي ﷺ غير مناط بمضمون الآية ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾، فعندما نزلت هذه الآية كان لدى النبي ﷺ أكثر من خمس زوجات، فما الحكم؟ لقد أنزل الله سبحانه آيات خاصة بعدد أزواج النبي ﷺ، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[٢٧٩] فعندما نزلت هذه الآية كان لدى النبي ﷺ تسع زوجات، وبذلك لم يدخل في حكم وجوب الاقتصار على أربع نساء، وإنما جعل الله له أحكاماً خاصة به، فزوجاته أمهات المؤمنين لا يحل لأحد أن يتزوجهن

[٢٧٩] سورة الأحزاب: ٥٠.

من بعده، وكذلك أخضعه الله سبحانه لحكم خاص به مع أزاوجه تختلف عن أحكام الآخرين، فكل رجل قادر على تطليق نسائه أو من شاء منهن واستبدالها بأخرى مكانها، أما النبي ﷺ فقد أنزل الله عليه ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً﴾[٢٨٠]، ومع أن هذه الآية نسخ حكمها فإنه ﷺ لم يطلق ولم يستبدل ولم يتزوج بعدهن. وقد يسأل سائل: لماذا لا يسع النبي ﷺ ما وسع غيره من المسلمين؟ فنسأله بدورنا: ولماذا لا يسعه ما وسع الأنبياء الآخرين مثل سليمان عليه السلام الذي كانت له ألف زوجة كما قيل؟ وإذا كانت زوجاته رضي الله عنهن لهن أحكام مختلفة عن غيرهن ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً﴾[٢٨١] فمن باب أولى أن يكون هو ﷺ له أحكام خاصة وليس كأحد من العالمين. ومع ذلك فمن وراء زواجه بكل واحدة من زوجاته ﷺ حكمة، وكلهن كنّ متزوجات من قبله إلا السيدة عائشة رضي الله عنها تزوجها بكراً.

---

[٢٨٠] المصدر السابق: ٥٢.

[٢٨١] المصدر السابق: ٣٢.

الحكمة من بعض زواجاته ﷺ

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: ﴿كُنَّا مع النبيِّ ﷺ في غَزْوَةٍ، فَلَمَّا قَفَلْنَا، كُنَّا قَرِيباً مِنَ المَدِينَةِ، تَعَجَّلْتُ علَى بَعِيرٍ لي قَطُوفٍ، فَلَحِقَنِي رَاكِبٌ مِن خَلْفِي، فَنَخَسَ بَعِيرِي بعَنَزَةٍ كَانَتْ معهُ، فَسَارَ بَعِيرِي كَأَحْسَنِ ما أنْتَ رَاءٍ مِنَ الإبِلِ، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا أنَا برَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنِّي حَديثُ عَهْدٍ بعُرْسٍ، قَالَ: أتَزَوَّجْتَ؟ قُلتُ: نَعَمْ، قَالَ: أبِكْراً أمْ ثَيِّباً؟ قَالَ: قُلتُ: بَلْ ثَيِّباً، قَالَ: فَهَلَّا بِكْراً تُلَاعِبُهَا وتُلَاعِبُكَ قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا ذَهَبْنَا لِنَدْخُلَ، فَقَالَ: أمْهِلُوا، حتَّى تَدْخُلُوا لَيْلاً - أيْ عِشَاءً - لِكَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ، وتَسْتَحِدَّ المُغِيبَةُ﴾[٢٨٢]. فالنبي ﷺ لم يكن يجهل أن البكر أفضل من الثيب في العلاقة الزوجية، ومع ذلك لم يتزوج بكراً غير واحدة، وهذا ينفي أن زواجاته كانت لأجل الشهوة المحضة، ولعلنا نضع أيدينا على شيء من الحِكم وراء ذلك:

حكمة سياسية:

أسلمت أم المؤمنين سودة بنت زمعة، رضي الله عنها، هي وزوجها ابن عمها السكران بن عمر رضي الله عنه، منذ بداية الدعوة، فلما اشتد التضييق على المستضعفين من المسلمين هاجرا إلى الحبشة في من هاجر من الصحابة، فلما بلغهم الخبر المكذوب عن إسلام قريش (يوم سجدوا مع

---

[٢٨٢] صحيح البخاري، برقم ٥٢٤٧.

النبي ﷺ عند قراءته آية ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾[٢٨٣]التي ذكرناها في الحديث عن فرية الغرانيق[٢٨٤]، عادت في من عاد إلى مكة بصحبة زوجها وابنهما، وبعد مدة وجيزة توفي ابن عمها السكران ليتركها وولدها في مجتمع كافر لم تسلم من أذاه حين كان زوجها قائماً فوق رأسها، فكيف بعد أن مات؟ ومن يتصدى لحمايتهما والإنفاق عليهما وقد بلغت من العمر ستاً وستين عاماً، وأبوها وأخوها ما يزالان على دين الشرك؟ فلمَّا انقضت عدتها خطبها رسول الله ﷺ وتزوَّجها ليبسط حمايته عليها وعلى ابنها. ولا ريب أن من يتزوج امرأة مسنة لم يأت بدافع شهوة، وإنما أراد أمراً آخر، فإذا علمنا أنها كانت فقيرة مستضعفة أيقنا بأن ذلك الزواج كان لمصلحتها وبسط الحماية عليها ورعايتها، فلا يجرؤ أحد على المساس بها لأن بني هاشم يحمون ابنهم وأهله.

حكمة المواساة:

أسلمت أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، رضي الله عنها، مع زوجها عبيد الله بن جحش منذ بداية الدعوة، وهاجرا إلى الحبشة فراراً من أذى المشركين، وبعد فترة وجيزة من الهجرة توفي زوجها، وقيل إنه تنصّر وعكف على الخمر فمات، فأضحت وحيدة في غربتها، وأبوها وأمها وإخوتها ما يزالون على الشرك وعداوة النبي ﷺ ودينه وأصحابه،

---

[٢٨٣] سورة النجم: ٦٢.

[٢٨٤] تم التفصيل فيها ص٨٦.

فإذا رجعت لقيت من أهلها الضغط والشدة وربما التعذيب، وإذا بقيت هناك فقد بقيت بلا رجل يحميها ويقوم لها بحوائجها، فأصبح الحزن حزنين إن لم يكن ثلاثة، حزن الغربة وحزن الترمل والفقد، فإذا صحت ردة زوجها قبل موته كان الحزن الثالث. فلما جاء الخبر وانقضت عدتها أرسل النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري رسولاً إلى النجاشي يحمله طلباً في أن يخطبها، فكان في ذلك أعظم تعزية لها ومواساة في ما لقيت من قسوة الأحوال بعد الأذى والتضييق في مكة وقسوة الهجرة ثم الغربة ثم موت الزوج، فبعد أن صارت أرملة وحيدة في دار غربة أصبحت أم المؤمنين وزوجة النبي ﷺ، وبذلك صارت حارمة على الصحابة وأماً لهم يقومون بحاجاتها ويحمونها. تقول رضي الله عنها: فما شعرت إلاَّ برسول النجاشي على بابي يستأذن، فإذا جارية له يقال لها «أبرهة»، فدخلَتْ علَيَّ فقالت: يقول لكِ المَلِكَ: إن رسول الله ﷺ كتب إلَيَّ أن أُزَوِّجَكه. فقالت: بشَّركِ الله بخير. قالت: فالملك يقول لك: وكِّلي مَنْ يُزَوِّجك. فأرسلتْ إلى خالدَ بن سعيد بن العاص، وهو من أبناء عمومتها، فوكَّلَتْه، وأعطتْ أبرهة سوارَيْن من فضة وخَدَمتَين كانتا في رجليها وخواتيم فضة كانت في أصابع رجليها؛ بشارةً لها بهذا الخبر. فلمَّا كان العشيّ أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومَنْ هناك مِن المسلمين فحضروا، فخطب النجاشي فقال: الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أنْ لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وأنه الذي بشَّر به عيسى بن مريم، أمَّا بعد، فإن رسول الله ﷺ كتب إلَيَّ أن أزوجه أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبتُ

إلى ما دعا إليه رسول الله، وقد أصدقْتُها أربعمئة دينار. ثم سكب الدنانير بين يدي القوم. تقول رضي الله عنها: فلمَّا وصل إلَيَّ المال أرسلتُ إلى أبرهة التي بشَّرتني، فقلتُ لها: إنِّي كنتُ أعطيتُك ما أعطيتُك يومئذٍ ولا مال بيدي، فهذه خمسون مثقالاً، فخُذيها فاستعيني بها. فأبتْ وأخرجتْ حُقّاً فيه كل ما كنتُ أعطيتُها فردَّتْه عليَّ، وقالت: عزم عليَّ الملك أن لا أَرْزَأَكِ شيئاً، وأنا التي أقوم على ثياب الملك ودهنه، وقد اتّبعتُ دين محمد رسول الله ﷺ وأسلمتُ لله سبحانه وتعالى، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر. قالت: فلمَّا كان الغد جاءتني بعُودٍ، ووَرَسٍ، وعنبر وزبَّادٍ كثير، فقَدِمْتُ بذلك كلِّه على رسول الله ﷺ، فكان يراه علَيَّ وعندي فلا ينكره. ثم قالت أبرهة: فحاجتي إليك أن تقرئي على رسول الله ﷺ منِّي السلام، وتُعلميه أنِّي قد اتَّبعتُ دينه. قالت: ثم لطفتْ بي وكانت التي جَهَّزتني، وكانت كلَّما دخلت علَيَّ تقول: لا تنسَيْ حاجتي إليك. قالت: فلمَّا قَدِمْتُ على رسول الله ﷺ أخبرْتُه كيف كانت الخطبة، وما فعلَتْ بي أبرهة، فتبسَّم، وأقرأْتُه منها السلام، فقال: «وَعَلَيْهَا السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ».

حكمة دعوية:

تُعدُّ غزوة بني المصطلق (المريسيع) من الغزوات المباركة التي أسلمت إثرها قبيلة بأكملها، وكان بنو المصطلق قد شاركوا قريشاً في معركة أحد، فبلغ النبي ﷺ أن سيِّدهم الحارث بن أبي ضرار سار في قومه، وبعض من

حالفه من العرب، يريدون حرب المسلمين، وقد ابتاعوا خيلاً وسلاحاً، واستعدوا للهجوم على المدينة، فبعث النبي ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي ليستطلع له خبر القوم، فرجع بريدة وأكد للنبي ﷺ صحة الأخبار، فأسرع في الخروج إليهم في سبعمئة مقاتل وثلاثين فارساً، وحيث إنهم كانوا ممن بلغتهم دعوة الإسلام، أغار عليهم وهم غارُّون (غافلون) وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى سبيهم. وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث بن ضرار سيِّد بني المصطلق، فلما قسم الفيء وقعت في سهم ثابت بن شماس رضي الله عنه، ولأنها ابنة سيد قومها أبت على نفسها ذل السبي، فطلبت من ثابت أن يكاتبها، أي تشتري نفسها منه، وتكتب له عهداً بالسداد، لأنها ليس لها مال في الأسر، فوافق ثابت، فجاءت إلى النبي ﷺ تستعينه على مكاتبتها، فقال لها: ﴿فهل لك في خير من ذلك؟﴾ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: ﴿أقضي عنك كتابك وأتزوجك﴾[٢٨٥]. قالت: نعم يا رسول الله، قد فعلت. فخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، فأطلقوا من في أيديهم من سبايا بني المصطلق وأسراهم، فأعتق تزويجه إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق، تقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها: «فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها». فقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن يتزوج النبي السيدة جويرية رضي الله عنها،

---

[٢٨٥] مسند أحمد بن حنبل، برقم ٢٦٣٦٥.

لتصبح أم المؤمنين، فيستحيي الصحابة رضي الله عنهم أن يسبوا قوم أمهم، ولا وقد وجد الإحسان إليهم رد فعل إيجابي، فأسلموا على إثر الحادثة، فغاية الأنبياء عليهم السلام دعوة الناس إلى الله وإرشادهم إلى دينه القويم، ولم تكن غاية النبي محمد ﷺ من الغزو إلا التبليغ، ولولا أن بني المصطلق تجهزوا لحربه لم يكن ليغزوهم فجأة من دون دعوة إلى الإسلام، مع أنهم حاربوه إلى جانب قريش يوم أُحُد، وبهذه الحكمة تحققت الغاية وهي إسلامهم.

حكمة إنسانية أخلاقية

مر بنا زواج النبي ﷺ بأم المؤمنين السيدة صفية بنت حيي رضي الله عنها، ولكن لا بد لنا من وقفة قصيرة عندها.

كانت رضي الله عنها، على رغم صغر سنها، تزوجت مرتين قبل إسلامها، تزوجها سلامة بن مكشوح القرضي، وقيل سلام بن مشكم، فارس قومها ومن كبار شعرائهم، ثم تزوّجها كنانة بن أبي الحقيق الذي قتل مع أبيها يوم خيبر. فلم يبق لها أحد بعدهما، وكان دحية الكلبي رضي الله عنه قد اختارها لنفسه، فقال الصحابة رضي الله عنهم هذه ابنة سيد قومها، ولا تليق إلا بالنبي ﷺ، فلما أخبروه بها، وهو يعلم أنها من ذرية نبي الله هارون، رأى أن من إكرامها وإعزازها ورفع مكانتها لنسبها ألا يعطيها لأحد فتبقى تحت وطأة السبي، أو ينتقص أحد من قدرها يوماً ما، إلى جانب تعويضها خيراً ممن فقدت من أهلها وقومها، فخيَّرها بين الإسلام

والبقاء على دينها قائلاً لها: «اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي (أي يتزوَّجها)، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك»، فكان الجواب العظيم منها الذي ينم عن عقل وحكمة ونبل نفس، إذ قالت: يا رسول الله، لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني؛ حيث صرت إلى رحلك وما لي في اليهودية أرب، وما لي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام، فالله ورسوله أحب إليَّ من العتق وأن أرجع إلى قومي[٢٨٦]، وكما اختارت الله وهويت الإسلام من قبل، اختارت رسوله لتصبح أماً للمؤمنين، ابنة نبي وزوجة نبي وعمها نبي، صلى الله وسلم عليهم أجمعين. وبلغ من إكرام النبي ﷺ لها، فعن أنس بن مالك قال: ﴿فَرَأَيْتُ النبيَّ ﷺ يُحَوِّي لَهَا ورَاءَهُ بعَبَاءَةٍ، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ فَيَضَعُ رُكْبَتَهُ، وتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا علَى رُكْبَتِهِ حتَّى تَرْكَبَ﴾[٢٨٧].

حكمة أخلاقية اجتماعية

أسلمت أم سلمة وزوجها عبد الله بن عبد الأسد المخزومي في بداية الدعوة الإسلامية، ولقيا من أذى المشركين ما دفعهما إلى الهجرة إلى الحبشة، ثم عادا من الحبشة، وحين أرادا الهجرة إلى المدينة المنورة منعها قومها، فهاجر أبو سلمة رضي الله عنه هو وابنه سلمة، ثم لحقت به، فلما كانت

---

[٢٨٦] سبق تخريجه برقم ١٣٩.
[٢٨٧] صحيح البخاري، برقم ٤٢١١.

معركة أحُد أصيب زوجها إصابة بليغة، ثم مات بعد ذلك، تاركاً لها عبء ستة أولاد، بعد هذه الرحلة المضنية في سبيل الله.

ومن الذي يرضى أن يتزوج امرأة لديها ستة أولاد ليقوم بأعباء هذه الأسرة؟ وهل يصح ترك امرأة في السابعة والعشرين من عمرها بلا زوج وهي صاحبة التاريخ الجهادي المشرف والتضحيات في سبيل الله، ثم جاءتها مصيبة الفقد التي قوضت بيتها ورملتها ويتّمت أطفالها، وكل ذلك في سبيل الله؟ لا يرضى الصحابة الكرام هذا، فتقدم لخطبتها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فردته من أجل أولادها، فخطبها عمر الفاروق رضي الله عنه، فردته للسبب ذاته، وهنا جاءت الحكمة الإلهية لتحل هذه المشكلة، تقول رضي الله عنها: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ، فقال: لقد سمعتُ من رسول الله ﷺ قولاً سُرِرْتُ به. قال: ﴿ما مِن مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فيَقولُ ما أمَرَهُ اللَّهُ: ﴿إنَّا لِلَّهِ وإنَّا إلَيْهِ راجِعُونَ﴾[٢٨٨] اللَّهُمَّ أْجُرْنِي في مُصِيبَتِي، وأَخْلِفْ لي خَيْرًا مِنْها، إلَّا أخْلَفَ اللَّهُ له خَيْرًا مِنْها﴾[٢٨٩]. فلمَّا تُوُفِّي أبو سلمة استرجعتُ، وقلتُ: اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها. ثم رجعتُ إلى نفسي فقلتُ: مِن أين لي خيرٌ من أبي سلمة؟ فلمَّا انقضَتْ عدَّتي استأذن عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهاباً لي، فغسلتُ يدي من القرظ وأذنتُ له، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف، فقعد عليها، فخطبني إلى نفسي، فلمَّا فرغ من مقالته قلتُ: يا رسول الله،

---

[٢٨٨] سورة البقرة: ١٥٦.

[٢٨٩] صحيح مسام، برقم ٩١٨.

ما بي ألّا تكون بك الرغبة فيَّ، ولكني امرأة بي غَيرة شديدة، فأخاف أن ترى منِّي شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلتُ في السن وأنا ذات عيال. فقال: ﴿أَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْغَيْرَةِ فَسَوْفَ يُذْهِبُهَا اللَّهُ تعالى مِنْكِ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ السِّنِّ فَقَدْ أَصَابَنِي مِثْلُ الَّذِي أَصَابَكِ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْعِيَالِ فَإِنَّمَا عِيَالُكِ عِيَالِي﴾[٢٩٠]. فقالت: فقد سَلَّمْتُ لرسول الله ﷺ. قالت: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه؛ رسولَ الله ﷺ. وذكر الهيثمي عن زينب بنت أبي سلمة أن النبي ﷺ ضم إليه يوماً الحسن والحسين وفاطمة، وقال: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾، فبكت أم سلمة وكانت ابنتها زينب معها، فسألها عن بكائها، فقالت: «يا رسول الله، خصصتهم وتركتني وابنتي». فقال: ﴿أَنْتِ وَابْنَتُكِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ﴾[٢٩١]. وزوج النبي ﷺ ابنها سلمة بأمامة بنت عمه الحمزة أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء، رضي الله عنه وأرضاه.

ومثل زواجه ﷺ بأم سلمة كان زواجه بزينب بنت خزيمة رضي الله عنها أرملة أول الشهداء في معركة بدر، ابن عم النبي ﷺ عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وتوفيت بعد زواج النبي ﷺ بها بنحو ثمانية أشهر، وكأن الله سبحانه أراد أن يكرمها بشرف أن تكون أماً للمؤمنين قبل أن يتوفاها. ثم تزوج النبي ﷺ أختها لأمها ميمونة بنت الحارث. فأمها هند بنت عوف قيل فيها إنها أكرم العرب أصهاراً، فقد تزوجها ثلاثة: خزيمة بن الحارث

---

[٢٩٠] مسند أحمد بن حنبل، برقم ١٦٣٨٨.

[٢٩١] مجمع الزوائد، للهيثمي، ج٤، ص١٦٤.

والد أم المؤمنين زينب بنت خزيمة، وبعده تزوجت الحارث بن حزن والد أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث، وبعده تزوجت عميس بن معد، فأنجبت منه أسماء بنت عميس، وأروى بنت عميس، فكان أصهارها: النبي محمد ﷺ، وعمه الحمزة، وعمه العباس، وأبو عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وجعفر بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وصاهرها في الجاهلية الوليد بن المغيرة فكانت جدة ابنه خالد سيف الله.

حكمة توفيقية:

لم يكن الصحابة رضي الله عنهم يتركون الأرملة طويلاً بعد انقضاء عدتها، وذلك لضرورة معيشتها في كنف رجل يحميها ويقوم بحاجاتها، فمن لم يكن يخطبها يذكرها لغيره عساه يتزوجها.

وكانت أم المؤمنين السيدة حفصة، رضي الله عنها، تزوجت خُنَيْس بن حذافة السهمي، وأسلما في مكة منذ فجر الإسلام، وحين هاجر عدد من المسلمين إلى الحبشة فراراً بدينهم من أذى المشركين هاجر خنيس، وبقيت زوجته حفصة في كنف أبيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة عاد خنيس واصطحب زوجته مهاجرين إلى المدينة النبوية، وفي معركة أحد أصيب بعدد من الجروح توفي بسببها في ما بعد. فلما انقضت عدتها عرضها عمر على أبي بكر الصديق ليتزوجها فأبى، وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه قد فقدَ زوجته السيدة رقية رضي الله عنها بنت النبي ﷺ، فجاءه عمر رضي الله عنه يعرض عليه تزويجه من ابنته حفصة، فأبى، فوجد عمر في نفسه، فما كان ينبغي لمثل

عثمان أن يرد ابنة رجل مثل عمر، فشكاه إلى رسول الله ﷺ، فكان الجواب العظيم منه ﷺ، إذ قال له: ﴿يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة﴾[٢٩٢]، ما أروعها من كلمات! وما أعظمه من موقف، فقد خطب حفصة لنفسه فأرضى عمر رضي الله عنه، وزوج ابنته أم كلثوم رضي الله عنها لعثمان رضي الله عنه، وبذلك أزال ما بات في نفس عمر على صاحبيه أبي بكر وعثمان، وعوض عثمان عن زوجته الفقيدة بأختها رضي الله عنهما، فوفق ﷺ بين الجميع.

زواج بالأمر الإلهي:

تزوج النبي ﷺ اثنتين من زوجاته رضي الله عنهن بأمر من الله ووحي، وكذلك كان من وراء تزويجه بهما حِكم لمن تبصّر، فالأولى زينب بنت جحش، عقد الله قرانه بها وأنزل به قرآناً، والثانية عائشة رضي الله عنها، حاملة نصف الدين، فعن السيدة عائشة رضي الله عنها أنّ النّبي ﷺ قال لها: ﴿أُرِيتُكِ في المَنَامِ مَرَّتَيْنِ، أرَى أنَّكِ في سَرَقَةٍ مِن حَرِيرٍ، ويقولُ: هذِه امْرَأَتُكَ، فَاكْشِفْ عَنْهَا، فَإِذَا هي أنْتِ، فأقُولُ: إنْ يَكُ هذا مِن عِندِ اللَّهِ يُمْضِهِ﴾[٢٩٣]. وقد كان لذلك التزويج حكم عدة، من أعظمها أنها صغيرة السن، وذلك لتبقى من بعد النبي ﷺ تعلم الناس سنته وما تعلمت منه وما حفظت من أحاديث، ولهذا كان أكابر الصحابة إذا أشكل عليهم أمر من

---

[٢٩٢] الإصابة في معرفة الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ج٣، ص٤٦٥.
[٢٩٣] صحيح البخاري، برقم ٣٨٩٥.

الدين استفتوها، فيجدون علمه عندها. وقد صححت لكثير من الصحابة واستدركت عليهم بما حفظت وروت عن رسول الله ﷺ، وقد ألّف بدر الدين الزركشي كتاب «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة عن الصحابة»، تناول فيه المسائل التي قيل إن السيّدة عائشة رضي الله عنها استدركتها على الصحابة، فناقشها وتتبع متونها وأسانيدها وأثبت ما صح منها. فكان لزواج النبي ﷺ فوائد لا تحصى في جانب شرح السنة وتبيين ما خفي من الأحكام على بعض الصحابة والتابعين وتصويب ما فهموه خطأ أو التبس عليهم، ومنهم أبو هريرة رضي الله عنه في مسألة مرور المرأة أو الكلب أو الحمار أمام المصلي يبطل الصلاة. ومن جهة أخرى لا يسعنا ذكر فضل أبيها الصديق رضي الله عنه على الإسلام والمسلمين مما وهبه الله فأنفقه، والتضحيات العظيمة التي قدمها، أفلا يستحق أن يكرمه الله بمصاهرة نبيه ﷺ وجعل إحدى بناته أماً للمؤمنين؟ وهكذا كان، ﴿وقد سئل ﷺ: أيُّ النَّاسِ أحَبُّ إلَيْكَ؟ فقَالَ: عَائِشَةُ، قيل: مِنَ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: أبُوهَا، قيل: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ فَعَدَّ رِجَالًا﴾[٢٩٤].

حكمة تشريعية... ومكافأة

كانت زوجة حارثة بن شراحيل من بني قضاعة مع ولدها الطفل زيد، في زيارة لأهلها بني معن، قبل الإسلام، فأغارت خيل بني القين بن جسر على ديار أهلها واختطفته، وبيع في سوق عكاظ، فاشتُري لأم المؤمنين

[٢٩٤] المرجع السابق، برقم ٣٦٦٢.

السيدة خديجة رضي الله عنها، فلما تزوجها النبي ﷺ أهدته إليه ليخدمه، فأكرمه النبي وأحسن معاملته، وذلك لنبل أخلاقه ﷺ قبل أن يبعث، وكان زيد كريم النفس، فلقي الإحسان بالإحسان، إذ أحب النبي ﷺ حباً عظيماً، ومرت الأيام فجاء قوم من قبيلة زيد إلى مكة فعرفوه وعرفهم، فأخبروا أهله بمكانه، فجاء أهله يطلبون افتداءه من النبي ﷺ فخرج أبوه حارثة وعمه كعب ليفتدوه، والتقوا النبي محمداً ﷺ وطلبوا فداءه، فدعاهما إلى تخيير زيد نفسه؛ إن شاء بقي، وإن شاء عاد مع أهله من دون مقابل. ثم دعاه النبي ﷺ، وقال له: «فأنا من قد علمت ورأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما»، فقال زيد: «ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والأم»، فتعجّب أبوه وعمه وقالا: «ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك»؟! قال: «نعم. إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي اختار عليه أحداً أبداً»، فلما رأى النبي ﷺ منه ذلك، زاد في إحسانه فخرج به إلى الحِجْر، ونادى: «يا من حضر، اشهدوا أن زيداً ابني، أرثه ويرثني». فلما رأى ذلك أبوه وعمه اطمأنا وانصرفا. فصار زيد يُدعى بعد ذلك «زيد بن محمد»، وكان التبني شائعاً قبل الإسلام. وحين بُعث النبي ﷺ كان زيد من السابقين إلى الإسلام، فكان أول من أسلم من الموالي، بل إن إسلامه كان قبل إسلام الصدّيق رضي الله عنه. وهاجر زيد إلى المدينة المنورة، وهناك رغب في الزواج بزينب بنت جحش، فخطبها له ﷺ فقالت لا أرضاه؛ فقد كان الناس حديثي عهد بجاهلية، وزيد كان بالأمس عبداً، وزينب ابنة عمة النبي ﷺ فأمها أميمة

بنت عبد المطلب، فهي قرشية حسيبة جمعت السؤدد من طرفيه، وكأن النبي ﷺ علم ما يدور في نفسها، والإسلام وضع دعوى الجاهلية تحت أقدام المسلمين، فقال لها: لكنني رضيته لك. فاستنكفت منه وقالت مصرحة بما في نفسها: «أنا خير منه حسباً»، وكانت امرأة فيها حِدّة، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً﴾[٢٩٥]، عند ذلك رضخت زينب لأمر الله سبحانه وأطاعت رسوله ﷺ. تزوجها زيد جسداً بلا روح، فكانت دائمة الحزن، تؤدي واجبها بغير نفس، وما تبرح نظرة الاستعلاء أن تلوح في نظراتها أو حديثها أو معاملتها له، فكان يشكو ذلك إلى النبي ﷺ ويستأذنه في تطليقها، فيمنعه النبي ﷺ لمعرفته بعقلية المجتمع، إذ إنه لو طلقها فلن تجد كفؤاً يتزوجها ويرضى أن يحل محل العبد منها! صحيح أن زيداً ينادى «ابن محمد» لكن الجميع يعرفون أنه كان عبداً رقيقاً اشترته السيدة خديجة، فالاسم لا يغير الحقيقة، والعرف ما زال يبسط سيطرته على النفوس، فكان ﷺ يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾[٢٩٦] وينصحه باحتمال ما يبدر منها والصبر على أنفتها. كانت زينب مخطئة في موقفها من زيد رضي الله عنه، لكن لا أحد يستطيع أن ينكر أنها ضحت تضحية عظيمة بقبولها بالزواج منه، وهي لا ترضاه، امتثالاً لأمر الله وطاعة لرسوله ﷺ، وقد علمت يقيناً أن ورقتها قد احترقت،

---

[٢٩٥] سورة الأحزاب: ٣٦.

[٢٩٦] سورة الأحزاب: ٣٧.

فحتى لو طلقها زيد فلن تجد في أحد العوض الذي تأمله. هكذا كانت تفكر، وضاق الأمر بها وبزيد على حد سواء، والله سبحانه الذي يعلم ما تخفي الصدور، وأحكم هذا الكون ببديع صنعه، لم يأمرها بالرضوخ إلا لحكمة أخفاها لوقتها، فزيدٌ حِبُّ رسول الله ﷺ، وذو سابقة في الإسلام، وهو حسيب نسيب إلا أن القدر جعله يعاني وصمة الرق، وقد أحب امرأة شاركته الدين والهجرة، وتمناها زوجة، إلا أنه لم يجد فيها ما حلم به، لكن أنى له أن يعلم الغيب؟ وزينب كانت تتمنى أن يتزوجها مسلم يوازيها في حسبه، فالنساء يفخرن بأزواجهن، أما هي فكانت تشعر بالغضاضة بين قريناتها. فحقق الله سبحانه لزيد ما تمنى حتى عاينه فعافته نفسه، وامتحن زينب بالتسليم، وكسر بذلك حدّتها وأزال من نفسها بقايا كِبر الجاهلية وتمجيد أحسابها، فلما سلّمت أعد لها مكافأة عظيمة بأن يتزوجها سيد ولد آدم ﷺ، وتكون من وراء ذلك حكمة تشريعية عظيمة تمنع اختلاط الأنساب وتحفظ الحرمات، فلا حرام إلا ما حرم الله تعالى، فبدأ الله سبحانه في سورة الأحزاب إبطال سنتين من سنن الجاهلية، الأولى الظهار، وهو أن يقول الرجل لزوجته أنت كظهر أمي علي، فتحرم عليه وتصبح كأمه! والثانية سنة «التبني»: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[٢٩٧] فالزوجة تبقى زوجة، أو طليقة إذا طلقت، ولا

---

[٢٩٧] سورة الأحزاب: ٤.

تصير أماً لزوجها في حال من الأحوال، وإن قال لها الزوج ذلك فالقول لم يجاوز فمه ولا يصنع من الأمر حقيقة، الكلام في البيوع والزواج والطلاق والهبة والعتق يكون حكماً، لكن ذلك لا ينطبق على الأرحام لأنها صلة نسب ودم وأعراق، وكذلك من لم يكن ولدك يظل أجنبياً على محارمك وإن تبنيته وقلت هو ولدي، فتغيير الأسماء لا يغير حقائق مسمياتها. وذكر الطبري في تفسيره أن الله تبارك وتعالى كان قد أعلم نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه، فلما أتاه زيد يشكوها، قال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك، فأخفى ما أخبره الله به خشية أن يقول الناس تزوج طليقة ابنه، فلما بلغ الأمر حده أنزل الله حكمه الذي أظهر فيه حكمته من هذا التزويج بقرآن يتلى في تضاعيف سورة الأحزاب نفسها: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ۝ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ۝ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً ۝ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[٢٩٨]. وبذلك كانت القصة سبباً

[٢٩٨] سورة الأحزاب: ٣٧-٤٠.

في تشريع أمور مهمة في الحياة الاجتماعية والأنساب والمحارم، وقطعاً لهوى زيد رضي الله عنه ممن لا ترضاه، وكسرَ أنَفَةِ الجاهلية في نفس زينب رضي الله عنها، وامتحانها، ثم مكافأتها. ولعمري لو وضعت هذه الأمور برمتها في ميزان يزن الذرة لما اختل شعرة، ولو عرضت على أحكم أهل الأرض لعجب من حكمة الله في إحكامها، فسبحان الذي ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[٢٩٩].

وقد استغل بعضهم مضمون الآية الكريمة: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فزعم إفكاً وافتراء أن النبي ﷺ رأى زينب تستحم فدخلت في نفسه، في رواية مشابهة لما افتري على نبي الله داوود مع بتشثبع زوجة أوريا. في حين وجد آخرون أن مثل هذه الرواية لن تدخل العقول، فاختلق رواية أخرى تقول إن النبي ﷺ دخل على زينب ولم يكن زيد موجوداً، فأعجبته، فقال سبحان الله! أستغفر الله، وقام فخرج. فلما رجع زيد أخبرته زينب بما حصل، فذهب إلى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله إن كانت أعجبتك أطلقها وتتزوجها، فقال له النبي ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾. وهاتان الروايتان واضحتا الدس والإفك بالمنطق وبالسياق القرآني.

- **بالمنطق:** الرواية الثانية تقول: «دخل النبي ﷺ على زينب» التي تعد في العرف زوجة ابنه، وذلك قبل تحريم التبني، ومن الطبيعي أن يكون حديث النبي تسبيحاً واستغفاراً، فمن أين فهم زيد أن زينب أعجبت النبي

---

[٢٩٩] سورة الرعد: ٢.

ﷺ؟ وكأنهم لم يكن هاجسهم إلا النساء والاستمتاع، ولم يكونوا مشغولين بأعباء الحياة والصيام والقيام والتنظيم والتشريع والجهاد! ثم كيف يعرض زيد على النبي ﷺ أن يطلقها له ليتزوجها وهو في حكم ابنه عرفاً، وبنات الأبناء محرمات على الآباء حتى في الجاهلية؟ فالقصة واضحة الاختلاق والافتراء بالمنطق.

- بالسياق القرآني:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾.

أولاً: قدم الله سبحانه قول النبي ﷺ لزيد ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ على ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾، ولو كان ما زعموا حقاً لقدم الإخفاء على القول، لأنه لا علة بلاغية للتقديم هنا. وقد فصل بينهما بحرف العطف، أي أنك تقول له ذلك وتخفي إخبار الله لك بأنها ستكون زوجتك. ولو كان ﷺ في نفسه شيء مما تأولوه لقال له: تقول له مخفياً ما في نفسك.

ثانياً: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، ما معنى ذلك؟ هل معناه أنك تخفي شيئاً والله سيفضحُكَ؟ سبحان الله!

ثالثاً: قرن النبي ﷺ أمره زيداً بإمساك زوجه بأمره بتقوى الله، كما أثبتها القرآن الكريم: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، فكيف يأمر الناس بتقوى الله من ينظر إلى نساء الآخرين، بل إلى محارمه، بشهوة ويستهوين نفسه؟! أليس هو أولى بأن يتقي الله؟! فكيف إذا كان هذا الآمر نبياً رسولاً؟ أفليس لنا عقل يتدبر فينكر ما لا يصح؟!

ثالثاً: قال تعالى: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٣٠٠]. وقد أجمع علماء البلاغة وعلماء اللغة العربية أن كل حرف في القرآن الكريم جاء في موضعه، ولو تقدم أو تأخر لاختل التركيب واختلف المعنى. فلو قال سبحانه في أول الفاتحة: «لله الحمد» بدلاً من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، لأصبحت «ال» في «الحمد» عهدية، أي الحمد المعهود، فيكون المعنى «نحمد الله» أما في تقديم «الحمد» صارت «ال» استغراقية، أي تستغرق كل الحمد، فيكون المعنى «الحمد كله لله مبدءاً ومرجعاً في كل زمان ومكان وحال».

فإذا نظرنا إلى الآية الكريمة ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، وركزنا على موضع «ما» الموصولة التي بمعنى «الذي» لوجدناها تقع في حيز «مبديه» وليس في حيز «تخفي» ولو قال له «تخفي ما في نفسك والله مبديه» لكان المعنى كما تأوله الأفاكون، لأن ذلك سيعني أن في نفس النبي ﷺ شيئاً. أما في سياقها القرآني المحكم فهي تعني «تخفي في نفسك **الذي** سيبديه الله» أي أن الله سيبدي أمراً وأنت تخفيه في نفسك ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾، وهذا ما يؤكد رواية الطبري أن الله أخبر نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه، فأخفى ذلك في نفسه خشية مقالة الناس، ولم يخبر حتى زيداً الذي شكاها إليه واستأذن في تطليقها، فقال له ﷺ ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، وهو أيضاً ما يبطل ما افتري عليه ﷺ.

---

[٣٠٠] سورة هود: ١.

اثنتان برغبة لا إحدى عشرة

فهؤلاء تسع نساء تزوجهن النبي ﷺ لخصوصية في حالهن ولحِكَمٍ أرادها الله سبحانه من وراء هذه الزيجات، ولم يكن زواجه ﷺ بهن لرغبة نفسية أو شهوة النساء، فإذا أضفنا إليهن السيدتين ريحانة القرظية، ومارية القبطية، رضي الله عنهما، اللتين كانتا ملك يمين لا تدخلان في العدد الحصري للزوجات بأربع، وجدنا أن النبي ﷺ لم يتزوج برغبة شخصية إلا اثنتين، الأولى أم المؤمنين درة النساء وصاحبة الفضل العظيم على المسلمين السيدة خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها وأرضاها. وكانت هي التي أرسلت إليه ﷺ ليخطبها بعد ما رأت من أمانته حين اتّجر لها بمالها ووجدت البركة على يده في مضاعفة أرباحها، وما رواه لها غلامها ميسرة من عجائب صحبته في رحلة التجارة تلك التي رآها فيه ﷺ، فرغبت في الزواج به، وكانت تكبره بخمسة عشر عاماً، فتزوجها ﷺ راغباً فيها لما لها من كرم خلق وحكمة ونبل نفس اشتهرت بها بين نساء قريش، إضافة إلى شرفها العظيم حسباً ونسباً، وكانت أرملة، وقد خطبها عدد من وجوه قريش فأبت، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها رغبت فيه، ما يدل على كمال عقلها، إذ ردت الأغنياء والسادة على ثرائهم ومكانتهم، واختارت راعي الغنم اليتيم الفقير لأجل أخلاقه ونبل نفسه وتوسمها الخير فيه، فلما بُعث ﷺ نبياً صدّقته وآزرته ووضعت مالها تحت تصرفه ليجعله في سبيل الله ويدع العمل ويتفرغ لتبليغ دعوة ربه، فكان فضلها على الإسلام والمسلمين عظيماً. وولدت له بناته كلهن: السيدة زينب، والسيدة

رقية، والسيدة أم كلثوم، والسيدة فاطمة، وولديه القاسم وعبد الله، رضي الله عنهم أجمعين، ولم يتزوج عليها النبي ﷺ، وظل حافظاً لودها بعد وفاتها، يكرم أهلها ويرسل الهدايا لصديقاتها، وقد بشرها الله في الجنة بما لم يبشر غيرها من زوجات النبي ﷺ. والثانية التي تزوجها برغبة كانت ميمونة بنت الحارث، أخت زينب بنت خزيمة رضي الله عنهما، كما أسلفنا، وقد أشار عليه بذلك الزواج عمه العباس رضي الله عنه، وهي أخت أم الفضل زوجة العباس رضي الله عنهما، وقد تأيمت وكان النبي ﷺ في عمرة القضاء، فقبل النبي ﷺ مشورته وطلب منه أن يخطبها له، وقيل: إنها هي التي أنزل الله تبارك وتعالى فيها: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣٠١]، وذلك أن خطبة النبي ﷺ انتهت إليها وهي على بعيرها، فقالت: «البعير وما عليه لله ولرسوله». فوَهَبَتْ نفسها له ﷺ. وكان العباس حكيماً ذا سياسة وبعد نظر، وقد كشفت الأيام عن حنكته السياسية بعد وفاة النبي ﷺ في مشوراته، فكأنه أراد بمصاهرة النبي ﷺ لبني هلال جلب تأييدهم للدعوة وتألف قلوبهم للدخول في الإسلام، وهذا ما حصل فعلاً.

---

[٣٠١] سورة الأحزاب: ٥٠.

الخاتمة

لقد حاول كثير من الناس اتهام الأنبياء عليهم السلام بما لا ينبغي أن يكون في أي إنسان لديه عقل وأخلاق وحكمة وسمو نفس، فكيف بمن اجتمعت فيهم هذه السمات وزاد عليها الوحي من الله سبحانه، وتحققهم من مراقبته لهم ولجميع الخلق؟ النقص سمة المخلوقين لأن الكمال لله وحده، لكن هذا النقص يكون في الأنبياء بضعف أو عجز أو فقر أو مرض أو قهر، لكنه لا يكون أبداً في أخلاقهم، فما وصف به العهد القديم والتلمود أنبياء الله من سمات تليق بالوضيعين من الخلق أصحاب الخداع والنصب والاحتيال ومكر السيء، وغلبة الشهوة عليهم وارتكابهم الفواحش، في صحو أو سكر، كل ذلك كذب وافتراء أراد واضعوه دفع البشر إلى ارتكاب ذلك مبررين لأنفسهم بأن أنبياء قد فعلوه، والأنبياء لو فعلوا شيئاً من ذلك قبل بعثهم لما استحقوا النبوة ولا نالوا شرفها، لأن الله يعلم الغيب، ولا يختار أنبياءه ارتجالاً، فالنبي عنده نبي قبل أن يخلقه، ولأن ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٣٠٢] فإنه يحيط الأنبياء بظروف تمنع بدور شيء منهم يجرح في صدقهم أو أمانتهم أو أخلاقهم أو شرفهم، وهذا شيء يُدرك بالعقل والمنطق. ولكن الحقيقة التي يجب الكشف عنها ويحاولون سترها هي أنهم

---

٣٠٢ سورة الأنعام: ١٢٤.

لا يؤمنون بالله سبحانه، لكنهم لا يجرؤون على إعلان ذلك لظروف اجتماعية أو سياسية، أو ليسهل لهم التغلغل في الدين ومحاولة هدمه من داخله، ولو أنهم آمنوا بالله سبحانه لعرفوا أنه يتحكم بهذا الكون كله، وكما أن الإنسان أصبح قادراً على صناعة إنسان آلي يفعل ما يؤمر ولا يعصي، فإن الله خالق الخلق قادر على أكثر من ذلك، فكيف لا يخلق نبياً لا يعصي، وكيف لا يتدارك النبيَّ بالوحي أو ظرف مانع قبل أن يقع في الخطيئة؟ فإفكهم هذا كفر بالله أو بقدرته. أما الذين أفردوا وقتهم وجردوا أقلامهم للطعن في نبوة محمد ﷺ فإنهم لم يعترفوا بنبوته، ولو اعترفوا لتحروا صوابه ليتبعوه ووكلوا أخطاءه إلى الله مرسله، فهو الذي يحاسبه، لكن أهدافهم أبعد من ذلك، فهم لا يستطيعون أن يطعنوا في أي رمز من رموز بني إسرائيل، لأنهم يعلمون عقوبة ذلك في الدنيا، أما نبي الإسلام ﷺ فأمته غير مرهوبة الجانب، لذلك يتجرأ المتجرئون على الانتقاص من مكانته والإساءة إليه لأن العقوبة مؤجلة إلى الآخرة، وهم لا يؤمنون بالآخرة. أفلا يتفكر هؤلاء لماذا يسعون إلى ذلك حتى لو كانوا لا يؤمنون بالله أو الآخرة؟ هل يطلبون الحقيقة؟ أليس غريباً أن يتحدث عظماء فلاسفة الغرب وكبار مفكريهم عن صفات محمد ﷺ، وعن عبقريته الفذة في التشريع الذي جاء به (وإن لم يؤمنوا بأنه وحي إلهي)، والذي آتى كل ذي حق حقه، وأنصف الخلق وأقام العدل وأنشأ مجتمعاً حقق الرؤية الأفلاطونية وزاد عليها بإلغاء الفوارق الطبقية، بل إلغاء التقسيم الطبقي في المجتمع ﴿لا فضلَ لِعَربيٍّ على أعجميٍّ ولا لعَجميٍّ على عربِيٍّ، ولا لِأحمرَ على أسودَ

ولا لِأسودَ على أحمرَ، إلاَّ بالتَّقوى﴾[٣٠٣] ويتكلمون في ما قدمه ﷺ للبشرية، حتى يقول قائلهم: «إن البشرية لتفخر بأن محمداً منها»، ويتجولون في سيرته بإعجاب ودهشة مثنين على كل قول أو فعل يمر بهم، وفي الوقت نفسه يخرج من صفوف المسلمين من ينبش في مزابل التاريخ عن روايات مكذوبة وأحاديث موضوعة وقصص مفتراة، ليقول أخطأ محمد! أليس غريباً أن يقف المفكر الغربي عند الأشياء التي يراها صواباً، ويبحث المنتمي إلى الإسلام عن مواضع الزلل؟ ما الغاية من ذلك؟

نحن العرب كما أننا عالة على العلم الغربي فإننا عالة على الفلسفة والفكر الغربيين، لكن المشكلة أننا كما نبعث أبناءنا ليجلبوا العلم الغربي فيجلبون لنا الموسيقا والرسم وصورة الحياة الاجتماعية هناك، فإن طلاب الفكر منا يجلبون أشياء مشابهة، فنراهم لا يأخذون من المفكرين الإصلاحيين الذين همهم مصلحة البشرية والبحث عما ينفعها ويجدي في تسيير أمورها وتحقيق العدل والإنصاف والمساواة وحفظ الكرامة، سواء أكان المصدر دينياً أم مدرسياً، من دون تعصب للمصدر، بل إن بعضهم لا يؤمنون بدين لكنهم يقرون بالأحكام الدينية التي فيها نفع للبشرية، سواء للفرد أم للمجتمع، ويدعون إلى تطبيقها. وقد تخلوا عن عصبيتهم لأقوامهم أو أديانهم أو مدارسهم أو أساتيذهم واختاروا من كل المصادر ما يقدم الخير أو يدعو إليه أو يرشد إليه أو يبشر به، أما أبناؤنا فتخلوا عن دينهم ولم

---

[٣٠٣] تقدم تخريجه برقم ٢٣٨.

يتخلوا عن عصبيتهم لجهة ما أو فلسفة ما أو حتى لشخص بعينه؟ فلماذا يرفضون التبعية في ما فيه خير، ويقبلونها في ما ليس فيه سوى التشكيك بالثوابت وإثارة الفتن؟ وقد ذكرنا عدداً من أقوال الفلاسفة والمفكرين الغربيين غير المؤمنين تثني على محمد ﷺ وعلى أفعاله والحلول التي قدمها لكثير من المشكلات الإنسانية، والتي في ظلها ينشأ مجتمع فاضل في ظروف بسيطة وممكنة، أفليس من الإنصاف أن يقف أبناؤنا غير المؤمنين بالله ورسله مثل هذه المواقف الفكرية التي تبحث عما ينفع البشرية، بدلاً من إضاعة وقتهم في البحث عما يقوّي في نفوسهم الكفر ويدعّم الجحود بنبي أخرج أمتهم من عبادة الأحجار إلى عبادة الله، وباتباعه أقبلت عليهم الدنيا بعلومها وآدابها ومتعها، حتى صنّفه اليهودي الغربي مايكل هارت بأنه الأول على عظماء العالم المئة؟ أليس الأولى بهم أن يفكّروا في ما يعود بالنفع على مجتمعهم الإنساني، وتخليص مجتمعاتهم مما تعاني من الفساد والرشوة والانفلات الأخلاقي والظلم والغش والخيانة، بدلاً من سعيهم إلى زيادة الفواحش والمفاسد والشرور بإثارة شكوك الناس في دينهم ودفعهم إلى مزالق تضعف إيمانهم بربهم لتؤدي إلى إزالة أعظم الموانع من ارتكاب الظلم وهو خوف الله في قلوب الناس وخشيتهم الحساب يوم المعاد على خطاياهم ومظالمهم وجرائمهم؟ ألم يكن الأولى بهم أن يعملوا دعاة إلى الخير مصلحين يبينون للناس فضل الاستقامة في المعاملات وخطورة أكل المال الحرام، وقبح الظلم وأذية الخلق، وبشاعة الاعتداء على حقوق الآخرين؟ ألم يقرؤوا قول من قال: «إذا لم يؤمن

الإنسان بوجود الله يصبح كل شيء عنده مباحاً، حتى الجريمة»؟! فأين سلامة الفكر ممن يدّعونه وهم يتطفلون على موائد أعداء الإنسانية؟ وكل همهم الدعوة إلى الإباحية والفساد بلا ضابط أخلاقي ولا مانع ديني، لكن صدق رسول الله ﷺ إذ يقول: ﴿إنَّ ممَّا أدْرَكَ النَّاسُ مِن كَلامِ النُّبُوَّةِ، إذا لَمْ تَسْتَحْيِ فافْعَلْ ما شِئْتَ﴾[٣٠٤]. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الطيبين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلام على المرسلين، وآخر دعوانا أن ﴿الْحَمْدُ لِلَّـــهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ﴾.



٣٠٤ صحيح البخاري، برقم ٣٤٨٣.

المراجع

ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري، أحكام القرآن، دار ابن حزم، ٢٠١٨م.

ابن الملقن، عمر بن محمد الأنصاري، البدر المنير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن حبان، محمد بن حبان البستي، صحيح ابن حبان المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع، تحقيق محمد علي سونمز، وخالص اي دمير، دار ابن حزم.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق خليل شيحا، دار المعرفة للطباعة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية.

ابن حنبل، أحمد بن محمد، المسند، تحقيق أحمد شاكر وحمزة الزين، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٥.

ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري، الطبقات الكبرى، تحقيق علي محمد عمر، ط١، الشركة الدولية للطباعة، مدينة ٦ أكتوبر.

ابن عبد البر، عمر يوسف، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، تحقيق منذر محمد سعيد أبو شعر، دار الكتب المصرية.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، دار الحديث، القاهرة.

ابن كثير، إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر.

ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن على بن منظور الأنصاري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان.

ابن هشام، عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، دار الفيحاء، دار المنهل ناشرون، دمشق.

أبو بكر، علاء، إعدام الإله بين المسيحية والوثنية، مكتبة وهبة، منتدى سور الأزبكية.

أبو خليل، شوقي، جرجي زيدان في الميزان، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨١م.

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق، دلائل النبوة، تحقيق محمد رواس قلعجي، عبد البر عباس، دار النفائس، لبنان.

أبو يعلى، القاضي محمد بن الحسين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق محمد مصطفى أبوه الشنقيطي، دار البخاري للنشر والتوزيع، المدينة المنورة.

أبيش، أحمد أبيش، ترجمة التلمود، قدم له سهيل زكار، طبعة دار قتيبة.

البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الكتب العلمية.

البوصيري، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل، إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، تحقيق دار المشكاة للبحث العلمي، طبعة دار الوطن.

البوطي، محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية، ط٨، دار الفكر المعاصر بيروت، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٧م.

البيهقي، أحمد بن حسين بن علي، السنن الكبرى، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

الترمذي، محمد بن عيسى بن سَورة، الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الحاكم، محمد بن عبد الله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الكتب العلمية.

السفاريني، محمد بن أحمد بن سالم، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الكتب العلمية، بيروت.

الصفوري، عبد الرحمن بن عبد السلام، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، ضبط وتصحيح الشيخ عبد الوارث محمد علي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد الساعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

العهد القديم (التوراة)، نسخة إلكترونية، موقع العيون المعرفية:

https://mandaeannetwork.com/Mandaean/bibel/10_samuael_2.htm

المباركفوري، صفي الرحمن، الرحيق المختوم، دار ابن حزم.

المنجّد، محمد صالح، موقع «الإسلام سؤال وجواب»:

https://islamqa.info/ar/217453

النووي، يحيى بن شرف، شرح متن الأربعين النووية، مكتبة دار الفتح، دمشق، ١٩٨٤.

الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق الشيخ حسين سليم الداراني، دار المنهاج، ط١، ٢٠١٥م.

الوادعي، مقبل بن هادي، الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين، دار الآثار، صنعاء.

بدوي، عبد الرحمن بدوي، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، الدار العالمية للكتب والنشر، القاهرة، مصر.

براناتيس، آي بي، فضح التلمود تعاليم الحاخاميين السرية، إعداد زهدي الفاتح، طبعة دار النفائس.

جريدة «الجريدة» الكويتية:
https://www.aljarida.com/articles/1461866048002039600/

حسين، طه حسين علي بن سلامة، على هامش السيرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر.

سكاي نيوز، موقع إلكتروني: http://shorturl.at/bmJO2

صحيفة «دنيا الوطن»: https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/49157.html

عبد الغني، مصطفى، الأمير والمفكر طه حسين والسلطة في مصر، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

عوض، لويس، ثورة الفكر في عصر النهضة الأوروبية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، ١٩٨٧م.

مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض.

فهرس

المؤلف في سطور

مصطفى كمال الزايد، كاتب وشاعر سوري، ولد في مدينة الميادين (الرحبة) في الجزيرة الفراتية عام ١٩٦٦م، تخصص في الأدب العربي بجامعة حلب، وعمل مدرساً في سورية والسعودية، ثم محرراً في صحيفة الحياة بالرياض، ثم في كليات الغد الدولية. له عدد من المؤلفات:

١- ترنيمات وتر، ديوان شعري صادر عن دار عكرمة بدمشق ١٩٩٣م.

٢- تطلعات في المنفى، قصيدة شعرية مطولة، صادرة عن دار الفارس بمنبج ١٩٩٥.

٣- نساء وشعراء وأمراء، كتاب أدبي صادر عن دار طويق بالرياض ٢٠٠٤م.

٤- أتمنى أن أكون صحابياً، مجموعة قصصية صادرة عن دار طويق بالرياض ٢٠٠٣م.

٥- فرص ذهبية، بالاشتراك مع أ. عبد المطلب حمد عثمان، صادر عن دار طويق بالرياض٢٠٠٦م.

٦- القمع في الإسلام – حقائق مغيبة نسخة إلكترونية
https://alzayd7.000webhostapp.com/islam/#p=1

٧- أخطاء النبي محمد ﷺ بين الوحي والرأي نسخة إلكترونية.

بريد التواصل: alzayd7@gmail.com

علّمونا أن الأنبياء معصومون، وأنهم لا يخطئون، لِنُفاجأ بعد رحلة البحث أن التوراة والتلمود يقدّمان لنا صوراً مخالفة لما في أذهاننا عن الأنبياء، فعرفنا أن ثمّة صراعاً تاريخياً بين ما هو خيالي وما هو حقيقي، بين ما هو أسطوري ينشأ في المستحيل البشري وما هو مثالي ينشأ في الممكن الإلهي، ولا أزعم أننا خُدعنا، ولكن على الأقل هناك أيدٍ خفية تحاول ركم السحب أمام الشمس لتمنع عنا إشراقها الكامل. وفي هذا الكتاب حاولنا مناقشة المسلّمات بمقتضى العلم والمنطق لا بمنطق التسليم الأعمى والعلم المقصور على فئة سعت وما زالت تسعى إلى تضليل البشرية للوقوف عند حدود قناعاتها وما تفرضه على عقولنا من استنتاجات نشأت من تفسيرات ارتأتها عقول منحازة ومتعصبة أو نفوس مريضة، لنزيح ما أمكن من تلك السحب من أمام الشمس في محاولة لإيصالها إلى إشراق كامل.